الفصل السادس والعشرون بعد المئة

الفلسفة والحكمة

أما مؤلفات في العلوم والفلسفة ، منقولة عن اليونانية أو اللاتينية الى العربية ، فلا أدري أن أحداً من أهل الأخبار ذكر وجودها عندهم بلغة بني إرم ، أو بلغة اليونان ، ذلك لأن المثقفين وأصحاب الرأي والعزم كانوا على اتصال بالعالم الخارجي ، وكانوا يدارسون الأعاجم ويأخذون عنهم ، وقد درس بعضهم في مدارس الفرس والعراق وبلاد الشأم،ولغة الدراسة في تلك البلاد السريانية واليونانية والفارسية ، فلا يستغرب أن يكون مِنْ هؤلاء مَنْ درس بلغة من هذه اللغات في الحجاز أو في اليمن . أما في بلاد العراق وبلاد الشأم ، فالأمر لا يحتاج فيها الى نظر ، فقد رأينا أن عربها أسهموا في الحركة العلمية قبل الاسلام لكنهم أسهموا بلغة السريان ، لا باللغة العربية ؛ لأن العربية لم تكن عربية واحدة يومئذ ، وانما كانت جملة لهجات ، ثم إنها كلها ، لم تكن قد وصلت الى درجة من الاستعمال والانتشار تجعلها لغة للترجمة والتأليف .

الحكمة :

وأما (الحكمة) ، فقد ذكر أهل الأخبار أمثلة عديدة منها زعموا انها لحكماء جاهليين ، أوردوا أسماءهم ، ولكنهم لم يفيضوا في بيان سيرهم وتراجم حياتهم،

بعض ما نسب اليهم سجع قصير ، وبعضه كلام منظوم وبعضه مثل زعم انهم ضربوه فسار بين الناس .

وقد اشتهر الشرق بالحكمة ، وهو ما زال على حبه لها باعتبارها أداة للتعليم والتثقيف . والحكيم ، هو (حكيمو) Hakimo في الإرمية ، بمعنى عالم[1] . ونرى في التوراة اصحاحات مثل : الأمثال وأيوب ونشيد الأنشاد وغيرها ، ملئت حكمة . والحكيم هو (حكميم) عند العبرانيين . وأما الحكمة ، فهي : (حوكماه) (حوكمه) Hokhmah[2] .

و (الحكيم) في تعريف علماء اللغة العالم وصاحب الحكمة ، المصيب برأيه ، الذي يقضي على شيء بشيء ، فيقول : هو كذا وليس بكذا . وهو الذي يحسن دقائق الصناعات ويتقنها . وقد ورد في الحديث : إن من الشعر لحكماً ، أي إن في الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما ، قيل أراد به المواعظ والأمثال التي ينتفع بها الناس . ويروى إن من الشعر لحكمة . وقد سمّى الأعشى قصيدته المحكمة حكيمة ، أي ذات حكمة ، فقال :

وغريبة تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها[3]

وقالوا ان من معاني : الحكيم الحاكم ، وهو القاضي ، أو هو الذي يحكم الأشياء ويتقنها ، وان الحكمة : العدل ورجل حكيم ، عدل حكيم . وان (المُحكَم) هو الشيخ المجرب المنسوب الى الحكمة ، ولذلك يقال للرجل اذا كان حكيماً : قد أحكمته التجارب . والحكيم : المتقن للأمور[4] . وفي هذه التعاريف دلالة على انهم كانوا يسمون الحكمة بالتبصر في الأمور ، وباستقراء الحوادث ودراستها لاستخراج التجارب منها ، والحكم بموجبها ، ومن هنا أدخلوا الحكم بين الناس ، والنظر في الأحكام في جملة أمور الحكمة .

وليس هذا الرأي ، هو رأي العرب وحدهم . فقد كان هذا الرأي معروفاً

---

١ غرائب اللغة (ص ١٧٩) .

٢ Hastings, Diction., I, p. 648, A Dictionary of christ, and the Gospels, Vol., II, p. 825. ff., B.W. Anderson, understanding the old Testament, p. 467.

٣ تاج العروس (٨/٢٥٥) ، (حكم) .

٤ اللسان (١٢/١٤٠ وما بعدها) .

عند غيرهم أيضاً. فنجد الحكماء عندهم حكاماً يحكمون في الخصومات وفي المنازعات: بفضل ما أوتوا من فطنة وصبر وذكاء وعلم ، وهي من أهم صفات الحكم . ونجد في أدب الشرق الأدنى القديم أشخاصاً مثل (أحيقار) الشهير ، يجمعون بين الحكم والحكمة ، وقد ضرب بهم المثل في نجاحهم في اصدار الأحكام .

والحكيم في الشرق بمنزلة الفيلسوف عند اليونان . وما (ارسطو) الفيلسوف اليوناني الشهير وكذلك أفلاطون ، غير حكماء في نظر الشرقيين . ولذلك ادخلوا في (الحكماء) . والحكيم هو مؤدب ومرشد وواعظ يعظ الناس ويرشدهم في هذه الحياة ، وهو خير مستشار في كل شيء ، لأنه بفضل ما يملكه من عقل ومن تجربة يستطيع أن يفصل بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ . ولذلك كان الحكماء هداة قومهم واساتذتهم وفلاسفتهم ، أقوالهم حكمة للناس ودرس في كيفية السير في العالم .

ولكننا لا نستطيع أن نرادف بين (الحكمة) وبين (الفلسفة) . فبين الاثنين فرق كبير في المفهوم . ولا يمكن أن نقول إن الفلسفة بالمعنى اليوناني ، هي في مفهوم (الحكمة) عند شعوب الشرق الأدنى . لأن بين الفيلسوف وبين (الحكيم) تباين كبير في اسلوب البحث وفي كيفية التوصل الى النتائج والمعرفة وفي مفهوم كل واحد منهما لهدف الآخر ، وفي الغاية المقصودة من كل منهما . فالغاية من الحكمة العبرة والإتعاظ والأخذ بما جاء فيها من حكم ، أي غايات عملية وتأديبية ، بينما الغاية من الفلسفة البحث عن معنى الحكمة وعما يكون وراء الطبيعة من خفايا غير مكتشفة وأسرار[1] .

وقد وردت لفظة (الحكمة) في القرآن الكريم[2] . وقد ذكر العلماء أن الحكمة اسم للعقل ، وإنما سمي حكمة لأنه يمنع صاحبه من الجهل[3] . فالحكمة إذن ، هي بمعنى العلم والتفقه . وهي بذلك ذات حدود واسعة ، بل لا نكاد نجد لها حدوداً معينة فاصلة ، فقد شملت أموراً كثيرة ، اطلقت على رجال اشتهروا بالحكم بين الناس ، أي بالبت فيما ينشأ بينهم من شجار وخصومة ، وأطلقت على أناس ذكر

---

١ Hastings, p. 975.

٢ وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، راجع المعجم المفهرس (ص ٢١٣ وما بعدها) .

٣ غريب القرآن ، للسجستاني (ص ١١٨) ، (سنة ١٩٢٤) .

أنهم كانوا كهاناً ، وأطلقت على جماعة عرفت بأن لها رأياً في الدين ، وأطلقت على نفر كان لهم رأي في المعالجة والتطبيب ، وأطلقت على نفر عرفوا بقراءة الكتب القديمة ، أي الكتب السماوية وغيرها مما كان عند يهود والنصارى وعند الروم والفرس ، وأطلقت على غير ذلك ، فهي إذن كما ترى ذات معان واسعة شاملة .

ويلاحظ ان القرآن الكريم ، قد أورد لفظة (الحكمة) بعد لفظة (الكتاب) وفي حالة العطف ، أي على هذه الصورة : (الكتاب والحكمة) ، واستعملها بعد لفظة (الملك) في الآية : « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء »[1] . واستعملها مفردة كما في « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً »[2] ، وفي مواضع أخرى . وقد ذهب المفسرون الى ان المراد من الكتاب القرآن ، ثم اختلفوا في معنى الحكمة ، فمنهم من قال انها السنة ، ومنهم من قال المعرفة بالدين والفقه ، ومنهم من قال : الحكمة العقل في الدين ، أو الاصابة في القول والفعل ، الى غير ذلك من أقوال[3] ، تدل على ان تفسيرها بمعنى السنة والتفقه في الدين من التفسيرات التي ظهرت في الاسلام . أما معناها عند الجاهليين ، فكان بمعنى الخبرة المكتسبة من الملاحظات العميقة الى الأشياء ، أو المستخلصة من التجارب ، وبمعنى العلم والرأي الصائب. وبهذا المعنى جاءت الحكمة عند الساميين . فقد كان الحكيم عندهم العالم الذكي الفطن الذي ينظر بعين البصيرة الى أعماق الأمور بتؤدة وتبصر وأناة ، فيبدي رأيه في كل شيء في هذه الحياة ، من سياسة واقتصاد ، ومن أمور تخص السلم أو الحرب ، أو الخدع ، والحكم بين الناس . ولهذا كان الحكماء في أعلى الدرجات في مجتمعهم من ناحية الثقافة والرأي .

ويظهر من دراسة ما ورد في المؤلفات الإسلامية عن الحكمة والحكماء أن الجاهليين أرادوا بالحكمة حكايات وأمثلة فيها تعليم ووعظ للإنسان ، يقولونها ليتعظ بها في حياته وليسير على وفق هدى هذه الحكم . وهي حكم حصلت من تجارب عملية ، ومن ملاحظات وتأملات في هذه الحياة . ولهذا نسبوا الحكمة الى

---

١ البقرة ، الرقم ٢ ، الاية ٢٥١ .
٢ البقرة ، الاية ٢٦٩ .
٣ تفسير الطبري (١/٤٣٦) .

أناس مجربين أذكياء لهم صفاء ذهن وقوة ملاحظة مثـــل : (أكثم بن صيفي) و (قس بن ساعدة الإيادي) وغيرهما ممن سيأتي الكلام عليهم . روي أن (عمر ابن الخطاب) قال لكعب الأحبار وقد ذكر الشعر : « يا كعب ، هـــل تجد للشعراء ذكراً في التوراة ؟ فقال كعب : أجد في التوراة قوماً من ولد اسماعيل، أناجيلهم في صدورهم ، ينطقون بالحكمة ، ويضربون الأمثـال ، لا نعلمهم إلا العرب »[1] . فالعرب هم أصحاب حكمة وأمثال عـــلى رأي (كعب الأحبار) ان صح ان هذا القول المنسوب اليه هو من أقواله حقاً ، والأمثال باب من أبواب الحكمة ، بل تكاد تؤدي معناها عند الجاهليين ، فالحكيم عندهم هو الذي ينطق بالحكم يقرنها بالأمثال ، وبالقصص والنوادر .

وإذا بحثت عن الحكمة في العهد القديم تجدها في الأمثال ، وفي سفر أيوب، وفي نشيد الانشاد ، وفي سفر الجامعة والحكمة وفي (سيراخ) ، وفي حكمـــة (سليمان) التي هي في المزامير[2] . وهي أمثال في الغالب نبعت من تجـــارب أخذ العبرانيون بعضها من غيرهم ، ونبع بعض آخر من تجاربهم الخاصـة ، وظهرت عندهم أمثال إنسانية عامة تخطر على بال كل إنسان ، فهي عامـــة مشتركة ، لم يأخذها قوم من قوم ، وإنما هي خاطرات وتجارب تظهر لكل إنسان ، فضرب بها المثل في كل لسان .

ونحن لا نملك في هذا اليوم كتابـة جاهلية ، فيها حكم من حكم الجاهليين . وكل ما ورد الينا من حكمهم مأخوذ من موارد اسلامية . ولذلك صار كلامنا على الحكمة في الجاهلية مثل كلامنا على سائر معارف الجاهليين ، ضيقاً محدوداً ، منبعه ما ورد عنها عند المسلمين .

ويظهر من بعض الحكم المنسوبة الى الجاهليين ، انها ترجع الى أصل يوناني ، حيث نجدها مدونة في كتب فلاسفتهم مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو ، مما يدل على انها دخلت الى العربية عن طريق الترجمة من اليونانية أو من السريانية، وعن طريق بلاد الشأم في الأغلب ، حيث كانت الثقافة اليونانية قد وجدت لها سبيلاً هناك ، بحكم خضوعها لليونانيين قبل الميلاد وبعد الميلاد ، وبحكم وجود جاليات يونانية كبيرة هناك .

---

١ العمدة (ص ٢٥) ، القاهرة ١٩٦٣ م .
٢ Hastings, p. 975.

ويظهر من دراسة بعض آخر من الحكم المنسوبة الى الجاهليين انها من أصل فارسي . ولا يستبعد أن تكون قد دخلت من الأدب الفارسي القديم الى عرب العراق ، وقد عاشوا قبل الاسلام في اتصال وثيق مع الفرس. وكان بعض العرب قد أتقنوا الفارسية وأجادوا فيها ، كما ان من الفرس من كان قد تعلم العربية وبرع فيها . ثم إن بين ذوقي العرب والفرس تشابه في نواح من الأدب ، ولهذا كان أثر الأدب الفارسي في الأدب العربي أكبر وأظهر من أثر الأدب اليوناني فيه.

ونجد في الحكم المنسوبة الى (أحيقار) ، شبهاً لها في الحكم العربية القديمة ، وترجمة أصيلة لبعض حكمه أحياناً . خذ قوله : « يا بني إذا أرسلت الحكيم في حاجة ، فلا توصه كثيراً ، لأنه يقضي حاجتك كما تريد . ولا ترسل الأحمق، بل امضِ أنت واقضِ حاجتك »[1] . ولو درست بقية حكمه ، وما ورد في الحكم المنسوبة الى الجاهلين ، ترى شبهاً كبيراً في المعنى بل وفي اللفظ في الغالب، مما يدل على أنها ترجمة أخذت من السريانية فعربت ونسبت الى الجاهليين ، أو أن الجاهليين وقفوا عليها فصاغوها بلسانهم ، فنسبت اليهم . وأكثر حكمه موجهة الى ابن اخته (نادان) ، حيث يعظه فيقول : « يا بني ... » .

غير أن علينا ألا ننسى ،بأن من الحكم ، ما هو عام ، يرد على خاطر أغلب الشعوب ، وعلى لب أكثر الناس ، حتى وان لم يكونوا من المثقفين الدارسين . لأنه مما يتشارك فيه العقل الإنساني ، فيكون عالمياً إنسانياً . ولهذا،فنحن لا نستطيع أن نردّه الى أحد ، ولا أن نرجعه الى مرجع معين . ولا نستطيع أن نقول ان العرب أخذوه من غيرهم ، أو أن الأعاجم أخذوه من العرب . بسبب ما ذكرته من كونه من نتاج عقل واحد ، هو القاسم المشترك بين عقول الإنسان .

واذا صح ما روي من أن (سويداً بن الصامت) المعروف بـ (الكامل)، كان يملك (مجلة لقمان) ، وقد أراها الرسول مقدمه عليه بمكة ، وما ذكر من انها كانت في الحكمة[2] . فتكون هذه المجلة ، أو الكتاب ، أقدم شيء يصل اسمه الينا من الكتب التي تداولها أهل الجاهلية . ولم يذكر الرواة – ويا للأسف –

---

١ أغناطيوس افرام الاول برصوم ، اللؤلؤ المنثور في تأريخ العلوم والاداب السريانية (٦٧) ، (حمص ١٩٤٣) ، تأريخ كلدو وآثور (١/١١٣ وما بعدها) ، (٢/٤٠).

٢ الروض الانف (١/٢٦٥) .

محتويات تلك المجلة ونوع الحكم التي احتوتها .

فقد روي « ان سويد بن صامت قدم مكة حاجاً أو معتمراً ، وكان سويد انما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشرفه ونسبه ... فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سمع به ، فدعاه الى الله والاسلام ، فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعرضها عليّ ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله عليّ ، هو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه الى الاسلام فلم يبعد منه . وقال : إن هذا لقول حسن . ثم انصرف عنه ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث ان قتلته الخزرج » وكان قتله قبل يوم بعاث[1] .

والمجلة : الصحيفة فيها الحكمة ، وكل كتاب عند العرب مجلة[2] ، وقيل : « كل كتاب حكمة عند العرب مجلة » . قال النابغة :

مجلتهم ذات الإلـه ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب[3]

وبالنظر الى اشتهار لقمان في الأدب العربي بالحكمة عن طريق ضرب الأمثال . ونظراً لظهور أمثال كثيرة في الإسلام نسبت اليه ، فإن من المحتمل أن تكون تلك المجلة التي زعم أنها كانت عند (سويد) مجموعة من حكم وأمثال . لا ندري من جمعها فنسبها اليه ، لعدم اشارة أهل الأخبار الى ذلك ، ولا يستبعد أن تكون هذه الأمثال من الأمثال المنتزعة من التوراة أو من الإنجيل أو من كليهما ، فدوّنت في مجلة أي في كراسة أو كتاب فنسبها أهل الأخبار اليه . نظراً لما جاء في القرآن الكريم من نسبة الحكمة اليه . وقد تكون تلك المجلة من حكم الحكيم (أحيقار) ، الحكيم الشهير صاحب الأمثال الذي كان مقرباً الى الملك (سنحاريب) ومستشاراً له . فله في أدب (بني إرم) ذكر خاص ، وله أمثال في الإرمية طبعت وترجمت الى جملة لغات . وعرفت أمثاله في العربية كذلك ، في أيام

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٢٦٥ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الفائق (١/٢٠٦)

٢ تاج العروس (٧/٢٦١) ، (جلل) .

٣ الفائق (١/٢٠٦) .

الجاهلية ، فأشار (عدي بن زيد العبادي) اليه والى قصته [1] .

ولقمان : شخصية ذكرت في القرآن ، وفي القرآن الكريم سورة سميت باسمه . وورود في كتاب الله ، دليل على وقوف الجاهليين بقصصه وشيوع خبره وأمره بينهم . ونجد في كتب التفسير والأدب والأخبار وكتب المعمرين قصصاً عنه [2] . وقد عرف بـ (لقمان الحكيم) . وقد بحث عنه المستشرقون ، وحاولوا تحليل القصص الوارد عنه وإرجاعه الى أصوله . وقد بحث في ذلك المحدثون في مصر وفي غير مصر من البلاد العربية [3] .

قال (الجاحظ) : « وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر لقيم بن لقمان في النباهة والقدر ، وفي العلم والحكم ، وفي اللسان والحلم . وهذان غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن على ما يقوله المفسرون . ولارتفاع قدره وعظيم شأنه ، قال النمر بن ثولب :

لُقيم بن لقمان من أخته فكان ابن أخت له وابنا
ليالي حمق فاستحضنت عليه فغُرّ بها مظلما
فغرّ بها رجل محكم فجاءت به رجلاً محكما [4]

وقد أشار (المسيب بن علس) الى (لقمان) في شعره [5] ، كما ذكره (لبيد ابن ربيعة) الجعفري في شعره كذلك [6] ، وأشار اليه (يزيد بن الصعق) الكلابي في شعر هو :

---

١ الحماسة ، لنبحتري ، (٨٦) ، (بيروت ١٩١٠ م) .
٢ « لقمان بن عاد » ، مجمع الامثال (٣٠٣/١) .
٣ فجر الاسلام (٧٨/١ وما بعدها) ، الدكتور عبد المجيد عابدين ، الامثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها في الاداب السامية الاخرى (ص ٤٣ وما بعدها) ، مجمع الامثال ، للميداني (٣٧/١) .
٤ البيان والتبيين (١٨٤/١) .
٥ البيان والتبيين (١٨٨/١) .
٦ البيان والتبيين (١٨٩/١) .

اذا ما مات ميت من تميم فسرّك أن يعيش فجيء بزادِ
بخبز أو بلحم أو بتمرٍ أو الشيء الملفّف في البجاد
تراه يطوف الآفاق حرصاً ليأكل رأس لقمان بن عادِ

وقيل إن هذا الشعر هو لأبي مهوش الفقعسي[1] .

وورد ذكر (لقمان) في شعر (أفنون) التغلبي[2] ، وفي شعر (سا ربيعة بن دباب بن عامر بن ثعلبة)[3] ، وفي شعر شعراء آخرين .

وعرف لقمان عند الجاهليين كذلك بالنباهة والذكاء وبالعلم وبقوة اللسان وبخلال أخرى يرون أنها من سجايا الحكماء ، حتى زعم أن أختاً لـه ، مُحَمَّقة ، تحايلت عليه ، فاتصلت به اتصال الزوجات ، طمعاً في الحصو ولد ذكي حكيم منه يكون على شاكلته ، فأحبلها بولد عرف بـ (لقيم) في شعر ينسب الى النمر بن تولب.ولأهل الأخبار قصص عنه وعن أخت لـ

وذكر (الجاحظ) أن (لقمان) قتل ابنته ، وهي صحر أخت لقيم ، و حين قتلها : ألست امرأة ! وذلك أنه كان قد تزوّج عدة نساء ، كلهن في أنفسهن ، فلما قتل أخراهن ونزل من الجبل ، كان أول من تلقاه صحر فوثب عليها فقتلها[5] وقال : وأنت أيضاً امرأة ! وللجاحظ قصص عنه[6] .

وفي سورة (لقمان) ، « ولقد آتينا لقمان الحكمة : أن اشكر لله ، و يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غني حميد . وإذ قال لابنه ، وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم »[7] . إذن حكيم من الحكماء ، وهب الحكمة وصواب الرأي . له ولد وعظه ونه

---

١ المرزباني ، معجم (٤٨٠) ، البيان والتبيين (١/١٩٠) ، الخزانة (٣/٢٩ الاقتضاب (٣٨٨) ، العقد الفريد (٣/١٤٢) .
٢ البيان والتبيين (١/١٩٠) .
٣ المصدر نفسه (١/١٩٠) .
٤ بلوغ الارب (٣/٢١٢ وما بعدها) .
٥ الحيوان (١/٢١) .
٦ المحاسن والاضداد (١٣٣) .
٧ الاية ١٣ وما بعدها .

وفي كتب قصص الأنبياء وكتب الأخبار والأدب وصايا للقمان ، وعظ بها ابنه ، وأدبه ، هي قطع في التأديب وفي قواعد السلوك[1] .

وفي جملة ما رواه أهل الأخبار من حكمه ان مولاه قال له يوماً « اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها . قال : أخرج أطيب مضغتين فيها ،فأخرج اللسان والقلب . ثم مكث ما شاء الله ، ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها . فقال : اخرج أخبث مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب . فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها ، فأخرجتها ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتها. فقال له لقمان : انه ليس من شيء أطيب منهما اذا طابا ، ولا أخبث منهما اذا خبثا »[2] .

وقد ذكر أهل الأخبار امرأة يقال لها : (صحر بنت لقمان) ، قالوا : انها اشتهرت بالعقل والكمال والفصاحة والحكمة ، وان العرب كانت تتحاكم عندها فيما ينوبهم من المشاجرات في الأنساب وغيرها . وقالوا انها كانت ابنة لقمان ، ومنهم من زعم انها اخته لا ابنته[3].

وذكر أهل الأخبار أن (لقمان) هو ممن آمن بـ (هود) ، وأما لقمان المذكور في القرآن ، فهو غيره . وكان لقمان القرآن ابن أخت أيوب ، او ابن خالته ، وقيل كان من ولد (آزر) ، وأدرك داوود وأخذ منه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داوود ، فلما بُعث قطع الفتوى ، وكان قاضياً في بني اسرائيل ، وكان حكيما ولم يكن نبياً . وورد أنه كان راعياً أسود ، فرزقه الله العتق ، وقيل : كان أسود من سودان مصر خيّاطاً ، وقيل كان نجاراً[4] . وذكر (الجاحظ) : أن (لقمان) من السودان ، وهو الذي يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الخوف ، والأخ عند حاجتك .

وقال لابنه : إذا أردت أن تخالط رجلاً فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك وإلا فأحذره .

---

١ العقد الفريد (٣/١٥٢) .
٢ تفسير الطبري (٢١/٤٣ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (١/٣٤٢) .
٤ الخزانة (٢/٧٨) ، (بولاق) .

ولم يرووا ذلك عنـــه إلا وله أشياء كثيرة . وأكثر من هـذا مدح الله إياه وتسميته الحكيم ، وما أوصى به ابنه »[1] .

ويشبه قصص (لقمان) وما يضرب على لسانه من أمثال ، قصص (ايسوب) عند الأوروبيين . وهو الباحث عن الحكمة عن طريق ضرب الأمثال وقول الألغاز والقصص[2] . وقد رأى بعض الباحثين أن لأمثال لقمان وحكمه صلة بـ (احيقار) . وذهب بعض المستشرقين الى وجود صلة بين لقمان وبين بعض الشخصيات القديمة التي يرد اسمها في الأدب القديم مثـــل Prometheus و Alkmaion و Lucian و (سليمان) ، وبلعام .

وقد ضرب (أبو الطمحان حنظلة بن الشرقي القيني) المثل بتشتت حي لقمان، وبتفوقهم أفراقاً اذ يقول :

أمست بنو القين أفراقاً موزعة كأنهم من بقايا حي لقمان[3]

وقد اشتهر (سليمان) عند العرب بالحكمة أيضاً ، فعرف عندهم بـ (سليمان الحكيم) ، وقد أشير اليه في القـــرآن الكريم . وكان اليهود والنصارى هم نقلة أخبار هذه الحكمة الى الوثنيين . وكان يهود المدينة مصدر هذه الأخبار بالدرجة الأولى ، فقد كانوا بحكم اختلاطهم بأهل يثرب قد أذاعوا بينهم قصصاً اسرائيلياً، ومنه قصص داوود وسليمان .

و (سليمان) أحكم الحكماء عند اليهود . يذكرون « ان حكمته فاقت حكمة جميع العلماء في عصره . وكان أحكم من جميع الناس »[4] . ويذكرون انه ألّف الأمثال . ونطق بثلاثة آلاف مثل ، وألف خمس نشائد[5] . ووضع نشيد الأنشاد والجامعة . وذاعت حكمة سليمان وانتشر خبرها في كـل الأنحاء بحيث أتى أناس من الأباعد ليشاهدوها وكانوا يمتحنونه بمسائل عسرة[6] ، في جملتهم ملكة سبأ

---

١ رسائل الجاحظ (١/١٧٩) ، (فخر السودان على البيضان) .
٢ Shorter Ency., p. 290.
٣ البيان (١/٨٨٧ وما بعدها) ، الخزانة (٣/٤٢٦) .
٤ قاموس الكتاب المقدس (١/٥٧٩)، (سليمان) .
٥ الملوك الاول ، الاصحاح الرابع ، الاية ٣٢ .
٦ الايام الثاني ، الاصحاح التاسع ، الاية ٦ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٥٧٩) ، (سليمان) .

التي سمعت بحكمته فجاءت تمتحنه كما جاء ذلك في التوراة .

وتقترن لفظة (مجلة) عادة بالحكمة . قال علماء العربية : « والمجلة ، بفتح الميم ، الصحيفة فيها الحكمة »[1] ، وقد تتألف من (صحف) . و (الصحيفة) الكتاب . وذكر علماء اللغة ان « الوضيعة : كتاب تكتب فيه الحكمة .. وفي الحديث انه نبي وان اسمه وصورته في الوضائع »[2] .

وقد ذكر أهل الأخبار أن (قيس بن نشبة) ، كان منجماً متفلسفاً في الجاهلية . وهو ممن أدرك أيام الرسول[3] . وذكر أنه من (بني سُلَيم) ، وانه كان يعرف الرومية والفارسية ويقول الشعر[4] . وانه جاء الى الرسول « بعد الخندق فقال : إني رسول من ورائي من قومي ، وهم لي مطيعون وإني سائلك عن مسائل لا يعلمها إلا من يوحى اليه ! فسأله عن السموات السبع وسكانها وما طعامهم وما شرابهم ، فذكر له السموات السبع والملائكة وعبادتهم ، وذكر له الأرض وما فيها فأسلم ورجع الى قومه ، فقال : يا بني سليم ! قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأشعار العرب والكهان ومقاول حمير ، وما كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم فأطيعوني في محمد فإنكم أخواله فإن ظفر تنتفعوا به وتسعدوا وإن تكن الأخرى ، فإن العرب لا تقدم عليكم . فقد دخلت عليه وقلبي عليه أقسى من الحجر ، فما برحت حتى لان بكلامه . وقيل عنه إنه كان يتأله في الجاهلية وينظر في الكتب ، فجاء الى الرسول لما سمع به ، وسأله ، فآمن به . ولعلمه سماه رسول الله : (حبر بني سُلَيم) ، وكان إذا افتقده يقول : يا بني سليم أين حبركم . وهو عم الشاعر العباس بن مرداس ، أو ابن عمه . ولما أسلم قال قال هذه الأبيات :

تابعت دين محمد ورضيته ... كل الرضا لأمانتي ولديني
ذاك امرؤ نازعته قول العدا ... وعقدت فيه يمينه بيميني
قد كنت آمله وانظر دهره ... فالله قدر أنه يهديني
أعني ابن آمنة الأمين ومن به ... أرجو السلامة من عذاب الهون

---

١ تاج العروس (٧/٢٦١) ، (جلل) .
٢ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، (وضع) .
٣ تاج العروس (٨/٩٥) ، (كحل) .
٤ البلدان (٢/٢٥٠) .

وذكر أنه كان قد قدم مكة في الجاهلية فباع إبلاً له فلواه المشتري حقه ، فكان يقوم فيقول :

يا آل فهر كنت في هذا الحرم في حرمة البيت وأخلاق الكرم
أظلم لا يمنع مني من ظلم

فسمع به عباس بن مرداس ، فكتب اليه أبياتاً منها :

وائت البيوت وكن من أهلها وداً تلق ابن حرب وتلق المرء عباسا

فقام العباس بن عبد المطلب وأخذ له بحقه . وقال : أنا لك جار ما دخلت مكة ، فكانت بينه وبين بني هاشم مودة [1] .

وذكر ان (أبا العاصي بن أمية بن عبد شمس) ، كان حكيماً . وقد عدّ من حكماء قريش وشعرائهم [2] . كما ذكر ان (الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية) الأموي ، وكان من الكتّاب بمكة في الجاهلية ، والذي علم الكتابة بالمدينة بأمر الرسول ، كان يعلم الحكمة [3] . وذكر (ابن حبيب) ، ان (الحكم بن سعيد) كان من أمراء الرسول (على قرى عربية) [4] ، وذكر أيضاً ان الرسول سمّاه (عبدالله وجعله يعلّم الحكمة) ، وقد استشهد يوم مؤتة [5] .

ويظهر ان الحكمة المنسوبة الى (قيس بن نشبة) ، أو الى (الحكم بن سعيد) كانت نوعاً من العلوم التي يدرسها الفلاسفة والحكماء في ذلك الوقت ، أي علوماً يونانية ، وتأملات وملاحظات عن هذا العالم ، فهي دراسة منظمة تختلف في طرازها عن الحكمة القائمة على القصص وضرب الأمثال . وقد تكون قد أخذت من الكتب اليونانية أو السريانية ، أو الفارسية ، فقد رأينا أهل الأخبار يذكرون ان (قيس بن نشبة) كان يعرف الرومية والفارسية ، كما ذكروا مثل ذلك عن النضر بن حارث بن كلدة وعن الأحناف ، وأنا لا أستبعد احتمال ذلك ، لأن

---

١ الاصابة (٣/٢٤٩ وما بعدها) ، (رقم ٧٢٤٤) .
٢ كتاب نسب قريش (٩٩) ، المعارف (٧٣) .
٣ الاصابة (١/٣٤٣ وما بعدها) ، (رقم ١٧٧٧) .
٤ المحبر (١٢٦) .
٥ المحبر (٤٦٠) .

بعضهم كان قد وصل العراق وبلاد الشأم وخالط الأعاجم، كما كان من الأعاجم من سكن مكة والقرى العربية الأخرى لأغراض مختلفة ، ومنهم من كان على فقه بعلوم قومه ، ومعرفة علمية بلغتهم ، فلا يستبعد اذن تعلم من كان فيه ميل من العرب الى العلم والثقافة،العلم والفلسفة والنظر من تلك البلاد التي زاروها ، ومن هؤلاء .

وذكر ان (النضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) العبدري القرشي كان من حكماء قريش . وقد استشهد يوم اليرموك في رجب سنة خمس عشرة. وكان أخوه (النضر بن الحارث) ، شديد العداوة للرسول ، فقتله علي يوم بدر كافراً ، قتله بالصفراء[1] .

وروى (عُمران بن حصين) ، (عمران بن الحصين) ، حديثاً عن رسول الله ، هو : « الحياء لا يأتي إلا بخير » ، فقال « بشير بن كعب ، وكان قد قرأ الكتب : إن في الحكمة : أن منه ضعفاً . فغضب عمران ، وقال : أحدثك بما سمعت من النبي ، وتحدثني عن صحفك هذه الخبيثة »[2] . ويظهر ان (بشيراً) هذا كان ممن طالع كتب أهل الكتاب ووقف على الحكمة .

وقد ذكر الأخباريون أسماء أناس آخرين عرفوا بالحكمة كذلك ، مثل : أكثم بن صيفي التميمي ، من رؤساء تميم ومن (حكام العرب)[3] . ويلاحظ أن الأخباريين يخلطون في الغالب بين الحكيم والحاكم ، فيجعلون (حكّام العرب) من (حكماء العرب) ويذكرون أحكامهم في باب الحكم . كذلك نسبوا معظم خطباء الجاهلية الى الحكمة كذلك ، مما يدل على أن للحكمة عند الأخباريين معنى واسعاً ، يشمل كل ما فيه عظة وتعليم . وقد كان العبرانيون وبقية الساميين يجعلون الحكام من طبقة الحكماء ، لأن الحاكم لا بد وان يكون حكيماً ، أي مدركاً فطناً نافذاً الى بواطن الأمور ، يحكم عن عقل ناضج وعن رأي مصيب ، فهم أولى وأقدر على ابداء الأحكام الصحيحة من غيرهم ، ولهذا نجد ارتباطاً كبيراً في المعنى وفي اللفظ بين لفظتي حاكم وحكيم .

---

١ الاستيعاب (٣/٥٣٥ وما بعدها) ، الاصابة (٣/٥٢٥) ، (رقم ٨٧١٣) .
٢ مصادر الشعر الجاهلي (١٦٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/١٧٢ وما بعدها) .

ومن حكام العرب الذين ذكرهم أهل الأخبار ، ونسبوا اليهم الحكم والاصابة في الرأي وصدق الأحكام (عامر بن الظرب العدواني) حكيم قيس، وقد عدوه (من حكماء العرب ، لا تعدل بفهمه فهماً ولا بحكمه حكماً) . وقالوا : انه هو المراد في قول العرب : « إن العصا قُرعت لذي الحلم » . أما (ربيعة) ، فتقول : انه (قيس بن خالد بن ذي الجدّين) . وأما تميم ، فتنسب هذا الفخر الى رجل منها هو (ربيعة بن مخاشن أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم) . وأما اليمن ، فتقول : انه (عمرو بن حممة الدوسي) ، ويذكر بعض آخر انه (عمرو بن مالك بن ضبيعة ، أخو سعد بن مالك الكناني)[1] .

وفي كتاب (العقد الفريد) ، قصة اجتماع وقع بين عامر بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي وبين ملك من ملوك حمير ، ورد فيها : أن الملك قال لهما : تساءلا ، حتى أسمع ما تقولان ؟ ودوّن رواة هذه القصة ما جرى في الاجتماع من أسئلة وأجوبة. ومدارها خاطرات عن الحياة وعن الناس وعن الأدب، بالسجع المألوف[2] . ومما جاء فيها ان أحكم الناس « من صمت فاذّكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر » ، وان أجهل الناس من رأى الخُرق مغنماً ، والتجاوز مغرماً »[3] .

وذكر أنه كان قد جمع قومه (عدوان) ، فنصحهم بقوله : « يا معشر عدوان : الخير ألوف عروف ، وإنه لن يفارق صاحبه حتى يفارقه ، وإني لم أكن حكيماً حتى صاحبت الحكماء ، ولم أكن سيدكم حتى تعبدت لكم[4] . وكان كما يقول (ابن حبيب) ، آخر حكام العرب وقضاتهم وأئمتهم قبل انتقال الحكومة الى (بني تميم) بعكاظ[5] ، وروي له حكم في (الخنثى) ، وأيد الإسلام حكمه[6] . ورووا له شعراً في الخمر ، يقول فيه :

---

١ « ان العصا قرعت لذي الحلم » ، مجمع الامثال (١/٣٩ وما بعدها) ، الامدى ، المؤتلف (ص ١٥٤) .
٢ العقد الفريد (٢/٢٥٥ وما بعدها) .
٣ الامالي (٢/٢٧٦ وما بعدها) .
٤ الامالي (٢/١٥٧) ، البيان والتبيين (١/٤٠١) ، (٢/١٩٩) .
٥ المحبر (١٨١) .
٦ المحبر (٢٣٦) .

إن أشرب الخمر أشربها للذتها وإن أدعها فإني ماقت قال
لولا اللذاذة والفتيان لم أرها ولا رأتني إلا من مدى الغال
سئالة للفتى ما ليس يملكه ذهابة بعقول القوم والمال
مورثة القوم أضغاثاً بلا احن مزرية بالفتى ذي النجدة الحال
أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرق ترب القبر أوصالي[1]

وفيه يقول ذو الاصبع العدواني :

ومنا حكم يقضي فلا ينقضي ما يقضى[2]

ومن حكمه: « الرأي نائم ، والهوى يقظان ، فمن هنالك يغلب الهوى الرأي»[3] . وله جواب على خطاب (صعدة بن معاوية) حين جاء اليه يخطب ابنته[4] .

وكانت له بنت عدت من حكيمات العرب ، حتى جاوزت في ذلك مقدار (صحر بنت لقمان) ، و (هند بنت الخس) ، و (جمعة بنت حابس بن مُليل) الاياديين[5] .

وذكر أهل الأخبار أن من حكام تميم في الجاهلية : أكثم بن صيفي،وحاجب ابن زرارة ، والأقرع بن حابس ، وربيعة بن مخاشن ، وضمرة بن ضمرة . ويذكرون أن (ضمرة) حكم ، فأخذ رشوة ، فغدر . والغدر عيب كبير ، ومن أذم الصفات عند الجاهليين[6] .

وقد نسب أهل الأخبار حكماً وأمثلة لأكثم بن صيفي ، منها المثل : « مقتل الرجل بين فكّيه » يعني لسانه[7] ، ومن الأقوال المنسوبة اليه ، قوله : « تناءوا في الديار ، وتواصلوا في المزار »[8] ، وقوله : « تباعدوا في الديار تقاربوا في

---

١ المحبر (٢٣٩) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٦٤) ، (حاشية ٣) .
٣ البيان والتبيين (١/٢٦٤) .
٤ البيان (٢/٧٧) .
٥ البيان والتبيين (٣/٣٨) .
٦ مجمع الامثال (١/٤١) .
٧ خلق الانسان (ص ١٩٥) .
٨ البيان والتبيين (٣/٢٥٥) .

المودة»[1]. وقد عدّ أسلوب كلامه من أرشق أساليب الفصحاء ، ومن أحكم كلام، فيه نصائح وحكم مع بلاغة متناهية وفصاحة . ونسبوا له خطباً منمقة[2] ، هو في نظري من هذا النثر المصنوع ، الذي وضع على لسانه في الاسلام .

وقد اشتهرت (تميم) بكثرة حكمائها[3] ، ونلاحظ ان هؤلاء الحكماء كانوا حكاماً كذلك ، يحكمون بين الناس فيما يقع بينهم من شجار . ومعنى هذا ان بين الحكمة والحُكم عند العرب الجاهليين صلة متينة . وقد رأيت ان تميماً كانت قد احتكرت لنفسها الحكومة في سوق عكاظ على ما يذكره أهل الأخبار . وهم من القبائل المتقدمة بالنسبة الى القبائل الأخرى التي كانت عند ظهور الاسلام، انتقلت اليها هذه الحكومة من (بني عدوان) ، الذين كان آخر حكامهم (عامر بن الظرب) العدواني .

وقد كان لاتصال أهل الأخبار بتميم ، دخل ولا شك في كثرة أسماء حكمائها التي وصلت الينا من خلال دراستنا لكتبهم ، فقد كان اتصالهم بها أكثر من اتصالهم بأية قبيلة أخرى ، لوجودها على مقربة من الكوفة والبصرة ، ولذلك أكثروا اللغة عنها ، حتى صرنا نعرف من أمور نحوها ولغتها ما لا نكاد نعرفه عن نحو ولغة أية قبيلة أخرى . ولرجال تميم خطب طويلة ، في الحكم ، هي تأملات وخاطرات وضعت على ألسنتهم في الاسلام ، إذ لا يعقل كما سبق أن قلت في مواضع متعددة من هذا الكتاب وصول نصوص نثر ، بهذا النوع من الضبط والتحري عن أهل الجاهلية حتى نحكم بصحة نصوص ما نسب الى حكماء تميم . نعم قد يقول قائل ، ان الشاعر (بشر بن أبي خازم) كان قد أشار الى (كتاب بني تميم)[4] ، فلا يستبعد أن يكون (بنو تميم) قد سجلوا خطب وأشعار سادتهم فيه ، ولكني أقول إن من العلماء من نسب هذا الشعر الى (الطرماح ابن حكيم) وهو شاعر إسلامي ، توفي في حوالى السنة (١٠٥) ، واننا حتى لو فرضنا أن ذلك الشعر هو للطرماح ، وأنه يدل على وجود كتاب قديم عند

---

١ البيان (٢/٧٠) .

٢ بلوغ الارب (٣/١٧٢) .

٣ Goldziher, History of classical Arabic Literature, p. 7.

٤ المفضليات (٩٨) ، الامثال ، للميداني (١/١٣٧) ، العسكري ، جمهرة الامثال (٢٨٩) .

(بني تميم) ، فإننا لا نستطيع ان نأخذ بالظن ، ونقول بصحة مثل هذه الخطب المنسوبة الى خطباء وحكماء تميم لمجرد وجود اشارة الى كتـــاب عندهم لا نعرف من أمره شيئاً ، غير اشارة الى اسمه وردت في شعر ، لا ندري مبلغ درجتـــه من الصحة والاصالة .

وممن نسبت اليه الحكمة (الأفوه الأودي) ، وهو شاعر اسمـه (صلاءة بن عمرو) من (أود) . وله قصيدة دالية ، فيها رأيه في الحكم وفي الناس وفي الخير والشر[1] . وذكر انه هو القائل :

ملكنا ملك لقاح أول وأبونا من بني أود خيار[2]

والعادة أن تنسب الحكم الى المسنين ، وقلما نجد حكماً صادرة من شبان وأحداث وذلك ان العقل لا يكتمل إلا بتكامل العمر وبتقدم الانسان في السن ، وبتقدمه في السن تزيد تجاربه واختباراته في هذه الحياة ، فيكون عندئذ أهلاً للنطق بالحكمة . ولم يكتف أهل الأخبار ببلوغ الحكماء سن الشيخوخة الطبيعية ، بل صيروا عمـــر معظم المعمرين فوق المئة ، بل جعلوها مئات . وعمر مثل هذا كفيل بأن يكون مصدراً للحكم والأمثال . ونجد في (كتاب المعمرين من العرب) للسجستاني أمثلة من عمر هؤلاء الحكماء .

---

١ الاغاني (١١/٤٤) ، الشعر والشعراء (١١٠) ، ديوانـــه ، الامالـــي ، للقالـــي (٢/٢٢٨) ، تأريخ آداب اللغة العربية ، لزيدان (١/١٣٤ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢/٢٩٢) ، (أود) .

الفصل السابع والعشرون بعد المئة

الامثال

و (المثل) لون من ألوان الحكمة . وهو يقابل (مشل) في العبرانية، ومعنى آخر هو الحكمة والأساطير والقصص ذو المغزى . ولا يشترط في المثل أن يكون نثراً ، فقد يكون شعراً . وفي الموارد الاسلامية أمثلة جاهلية كثيرة من النوعين، لم يصل أي مثل منه مدوناً في نص جاهلي[1] .

وللحكماء المذكورين أمثلة كثيرة ترد في كتب الأدب والمواعظ والأمثال . وقد شرح غرضها أصحاب الموارد التي ذكرتها، وتعرض الرواة للقصص المروي عنها . غير ان من الصعب التثبت من صحة نسبة تلك الأمثال الى أولئك الحكماء والتثبت من صحة هذا القصص المروي عنها .

وكلمة المثل من المماثلة . وهو الشيء المثيل لشيء يشابهه ، والشيء الذي يضرب لشيء مثلاً ، فيجعل مثله[2] ، والأصل فيه التشبيه ؛ ويقابله (مشل) (مشال) Mashal في العبرانية ، و Parabole في اليونانية ، ومعناها المماثلة والمشابهة ، أي المعنى الوارد للفظة في العربية . والغاية من الإهتداء بما فيه من حكمة ومن

---

١ « والمثل : الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله » ، اللسان (١١/٦١٠ وما بعدها) « صادر » ، نهاية الارب (٣/٢ وما بعدها) ، كتاب جمهرة الامثال ، لابي هلال العسكري ، (القاهرة ١٩٦٤ م) ، (١/٧) .

٢ اللسان (١١/٦١٠ وما بعدها) ، (مثل) .

حسن توجيه ، ومثل أخلاقية للسير على هديها في الحياة[1] . وقد ضربت التوراة الأمثال للناس للاتعاظ بها والأخذ بما فيها من عبر . ورد في سفر (حزقيال) : « هو ذا كل ضارب مثل يضرب مثلاً عليك قائلاً : مثل الأم بنتها »[2] ، وجاءت الأمثال في الأناجيل فورد : « في هذا يصدق القول : إن واحداً يزرع وآخر يحصده »[3] .

وقد لخص الاصحاح الأول من سفر (الأمثال) الغاية من ضرب الأمثال بقوله: « لمعرفة حكمة وأدب ، لادراك أقوال الفهم ، لقبول تأديب المعرفة والعدل والحق والاستقامة ، لتعطي الجهال ذكاءً والشاب معرفة وتدبراً ، لفهم المثل واللغز أقوال الحكماء وغوامضهم: مخافة الرب رأس المعرفة . أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب »[4] . فالأمور المذكورة ، تمثل الغاية التي يتوخاها ضراب الأمثال من الأمثال : وقد جعلت أسفار الأمثال المثل : مخافة الرب رأس المعرفة أول أمثالها : وهو في العربية : رأس الحكمة مخافة الله .

ونجد في سفر (أمثال) كلاماً للحكماء ، هو مزيج من أمثلة وحكم وألغاز ، دون أن يشير الى أسماء أصحابه[5] ، ونجد مثل ذلك في الأدب العربي . وقد اشتهر أبناء الشرق بالحكمة عند العبرانيين .

والمثل بعد ، هو عقل ضاربه ، وثقافة البيئة التي ظهر فيها . ولهذا نجد الأمثال متباينة مختلفة حسب تنوع القوم الذين ظهر بينهم . ففي البيئة التجارية يكون المثل من هذه البيئة في الأغلب، وفي البيئة الزراعية يكون المثل مشرباً بروح المزارعين، وفي البادية تكون الأمثال ذات طبيعة بدوية . ومن هنا اختلفت أمثال قريش عن أمثال الأعراب ، وأمثال عرب العراق عن أمثال أهل العربية الجنوبية ، وهكذا . ولهذا فإن للمثل في نظر المؤرخ قيمة كبيرة من حيث انه يرشده الى مظاهر تفكير من ضرب بينهم ، ويعرفه بمبلغ ثقافة قائليه .

ولما كانت الأمثال مرآة لعقلية زمانها ولعقلية من ينسب قول المثل اليه ، أو من

---

١ Hastings, p. 767.
٢ حزقيال ، الاصحاح السادس عشر ، الاية ٤٤ .
٣ إنجيل يوحنا ٤ ، الاية ٣٧ .
٤ أمثال ، الاصحاح الاول ، الاية الاولى وما بعدها .
٥ أمثال ، الاصحاح الثاني والعشرون ، والاصحاح الرابع والعشرون .

ضرب به المثل . تباينت في البلاغة وفي قوة التعبير وعمق المعنى ، وفي الفكرة ، فصار بعضها آية في الحكمة وفي قوة البيان وفي عمق المغزى والمعنى ، وصار بعض منها بسيطاً تافهاً . ونجد هذه الحالة في أمثال كل الأمم . إذ ان المثل لا يصدر عن طبقة معينة ، بل قد يأتي من رجل جاهل بسيط ، وقد ينسب الى غبي بليد أو الى شخص من سواد الناس اتخذ رمزاً للتعبير عن ناحية من نواحي الحياة ، أو نموذجاً يعبر عن طبقة من الطبقات . وانما المهم في رواج المثل وفي بقائه، أن يكون منبعثاً عن واقع حال ، معبراً عن رأي سديد ، قصير قدر الامكان مركزاً له وقع حسن على السمع ، يصلح أن يكون مثلاً لكل زمان ومكان . فيروج ويدوم ، وقد يتخذ مثلاً من أمثلة الحكمة ، وهو كلما قصر ، سهل حفظه وطال عمره .

وأفضل المثل السائر ، أوجزه ، وأحكمه أصدقه ، وقولهم : مثل شرود ، وشارد ، أي سائر لا يرد كالجمل الصعب الشارد الذي لا يكاد يعرض له ولا يرد . وقد تأتي الأمثال محكمة إذا تولاها الفصحاء من الناس ، وإذا جاءت في الشعر ، سهل حفظها [1] .

والأمثال مادة مهمة غنية في الأدب الجاهلي والاسلامي . وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة ضربت للناس للتفكر والتعقل ، وهي تدل على ما لها من أهمية تعليمية في العقل العربي . والأمثال المضروبة مرجع لمن يريد الوقوف على بعض الأمثلة التي استعملها الجاهليون . وفي الحديث النبوي مادة مهمة تمدّ هذا الباحث بمادة غزيرة عن المثل عند الجاهليين [2] .

و « الأمثال من حكمة العرب في الجاهلية والاسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية بغير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى ، وحسن التشبيه » [3] . فالأمثال اذن عند الجاهليين نوع من أنواع الحكمة السائرة بين الناس . يقولها السيد والمسود ، البارز والخامل ، وهي تحفظ بسهولة ولا يحتاج المرء لتعلمها الى

---

١ العمدة (١/٢٨٠ وما بعدها) .
٢ المستطرف في كل فن مستظرف (١/٢٧ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٢٣٤) .

مهارة وذكاء . وكان لحفّاظ الأمثال مقام عندهم ، لأنهم ممن وهبوا بياناً ناصعاً وقوة في اللسان، تمكن صاحبه من ضرب المثل في موضعه ، ومن قوله في مكانه . والعادة أن يكثر الحكيم من الأمثال في كلامه ، لأنها المادة التي يستعين بهـا في إظهار حكمته وعقلـه ، يضيف عليها أمثالاً من عنده ، هي من وحي تجاربه وقوة ملاحظته .

وقد وردت كلمة (مثل) و (أمثال) في مواضع كثيرة من القرآن ، وفي ورود الكلمتين بهذه الكثرة دلالة بالطبع على ما كان للمثل من أهمية كبيرة عند الجاهليين . وفيه أمثلة كثيرة ضربت للعبرة والتذكر ، لتكون درساً يتعظ به أولو الألباب . ويلاحظ ان العرب يضعون لفظة (ضرب) قبل كلمة المثل في الغالب ، ورد في القرآن الكريم « ألم تر كيف ضرب الله مثـلاً »[1] ، و « ضرب الله مثلاً »[2] ، وورد « وضربنا لكم الأمثال »[3] ، و « فلا تضربوا لله الأمثال »[4] ، و « تلك الأمثال نضربها للناس »[5] ، وفي مواضع أخرى منه . وضرب المثـل ايراده ليتمثل به ويتصور ما أراد المتكلم بيانه للمخاطب . يقـال : ضرب الشيء مثلاً وضرب به وتمثله وتمثل به . وضرب المثل اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به[6] .

وقد أشاد العلماء بما للأمثال من أهميـة في الحث على إصلاح النفس ، فقال بعضهم : « انما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظـاً » ، وقال بعض آخر : « ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة : التذكير ، والوعظ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وتقريب المراد من العقل ، وتصويره بصورة المحسوس ... الخ » . وروي ان الرسول قال : « إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثـال »[7] . وجعل (الماوردي) الأمثال من أعظم علم القرآن[8] .

---

١ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الاية ٢٤ .
٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الاية ٧٥ وما بعدها ، ومواضع أخرى .
٣ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الاية ٤٥ .
٤ النحل ، الرقم ١٦ ، الاية ٧٤ .
٥ الحشر ، الرقم ٥٩ ، الاية ٢١ .
٦ تاج العروس (١/٣٤٧) ، (ضرب) .
٧ السيوطي ، الاتقان (٤/٣٨) .
٨ المصدر نفسه .

وللرسول أمثال كثيرة ، وذكر عن (عمرو بن العاص) ، أنـــه حفظ عن النبي ألف مثل[1] . ونجـــد في كتب الأمثال أمثالاً نسبت الى الرسول . منها : « إن من البيان لسحراً »[2] ، و « إن مما ينبت الربيعُ لما يقتل حبطاً أو يلم »[3] . و « إياكم وخضراء الدمن »[4] ، و « من كثر كلامه كثر سقطه »[5] ، و « أنصر أخاك ظالمـــاً أو مظلوماً » ، ويروى أنه من أمثلة أهل الجاهلية[6] . وقد نسبت أمثلة جاهلية أخرى الى الرسول .

والأمثال أقوال مختصرة ، يراعى في وضعها الايجاز والبلاغة والتأثير . وقـــد يكون المثل كلمتين ، وقد يكون أكثر من ذلك . ولكن العادة ألا يكون طويلاً ، لأن طول المثل يفقده روعته وتأثيره ، فلا يكون مثلاً ، ولا يمكن حفظه عندئذ فيضيع . ويراعى أن يكون سجعاً أو طباقاً . وأن يرتب في جمل متوازية بسيطة العبارة ، أو مزدوجـــة أو أكثر من ذلك قليلاً . وأن تكون هنالك مناسبة بين الجمل حتى يبدو المثل جميلاً متناسقاً .

والقاعدة في الأمثال الا تغير ، بل تجري كما جاءت . وقد جاء الكلام بالمثل وأخذ به وإن كان ملحوناً . لأن العرب تجري الأمثال على ما جاءت ، ولا تستعمل فيها الإعراب[7] . والأمثال قد تخرج عـــن القياس ، فتحكى كما سُمعت ، ولا يطرد فيها القياس ، فتخرج عن طريقة الأمثال . « قـال المرزوقي : من شرط المثل ألا يغير عما يقع في الأصل عليه »[8] .

وقال المرزوقي « في شرح الفصيح : المثلُ جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه الى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها ، وعما يوجبه الظاهر الى

---

١ الاستيعاب (٢/٣٣٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ العسكري ، جمهرة الامثال (١/١٣) .
٣ المصدر نفسه (١/١٦) .
٤ العسكري ، جمهرة (١/١٧) ، الميداني (١/٢١) ، المستقصي (١٨٠) .
٥ العسكري ، جمهرة (١/١٩) .
٦ العسكري ، جمهرة (١/٥٨) ، الميداني (٢/١٩٤) ، الفاخر (١٤٧) ، السيوطي ، الجامع الصغير (١/١٨٨) .
٧ المزهر (١/٤٨٧) ، (النوع الخامس والثلاثون . معرفة الامثال) .
٨ المزهر (١/٤٨٧ وما بعدها) .

أشباهه من المعاني ، فلذلك تُضرب وإن جهلت أسبابهـا التي خرجت عليها ، واستجيز من الحذف ومُضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يستجاز في سائر الكلام »[1] .

ويلاحظ ان العرب قد أجازت لضارب المثل الخروج فيه على قواعد اللغة ، كما أجازت ذلك للشاعر بدعوى ضرورات الشعر ،ليستقيم الشعر مع القوافي والوزن . أجازته في المثل لأنه قد يصدر شعراً ، وقد يصدر سجعاً ، وقد يصدر من أفواه أناس جهلة لا يبالون بالقواعد ، أو ليس لهم عـلم بها ، وقد يصدر من قبيلة لا تتبع في لغتها قواعد الإعراب .

ونجد في كتب الأمثال وفي كتب الأدب أمثالاً وضعت لأغراض مختلفة، يغلب عليها الطابع التعليمي ، أي تعليم من يقرأها حكمة الحياة ، وتجارب الماضين حتى يُستفاد ويُتعظ . بعض منها نابع من محيط البداوة ومن الطبيعة الأعرابية ، وبعض منها تجارب عملية عامة تنطبق على كل الناس وتصلح لكل الأوقات[2] .

والأمثال عند بعض الشعوب صنف من أصناف الشعر ، لما فيها من الخصائص المتوفرة في الشعر عندهم . وقد روعي في المثل بصورة عامة أن يكون قصـيراً موجزاً وبليغاً معبراً عن حكمة ، فيه نغمة وترنيم . ليؤثر في النفوس . ويحمـل الطبع قائل المثل على مراعاة هذه الأمور من غير تفكير ولا تصنع ، وهـو إذا كان صادراً من قلب وسجية ، ومعبراً عن نفس جياشة وعن حس بشري عام، يشعر به كل إنسان تقبله الناس بسرعة ، ووجد له مجـالاً من الانتشار ، وعمر عمراً طويلاً .

والأمثال ، هي في صدر المؤلفات التي وضعها المسلمون ، فقـد روي : أن عبيداً بن شَرْيَةَ الجُرْهمي ، وهو من أهـل (صنعاء) باليمن ، من أوائل المؤلفين في الأخبار وملوك العرب والعجم ، ألف كتاب (الأمثال) وقـد رآه (ابن النديم) في نحو خمسين ورقة . كذلك ألف صحار بن العباس العبدي ، وهو من بني عبد القيس ، وممن أدرك الرسول ، (كتاب الأمثال)[3] . وذكروا

---

١ المزهر (١/٤٨٦ وما بعدها) .
٢ الامالي (٢/١١ ، ٢٨ ، ٥١ ، ٧٧ ومواضع أخرى) ، المستطرف (١/٢٧ ومـا بعدها) ، المزهر (١/٤٨٨ وما بعدها) .
٣ الفهرست (ص ١٣٨) ، ابن الاثير (١/١٤٩) .

ان (عِلاّقة الكلابي) جمع الأمثال في عهد يزيد بن معاوية [1] ، وأن (المفضل الضبي) (١٦٨هـ) من مشاهير علماء الكوفة في الشعر واللغة ألف كتاباً في الأمثال دعاه : كتاب الأمثال [2] ، وأن أبا عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣هـ) (٢٢٤هـ) ، ألف كتاباً في الأمثال كذلك [3] .

وألّف (يونس بن حبيب) (١٨٣ هـ) كتاباً دعاه (كتاب الأمثال) [4] ، وألّف (أبو المنهال) كتاباً في الأمثال ، عرف بـ (كتاب الأمثال السائرة) وقف عليه (ابن النديم) [5] ، ولأبي عبيدة (٢٠٩ هـ) (٢١٠ هـ) (٢١١ هـ) كتاب في الأمثال ، عرف بكتاب الأمثال [6] ، وللأصمعي (٢١٧ هـ) كتاب في الأمثال كذلك [7] ، وللشورى ، وهو ممن أخذ عن الأصمعي كتاب في الأمثال [8] ، ولأبي اسحاق ابراهيم بن سفيان ، من تلامذة الأصمعي ، كتاب في الأمثال [9] . وألّف غير هؤلاء من العلماء كتباً في هذا الموضوع طبع بعض منها فنال شهرة ، مثل كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) ، وكتاب مجمع الأمثال للميداني (٥١٨ هـ) [10] ، وقد أخذ (أبو هلال العسكري) أمثالاً وردت في كتاب لحمزة الأصبهاني في الأمثال ، وهو كتاب توجد نسخة خطية منه في القاهرة [11] .

وبين المؤلفات في الأمثال رسالة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي

---

١ الفهرست (٩٠) ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٢٦١) ، فجر الاسلام (ص ٦١) « الامثال » ، « الطبعة العاشرة » .
Wüstenfeld, Geschichtschr., 11, Goldziher, Muh. Stud., II, 204.

٢ الفهرست (١٠٨) .

٣ الفهرست (١١٢) .

٤ الفهرست (٦٩) .

٥ الفهرست (٧٨) .

٦ الفهرست (٨٥) .

٧ الفهرست (٨٨) .

٨ الفهرست (٩١) .

٩ الفهرست (٩٢) .

١٠ كارلو نلينو ، تأريخ الاداب العربية (٩٦) .

١١ العسكري ، جمهرة (١/٦) ، (حاشية رقم ٥) .

(٣٩٥ هـ) ، طبعت بعنوان : (كتاب أبيات الاستشهاد)[1] ، دوّن فيها بعض الشعر الذي استشهد به الناس في أمثالهم . ورسالة أخرى ألّفهـا (أبو العباس محمد بن يزيد المـبرد) الأزدي (٢٨٥ هـ) ، بعنوان : « رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها »[2] .

وهنالك مؤلفات عديدة أخرى ، وضعت في الأمثال . وفي إقبال المؤلفين على التأليف بها بهذه الكثرة ، دلالة على ما كان للمثل من أهمية ، وعلى ما كان له من قيمة في نظر أهل الجاهلية . حفظوه حفظهم للشعر ، بل أكثر من الشعر ، لأنه يرد على كل لسان ، يرد على لسان الحكيم البليغ كما يرد على لسان الغبي والجاهل ، ثم إنه توجيه وتربية وتعليم ، فلا نستغرب إذن إذا ما وجدنا كتب الأمثال في صدر الكتب التي ظهرت في الاسلام . وقد رأيت أنها ظهرت في عهد (معاوية) وبأمره ، فهي بحق من أوائل المؤلفات التي وصلت الينـا بالعربية . وكان معاوية مولعاً بسماع الأمثال والقصص وأخبار الماضين والشعر .

والأمثال ، هي أيضاً مادة مهمة لفهم التأريخ الجاهلي . فقد تعرض جامعوها لأصل المثل وللأسباب مضربه ، وجاؤوا بشروحهم هذه بمادة تأريخية استعنّا بها على فهم مواضع من ذلك التأريخ . ولكنا يجب أن نأخذ هـذه الأمثال وشروحها بحذر . ففي أكثر الشروح تكلف وضعف ، يدلان على عدم امكان الاعتماد عليها في تكوين حكم علمي .

ونجد في الأمثال الجاهلية أمثالاً ضربت بالناس ، مثل : أسخى من حاتم ، وأشجع من ربيعة بن مكدم ، وأدهى من قيس بن زهير ، وأعز من كليب وائل ، وأوفى من السموأل ، وحجام ساباط ، وقوس حاجب ، وغيرها . ونجد أمثالاً تمثل فيها بالبهائم ، وغير ذلك . ولكل مثل قصة تروي منشأ ضرب ذلك المثل وما وراءه من خبر . وهي تعبير عن روح الزمان الـذي قيـل فيه وعن نفسية المتمثلين به . وكثير من الأمثال الجاهلية ما زالت دائرة على ألسنة الناس . وفي وجودها دلالة على ان الأحوال التي قيلت فيها لا تزال قائمة ، ودليل ذلك اعتبار الناس بها والاستشهاد بها في المناسبات .

---

١ سلسلة نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) ، (١٣٧ وما بعدها) ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، (القاهرة ١٩٥١ م) .

٢ نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) ، (١٦٣ وما بعدها) .

وبين أمثال العرب أشعار جاهلية الأصل صارت مثلاً ، ولا يزال بعض منها حي يضرب به مثل ، لما فيه من حكمة ومن ملاءمة لكل وقت وزمان[1]. وضرب المثل بعجز البيت أحياناً أو بجزء منه ، كما في المثل : « بعض الشر أهون من بعض » . فهو من بيت ينسب لطرفة هو :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض[2]

ومن الأمثلة القديمة المشهورة حتى اليوم : (آخر الدواء الكي) ، و (آخر الطب الكي) ، زعم أنه من أمثلة (لقمان بن عاد) . وقد ذكر (الزمخشري) سبب ضرب (لقمان) له ، وأورد له كلاماً مع امرأة خانت زوجها ، وكلاماً مع زوجها وكيف عرفه فأرشده الى خيانتها له[3] . وأورد مثلاً ضرب بكثرة أكل (لقمان) ، هو: آكل من لقمان . وكانوا يزعمون أنه كان يتغدى بجزور، ويتعشى بأخرى ، ويتخلل بحوار . وانه ضاجع امرأته يوماً ، وقد أكل جزوراً ، وأكلت فصيلاً ، فما قدر على الإفضاء اليها ، فقال : كيف أفضي اليك وبيني وبينك بعيران[4] .

ويظهر من القصص المنسوب اليه ، أنه قد انتزع من قصص قديم ، كان معروفاً عند الجاهليين ، مروياً بينهم . فإذا أعدنا قصته المذكورة مع المرأة ، وقد رواها (ابن الكلبي) عن (عوانة)[5] نجدها وقد غصت بالأمثلة ، وبطريقة الجاهليين في التفسير والتعليل ، مما يجعل الإنسان يرى أنها من القصص الجاهلي القديم ، الذي احتفظ بمعناه ومضمونه ، وإن صيغ بلغة حاكيه .

ورووا لقس بن ساعدة الايادي ، أمثالاً ، منها : إذا خاصمت فاعدل ، وإذا قلت فاصدق ، ولا تستودعن سرك أحداً ، فإنك ان فعلت لم تزل وجلاً ، وكان بالخيار ، إن جنى عليك كنت أهلاً لذلك ، وان وفى لك كان الممدوح

---

١ المستطرف (١/٣٠ وما بعدها) .
٢ العسكري ، جمهرة (١/٦٧) .
٣ الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب (١/٣) ، (حيدر اباد الدكن ١٩٦٢ م) ، العسكري ، جمهرة (١/٩٧ ، ٤٢٦) .
٤ المصدر نفسه (ص ٧) .
٥ العسكري ، جمهرة (١/٤٢٤ وما بعدها) .

دونك . وكن عف العيلة ، مشترك الغنى تسد قومك . الى غير ذلك من أمثال نسبوها اليه[1] .

وفي (كتاب الجوهرة في الأمثال) من (العقد الفريد) ، باب خاص عنوانه: « أمثال أكثم بن صيفي وبزرجمهر الفارسي »[2] . وهي تستحق الدرس والنقد ، لمعرفة أصولها وعلاقة هذه الأمثال بالأدبين العربي والفارسي .

ونجد في كتب الأدب طائفة من الأمثال في الأدب والحكمة ، نسبت الى (أكثم بن صيفي) ، منها : ربّ عجلة تهب ريثاً ، وادرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل ، والمرء يعجز لا المحالة ، ولا جماعة لمن اختلف ، ولكل امرىء سلطان على أخيه حتى يأخذ السلاح فإنه كفى بالمشرفية واعظاً ، وأسرع العقوبات عقوبة البغي ، وشر النصرة التعدي ، ورب قول أنفذ من صول ، والحر حر وإن مسه الضر ، والعبد عبد وإن ساعده الجد ، واذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد ، وربّ كلامٍ ليس فيه اكتتام ، وحافظ على الصديق ولو في الحريق ، وليس من العدل سرعة العذل ، وليس ببسير تقويم العسير ، واذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة ، ولو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملوم[3] .

وليس في امكان أحد اثبات ان هذه الأمثال وغيرها هي لأكثم بن صيفي حقاً، وبينها أمثال انسانية عامة نجدها عند مختلف الأمم ، وبينها أمثال قيلت في اليونانية وفي بعض اللغات الأخرى قبل أيام (أكثم) بزمان طويل . إلا ان نسبة هذه الأمثال اليه ، تشير الى انه كان من حكماء الجاهلية البارزين ومن ذوي الرأي والحكمة عند قومه .

والأمثال النابعة من صميم الحياة الانسانية ومن التجارب العملية ، والاختبارات الطويلة ، تكون ذات طبيعة حكيمة عامة ، فتظهر لذلك عند كل الناس ، وتخرج على كل لسان ، فلا يمكن أن يقال إنها من مخترعات الأمة الفلانية ، ومن مبتكرات العقل الفلاني ، لأنها كما قلت خواطر إنسانية ، تخطر على بال كل

---

١ العسكري ، جمهرة (٢٤٩/١) ، الميداني (٧٣/١) .

٢ العقد الفريد (٦٣/٣ وما بعدها) ، ومن أمثاله : « مقتل الرجل بين فكيه » و « ربما أعلم فأذر » ، يريد أنه يدع ذكر الشيء وهو به عالم لما يحذر من عاقبته ، العقد الفريد (٨١/٣) .

٣ المزهر (٥٠١/١ وما بعدها) .

شخص ، له رأي سديد ، وفكر صائب . وإن نسبت الى شخص معين ، لذلك يصعب علينا إرجاع الأمثال الانسانية العامة الى جماعة معينة . قال (الجاحظ) : وقد كان الرجلُ من العرب يقف الموقفَ فيرسل عدة أمثلة سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع ؛ ومدار العلم على الشاهد والمثل »[1] .

ومن أمثال أهل الجاهلية : إن من البيان لسحراً ، وإن الجواد قد يعثر ، وان البلاء موكل بالمنطق ، وان أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك . وأنف في السماء وأنف في الماء . وأجع كلبك يتبعك ، واشتدي أزمة تنفرجي ، وربَّ رمية من غير رام ، وربَّ أكلة تمنع أكلات ، واستراح من لا عقل له ، وسبق السيف العذل ، الى غير ذلك من أمثلة[2] .

ومن الأمثال الجاهلية الباقية حتى اليوم المثل : مواعيد عرقوب ، مثل يضرب لمن يعد ولا يفي . فقد ورد في شعر المتلمس ، إذ قال :

الغدر والآفات شيمته فافهم فعرقوبٌ له مثل

وورد في شعر كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل

قيل : عرقوب رجل من خيبر ، كان يهودياً وكان يعد ولا يفي ، فضربت به العرب المثل . وقيل : رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله فقال له عرقوب : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها . فلما أطلعت أتاه للعدة ، فقال : دعها حتى تصير بلحاً ، فلما أبلحت قال : دعها حتى تصير زهواً ، فلما أزهت قال : دعها حتى تصير رُطباً ، فلما أرطبت قال : دعها حتى تصير تمراً ، فلما أتمرت عمد اليها عرقوب من الليل فجذّها ، ولم يعطِ أخاه منه شيئاً ، فصار مثلاً ، وفيه يقول الأشجعي :

وعدتَ وكان الخُلف منك سجيةً مواعيد عُرقُوب أخاه بيثرب

---

١ البيان والتبيين (١/٢٧١) .
٢ المستطرف (١/٢٨ وما بعدها) .

وقال آخر :

وأكذب من عرقوب يثرب لهجةً وأبين شؤماً في الحوائج من زُحل[1]

وذكر ان اسمه (عرقوب بن صخر) ، أو (عرقوب بن معبد (معيد) بن أسد) ، رجل من العمالقة على القول الأول . قاله ابن الكلبي ، وعلى القول الثاني ، فهو رجل من (بني عبد شمس بن سعد) ، وقيل انه كان من الأوس . كان أكذب أهل زمانه ، ضربت به العرب المثل في الخلف ، فقالوا : مواعيد عرقوب[2] .

ومن الأمثال القديمة : صحيفة المتلمس ، روى ان الرسول كتب كتاباً لعيينة بن حصن ، فلما أخذه ، قال : « يا محمد أتراني حاملاً الى قومي كتاباً كصحيفة المتلمس ». هي احدى الصحيفتين اللتين كتبهما (عمرو بن هند) لطرفة والمتلمس ، الى عامله بالبحرين في إهلاكهما ، وخيّلها انهما كتابا جائزة ، فنجّى المتلمس عمله على الخرم وهربه الى الشأم ، وسارت صحيفته مثلاً في كل كتاب يحمله صاحبه يرجو منه خيراً وفيه ما يسوءه[3] .

ومن الأمثلة القديمة (عنقاء مغرب) ، والمثل به « طارت به عنقاء مُغرِبٌ » زعموا انه طائر كان على عهد (حنظلة بن صفوان الحميري) نبي أهل الرس عظيم العنق ، وقيل كان في عنقه بياض ولذلك سمي عنقاء،اختطف غلاماً فأغرب به ، ولذلك سمي المغرب ، فدعا عليه حنظلة فرمى بصاعقة . وقد ذكر المثل في الشعر[4] .

ومن الأمثال الجاهلية الحية التي لا تزال ترزق ، المثل : « تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه » . يضرب مثلاً لمن خبره خير من مرآه . ذكر (ابن الكلبي) ان هذا المثل ضُرب (للصقعب بن عمرو) النهدي . قاله له النعمان بن المنذر . وقال (المفضل) : المثل للمنذر بن ماء السماء ، قاله لشقة بن ضمرة سمع بذكره، فلما رآه اقتحمته عينه فقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، فأرسلها مثلاً

---

١ المزهر (١/٤٩٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (١/٣٧٨) ، (عرقب) .
٣ الفائق (٢/١٣) .
٤ الزمخشري ، المستقصي (٢/١٥٠) .

فقال : له شقة : أبيت اللعن ! إن الرجال ليسوا بجُزر يراد منهم الأجسام ، وانما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فذهب مثلاً ، وأعجب المنذر بما رأى من عقله وبيانه ، ثم سمّاه باسم أبيه فقال: أنت ضمرة بن ضمرة . وقيل إن المثل للنعمان ابن المنذر ، قاله لشقة بن ضمرة[1] .

وقد أورد (ابن الكلبي) قصة تأريخ المثل على هـذا النحو : قال : وفد (الصقعب بن عمرو) النهدي في عشرة من (بني نهد) على (النعمان بن المنذر) وكان (الصقعب) رجلاً قصيراً دميماً تقتحمه العين ، شريفاً بعيد الصوت ، وكان قد بلغ النعمان حديثه ، فلما أخبر النعمان بهم قال للآذن : إئذن للصقعب ، فنظر الآذن الى أعظمهم وأجملهم ، فقال : أنت أنت الصقعب ؟ قال : لا . فقال : الذي يليه في العظم والهيئة : أأنت هو : فقال : لا . فاستحيا فقال : أيكم الصقعب ؟ فقال الصقعب : هأنذا ! فأدخله الى النعمان ، فلما رآه قال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ! فقال الصقعب : أبيت اللعن ! إن الرجال ليسوا بالمسوك يستقى فيها ، انما الرجل بأصغريه بلسانه وقلبه ، إن قاتل قاتل بجنان ، وإن نطق نطق ببيان . فقال له النعمان : فلله أبوك ! ثم سأله أسئلة امتحنه بها ، ليرى عقله ، فكان يجيبه أحسن جواب . فقال له النعمان : أنت أنت ! فأحسن صلته وصلة أصحابه[2] .

وينسب المثل : « ألوى بَعيد المستمر » ، الى (النعمان بن المنذر)، وأخوه (طُفيل الغنوي) فأدخله شعره[3] . ومن الأمثلة الشهيرة القديمة قولهم : « على أهلها جنت براقش » ، يضرب مثلاً للرجل يهلك قومه بسببه[4] .

وينسب المثل : « إن الشقي وافد البراجم » لعمرو بن هند ، ملك الحيرة، حلف ليقتلن مائة من تميم ، فقتل تسعة وتسعين رجلاً منهم إحراقاً بالنار، وبقي واحد ، فلما دنا رجل من البراجم من الملك ، وسأله عن أهله ، فقـال : من

---

١ الخزانة (١/١٥١) ، (بولاق) .
٢ المزهر (١/٤٩٥ وما بعدها) ، العمدة (١/٢٨٥) .
٣ ألفيتني ألوى بعيد المستمر أحمل ما حملت من خير وشر
العسكري ، جمهرة (١/٣٢ وما بعدها) .
٤ العمدة (١/٢٨٥) .

البراجم ، قال : إن الشقي وافد البراجم ، وأمر به فألقي في النار[1] .

ومن الأمثال المشهورة قولهم : « عند جهينة الخبر اليقين » . وقيل : « عند جفينة الخبر اليقين » (جُفينة) . وكان من حديثه أن (حصين بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن كلاب) خرج،ومعه رجل من (جهينة) يقال له (الأخنس) فنزلا منزلاً ، فقام الجهني الى الكلابي فقتله ، وأخذ ماله ، وكانت أخته (صخرة) بنت (عمرو) تبكيه في المواسم ، وتسأل عنه فلا تجد من يُخبرها، فقال الأخنس فيها :

كصخرة إذ تسائل في مِراح وفي جَرْمٍ وعلمها ظنونُ
تسائل عن حصينٍ كل ركب وعند جهينة الخبر اليقينُ[2]

ومن أمثالهم المشهورة قولهم : بمثل جارية فلتزن الزانية ، وذلك أن (جارية بنت سليط بن الحرث بن يربوع بن حنظلة) كان أحسن الناس وجهاً وأمدهم قامة ، وأتى سوق عُكاظ فأبصرته فتاةٌ من خثعم فأعجبها فتلطفت له ، حتى وقع عليها ، فعلقت منه ، فلما ولدت أقبلت هي وأمها وخالتها تلتمسه بعكاظ ، فلما رأته الفتاةُ قالت : هذا جارية ! فقالت أمها : بمثل جارية فلتزن الزانيـة سراً أو علانية ، فذهب مثلاً[3] .

ونسب المثل : « أرسل حكيماً ولا توصه » الى (الزبير بن عبد المطلب)[4]، ونسب المثل « استنوق الجمل » لطرفة بن العبد[5] . ومن الأمثلة القديمة : « على أهلها دلت براقش » ، و « عش رجباً تر عجباً »[6] ، و « العصا من العصية» و « أعز من كليب وائـل » ، و « أعزّ من بيض الأنوق » و « أعز من

---

١ العسكري ، جمهرة (١/١٢١) ، (يذكر ٩٨ شخصا ، ثم يتم العدد ، بذكر هـذا الرجل ، ثم اكمله بالحمراء بنت خمرة ، حيث أحرقها ، وتحلل من يمينه ، وتذكر الموارد الاخرى خلافه . وقد تحدثت عن هذا المثل) .
٢ المزهر (١/٤٩٨ وما بعدها) ، العسكري ، جمهرة (٢/٤٤) .
٣ المزهر (١/٤٩٩) .
٤ العسكري ، جمهرة (١/٩٨) .
٥ العسكري ، جمهرة (١/٥٤) ، الاغاني (١/١٣٢) ، الشعر والشعراء (١/١٣٥)
٦ العسكري ، جمهرة (٢/٥٢ وما بعدها) ، الميـدني (١/٣١٠) ، الحيـوان (١/٢٦٠) ، العقد الفريد (٣/٥٤) .

الغراب الأعصم » ، و « أنصف القارة من راماها » . والمثل : « أرسل حكيماً ولا توصه » ، هو في الواقع مثل قديم ، لا بد وأن يكون قد وضع في العربية، قبل أيام (الزبير) ، إذ ينسب الى الحكيم (أحيقار) ، وربما نقل من السريان الى العرب .

وقد ضرب المثل بشخصيات جاهلية ، تركت أثراً في أيامها ، فضرب بهـا المثل . مثل : « أبلغ من قس » ، ويراد به قس بن ساعدة الخطيب الشهير ، وأعيا من باقل . وهو رجل من إياد ، وقيل من ربيعـة . اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً ، فمرّ بقوم فقالوا له : بكم اشتريت الظبي ؟ فمدّ يديه وأخرج لسانه يريد أحد عشر ، فشرد الظبي حين مد يديه ، وكان تحت ابطيـه[1] . وضرب المثل ببخل مادر ، فقيل : أبخل من مادر ، وبفصاحة سحبان ، فقيل : أخطب من سحبان ، وهو القائل :

لقد علم الحي اليمانون أنني اذا قلت أما بعد أني خطيبها[2]

وضرب الجاهليون الأمثال بكل ما وجدوه حولهم من حيوان ومن نبات وصخور. ولذا نجد على أمثالهم طابع محيطهم ، فالحيوان الذي ضربوا به المثـل ، هو من حيوان جزيرة العرب ، ومن النوع المألوف عندهم ، مثل الضب والحية والعنز والإبل وما الى ذلك . ومن هنا اختلفت أمثلة الأعراب أهـل البادية عن أمثلة الحضر ، أهل المدر ، لاختلاف طبيعة البادية عن طبيعة الريف ، ولوجود أشياء في أحدهما يندر وجودها في المحيط الآخر .

وفي شعر (عدي بن زيد) العبادي أمثلة كثيرة ، تميز شعره عن شعر بقية الشعراء الجاهليين . ولو درسنا شعره ، نجد أن فيه مـا يشير الى مواعظ ترد في النصرانية كما ترد على خاطر كل إنسان يصاب بنكبة ، فتهز مشاعره فتجعله ينظر الى الدنيا نظرة زاهد فيها ، ولا استبعد احتمال تأثره بالكتب التي كان قد وقف عليها ، فقد كان نصرانياً « وقد قرأ كتب العرب والفرس »[3] . ولم يذكر أهل

---

١ المزهر (١/٥٠٣) .
٢ المزهر (١/٥٠٤) .
٣ الطبري (٢/١٩٣) ، (دار المعارف) .

الأخبار شيئاً عن (كتب العرب) ، هل أريد بها كتب دينية وضعت في العربية، أم قصد بها كتب في القصص والأمثال وفي الشعر والأخبـــار وما شابه ذلك ، ولعلهم أرادوا بكتب الفرس ، الكتب التي تبحث عن قصص ملوكهم . وقـــد ترجم قسم منها في الاسلام ، وقصص الأساطير . وقد رأينا أنها كانت معروفة عند العرب وان (النضر) كان يقص منها لأهل مكة ، وكانوا يسمونها الأساطير.

ونجد في شعر الشعراء الآخرين أمثلة عديدة دخلت شعرهم ، أخذوها مـــن المثل السائر ، ومن الحكم التي كانت شائعة في أيامهم ، أو من القصص ، أو من مبتكراتهم ومخترعاتهم ، ولا تزال بعض الأمثال الشعرية حية ترزق ، يضرب بها الناس المثل فيما يريدون التمثيل به .

ومن الموارد التي أمدّت الأدب الجاهلي بالمثل ، الكهان ، وكلام الكهان قصير مسجع يميل الى الرمز والألغاز ، يتجنب الصراحة ، لتكون فيـــه قابلية التفسير والتأويل واعطاء كثير من الاحتمالات ، وذلك لما تقتضيه طبيعة الكهانة من تأويل التكهن حسب الأحوال والمناسبات . ونجد في كتب الأدب أمثلة عديدة منسوبة الى هؤلاء الكهان . ولما كان كلامهم مسجوعاً ، قيل له : « سجع الكهان » . وقد جاء في الحديث النبوي : « هذا من سجع الكهان »[1] . وفي الكهان جماعـة من الكاهنات ، عرفن بالتكهن ، مثل : الشعثاء الكاهنة ، وطريفة ، ويذكرون انها هي التي أنذرت عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه ، وأخبرته بخراب سد مأرب[2] ، وزبراء الكاهنة[3] ، وسلمى الهمدانية الحميرية[4] ، وعفيراء الكاهنة الحميرية[5] ، وفاطمة بنت مر الخثعمية ، وقد ذكروا انها كانت قد قرأت الكتب[6].

ومن الأمثلة الواردة في كتب الأدب : « إن العصا من العُصية » ، وهـــو مثل ينسب الى (الأفعى الجرهمي) ، وهو من الكهّان . قاله لما احتكم اليه أولاد (نزار) بمدينة النجران[7] . و « الصيف ضيعت اللبن » ، وأول من قاله (عمرو

---

١ بلوغ الارب (٣/٢٧٢) .
٢ بلوغ الارب (٣/٢٨٣ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/٢٨٨ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٣/٢٩٥ وما بعدها) .
٥ بلوغ الارب (٣/٢٩٦ وما بعدها) .
٦ بلوغ الارب (٣/٣٠٥ وما بعدها) .
٧ نهاية الارب (٣/٧ وما بعدها) .

ابن عدس)[1] ، والمثل « أوسعتهم سباً وأودوا بالابل » وينسب الى (كعب بن زهير بن أبي سلمى)[2] ، والمثل « ان الشقي وافد البراجم »[3] . الى غير ذلك من أمثلة تجدها في كتب الأمثال والأدب . ولا يزال بعضها حياً يتمثل الناس به. وبعض منه يرد على لسان كل إنسان . أي أمثلة تنطبق على كل البشر ، لأنهـا صادرة من نفس انسانية عامة،فلا تعدّ من الأمثلة المحلية أو القومية ، أي أمثلة نبعت من محيط أمة معينة . لذلك نجد لها شبهاً عند أمم أخرى . ولا نستطيع أن نقول إن الأمة أخذتها من تلك .

---

١ نهاية الارب (٣/١٣ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (٣/١٧) .
٣ نهاية الارب (٣/١٨) .

الفصل الثامن والعشرون بعد المئة

القصص

والقصص ، مظهر من مظاهر الفكر الجاهلي ، أشير اليه في القرآن الكريم ، وكان شائعاً عند الجاهليين . ودراسته تمكـــن الدارس من تحليـــل عقلية صاحب القصص ، وفهم عقلية الزمن الذي شاع فيه . وقد ورد في المؤلفـات الاسلامية شيء منه ، وفي بعضه ملامح يمكن ارجاعها الى عناصر أعجمية : دينية ، وغير دينية ، تسرب الى الجاهليين من اتصالهم بالأعاجم ، واتصال الأعاجم بهم .

والقص البيان ، والقاص من يأتي بالقصة على وجهها ، كأنه يتتبـــع معانيها وألفاظهـــا . وقيل : القاص يقص القصص لأتباعه ، خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً . وقد كان القص شائعاً متفشياً بين الجاهليين والاسلاميين ، وكانوا يقبلون عليه اقبالاً شديداً ، ومن هنا ورد في الحديث « ان بني اسرائيل لما قصوا هلكوا . وفي رواية لما هلكوا قصوا ، أي اتكلوا على القول وتركوا العمـــل ، فكان ذلك سبب هلاكهم ، أو بالعكس ، لما هلكوا بترك العمـــل أخلدوا الى القصص »[1] . ولما نزل القرآن : « قالوا : يا رسول الله : لو قصصت علينا ، قال : فنزلت : نحن نقص عليك أحسن القصص »[2] . وذكر ان أصحاب رسول الله سألوه أن يقص عليهم ، فنزل : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ،

---

١ تاج العروس (٤/٤٢٢) ، (قصص) .
٢ سورة يوسف ، الاية ٣ ، تفسير الطبري (١٢/٩٠) .

« من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم » . وورد انهم قالوا له : « يا رسول الله ! حدثنا فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص » فأنزل الله الآية المذكورة[1] . وفي هذا الالحاح على الرسول بأن يقص عليهم ، دلالة على مدى حب الجاهليين واعجابهم بالقصص .

وللجاهليين غايات من الاستماع الى القصص ، منها : العبرة والاتعاظ . والى ذلك أشير في القرآن الكريم : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب »[2] . وقد كان في مكة وفي غيرها قوم يقصون على الناس ويعظونهم ، ولما جاء الاسلام كانوا على عادتهم يقصون لإثارة العقول الى أنباء الماضين وأخبار السالفين، ولإثارة تفكيرهم في الكون وفي الخلق وفي شؤون الحياة، كالذي يظهر من القرآن الكريم: « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »[3] و « نحن نقص عليك أحسن القصص »[4] و « تلك القرى نقص عليك من أنبائها »[5] . ويدخل في هذا النوع القصص الذي يدخلونه في باب (الحكمة) ، ومعناه القصص التعليمي ، الذي يتعظ به ، ويستفاد منه ، إذ يعد دروساً تعلم الانسان في حياته وترشده الى النجاح ، ويشمل قصص الماضين ، ما قاموا به من خير ، وما عملوا في أيامهم من شر ، فأصابهم من أجله الهلاك وسوء المصير ، وقصص الأشخاص ، أما القصص المروي على ألسنة الحيوانات على نمط قصص (كليلة ودمنة) ؛ فإننا لا نجد منه مادة غزيرة في القصص المروي عن الجاهليين ، وهو قليل المادة أيضاً في الأدب الاسلامي ولا سيما في القصص الطويل . وقد نجد بقايا قصص على ألسنة الحيوانات مروياً في كتب الأدب ، لكنه من النوع القصير الذي لا يمثل نفساً طويلاً في القص . وأغلب الظن انه منتزع من قصص قديم ، فقد طوله ، بسبب قدمه ، فبقيت منه هذه البقايا .

ومن أبواب القصص ، المقال على ألسنة الحيوانات ، كالقصص المقال على لسان (النعامة) ، من انها ذهبت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين . والقصص

---

١ تفسير الطبري (١٢/٩٠) .
٢ يوسف ، الاية ١١١ .
٣ الاعراف ، الاية ١٧٦ .
٤ يوسف ، الاية ٣ .
٥ الاعراف ، الاية ١٠١ .

الذي وضعوه عن الغراب ، وعن الضفدع ، والهدهد ، والهديل ، وغير ذلك مما يميل اليه العامة بصورة خاصة ، لما يتركه من أثر في نفوسهم[1] .

ومن القصص ، قصص الملوك والأبطال وسادات القبائل والأيام ، ويلعب قصص الأيام الدور الأول في هذا القصص ، لما له من أثر في العصبية . وكان هذا القصص من أحب القصص الى نفوسهم ، وقد زوّق ونمق ، وتولى قصه قصاصون كانت لهم مواهب خاصة وقابلية على القص والتأثير في النفوس ، وكان أصحاب الرسول حين يتسامرون يتناشدون الشعر ويتذاكرون الأيام ، جرياً على سنتهم في الجاهلية ، وقد استمر هذا القصص الى عهد قريب ، ولا زال معروفاً في القرى وفي بعض الأقطار العربية ، لا سيما في أيام رمضان ، حيث تقرأ قصص أبو زيد الهلالي وقصة عنترة وغيرها في المقاهي ، يقرأها قصاصون متخصصون بأسلوب مؤثر جذاب ، يتلاعبون به في عقول السامعين ، ويثيرون فيهم الحماس ، ينصتون بكل خشوع الى صوت القاص ، يريدون منه سماع المزيد من الأخبار .

وفي قصص أهل الأخبار المنسوب الى الجاهلية ، قصص عن الأسفار وعن مشقات السفر وعن الأهوال التي كان يلاقيها المسافرون في ذلك العهد من الجن والسعالى والغيلان ، وقد رصع بأبيات من الشعر وبقصائد أحياناً ، في وصف تلك المخلوقات الرهيبة المفزعة ، ولم ينس بعض هذا القصص من ايراد شعر لها في محاورة الأشخاص الذين تعرضوا لها ، تجد فيه الجن والسعالى والغيلان ، تنظم الشعر بلسان عربي مبين ، وتجيب فيه الشعراء بشعر مثل شعرهم ، قد تظهر رقة وأدباً فيه ، مع ما عرف عن هذه القوى من الميل الى الأذى والشر .

وفي قصصهم قصص له أصل تأريخي ، لكنه لم يحافظ على نقاوته وأصله ، وانما غلب عليه عنصر الخيال فحوّله الى أسطورة ، رصعت بالشعر في الغالب ، وبالجنس ، لتثير الغرائز ، فتقبل الأنفس على سماعها ، ومن هذا القبيل قصص طسم وجديس[2] ، وقصص الزباء ، والتبابعة ، والأقوام الغابرة ، حيث تجد قصصهم في كتب الأخبار والأدب .

وفي أبواب القصص ، باب للمجون والخلاعة ، وأحاديث الهوى والتشبب .

---

١ فجر الاسلام (٦٦) ، (١٩٦٥ م) .
٢ المحاسن والاضداد (١٣٨) .

وهو باب يقدم على سماعه الشبان ، طلاب هذا الفن في هـذا الدور من أدوار الحياة ، أما الشبيبة ومن تقدمت بهم السن ، فإن الجنس ، يكون قد ابتعد عنهم وتركهم في الغالب ، وما تمسكهم به وهم في أرذل العمر ، إلا من باب التذكر بأيام الزمان ، وذكريات الشباب ، لتطرية العمر ، والترويح عن كربة التقدم في السن .

والقاص من الشخصيات المحببة الى نفوس الجاهليين ، يقص عـلى أبناء حيّه القصص المسلية ، مستمداً مادته من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمم، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية والتأريخية المأثورة عن العرب،أو عمن جاورهم . ومن ذلك قصص الأقوام القديمة التي بقيت ذكرياتها في أذهان الجاهليين، وقصص الملوك مثل الزباء ، التي كيفت قصتها ، وابتعدت عن التأريخ وقصص جذيمة الأبرش ، وقصير ، وعمرو بن عدي ، والتبابعة وغير ذلك من قصص،له أصل تأريخي ، لكنه تغير وتبدل حتى صار من الأساطير . وهو يصلح أن يكون اليوم موضع دراسة خاصة للوقوف على مقدار عناصر الابتكار والخيال فيـه ، ومقدار التحوير الذي ألمّ به ، وسببه ومن أدخله عليه من جاهليين أو مسلمين .

وقصص النوادر والنكات من القصص المعروف عند أهل الجاهلية . وقد اتخذ الملوك والأشراف لهم ندماء عرفوا بإغراقهم في قول الملح والنوادر والأمور الغريبة المضحكة ، حتى اشتهر أمرهم بين الناس ، وحتى بالغ الناس في نسبة النوادر اليهم ، وحوّلوا بعضهم الى شخصيات أسطورية ، من كثرة ما تقولوا عليهم وما نسبوه اليهم . ومنهم من سجلت كتب أهل الأخبار والأدب أسماءهم ، لما حصلوا عليه من شهرة بين الناس في أيامهم . منهم (سعد) المعروف بـ (سعد القرقرة) هازل (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، كان يضحك منه[1] . ذكر أنه كان من أهل (هجر) ، فدعا النعمان بفرسه اليحموم ، وقال له : اركبه واطلب الوحش ، فقـال سعد اذن والله أصرع . فأبى النعمان إلا أن يركبه . فلما ركبه سعد نظر الى بعض ولده قال : وا بأبى وجوه اليتامى ، ثم قال :

نحن بغرس السـوديّ أعلمنا منّا بركض الجياد في السدف[2]

---

١ تاج العروس (٣/٤٨٩) ، (قرر) .
٢ تاج العروس (٦/١٣٦) ، (سدف) .

وفيه قال الشاعر (أبو قُرْدُودة) ، وكان (سعد القرقرة) قد أكل عند النعمان بن المنذر مسلوخاً بعظامه :

بين النعامِ وبين الكلب منبته وفي الذئب لـه ظئر وأخوال[1]

ومنهم (النعمان بن عمرو بن رفاعة بن الحرث) من (بني النجار) من يثرب ، المتوفى في أيام (معاوية) . كان هازلاً ومازحاً لطيفاً . ذكر أنه كان لا يدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها ثم جاء بها الى النبي ، فيقول ها أهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يطلب نعمان بثمنها أحضره الى النبي ، وقال : اعطِ هذا ثمن متاعه ، فيقول : أولم تهده لي ! فيقول : إنه واللهِ لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله ، فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه . ودخل أعرابي على النبي ، وأناخ ناقته بفنائه ، فقال بعض الصحابة للنعمان لو عقرتها فأكلناها ، فإنا قد قرمنا الى اللحم . ففعل . فخرج الأعرابي وصاح واعقراه يا محمد ! فخرج النبي ، فقال : من فعل هذا ؟ فقالوا النعمان فاتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب واستخفى تحت سرب لها فوقه جريد. فأشار رجل الى النبي حيث هو فأخرجه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلّوك عليّ يا رسول الله ، هم الذين أمروني بذلك . فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك ، ثم غرمها للأعربي . وروي أن (مخرمة بن نوفل) كان قد كبر وقد عمي،فقام في المسجد يريد أن يبول ، فصاح به الناس المسجد المسجد ! فأخذه نعمان بيده وتنحى به ، ثم أجلسه في ناحية أخرى من المسجد فقال له : بل ههنا . فصاح به الناس . فقال : ويحكم فمن أتى بي الى هذا الموضع ! قالوا : نعمان . قال : أما إن لله عليّ إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ منه ما بلغت . فبلغ ذلك نعمان . فمكث ما شاء الله ، ثم أتاه يوماً وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد . فقال لمخرقه : هل لك في نعمان . قال : نعم . فأخذ بيده حتى أوقفه على عثمان ، وكان إذا صلى لا يلتفت . فقال : دونك هذا نعمان فجمع يده بعصاه فضرب عثمان فشجه ، فصاحوا به ضربت أمير المؤمنين[2] .

---

١ الحيوان (١٤٧/١) .
٢ الاصابة (٥٤٠/٣) ، (رقم ٨٧٩٠) .

وروي ان (أبا بكر) خرج تاجراً الى (بصرى) ومعه (نعيمان) و (سويبط ابن حرملة) ، وكان (سويبط) على الزاد ، فجاءه (نعيمان) ، فقال : أطعمني . فقال : لا،حتى يجيء (أبو بكر) ، فقال : لأغيظنك ، فذهب الى ناس جلبوا ظهراً . فقال : ابتاعوا مني غلاماً عربياً فارهاً ، وهو ذو لسان ولعله يقول أنا حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لا تفسدوا عليّ غلامي . فقالوا : بلى نبتاعه منك بعشر قلائص ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال : دونكم هو هذا . فجاء القوم . فقالوا : قد اشتريناك ، فقال سويبط: هو كاذب أنا رجل حر . قالوا : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل في رقبته فذهبوا به . وجاء أبو بكر ، فأخبر . فذهب هو وأصحاب له فردّوا القلائص وأخذوه . فضحك النبي وأصحابه من ذلك حولاً [1] .

وبعض القصص الشائع المتواتر عن الجاهليين ، مثل قصة يومي البؤس والنعيم، وقصة (شريك) مع الملك (المنذر) ، وقصة (سنمار) وأمثال ذلك ، قصص وان اقترن بأسماء جاهلية ، إلا ان أصوله غير عربية ، دخلت العرب من منابع خارجية ، من منابع يونانية وفارسية ، ونصرانية ، وهو أيضاً من القصص الوارد عند شعوب أخرى ، بدليل وجود شبه ومثيل له في أساطير الأعاجم ، وفي حكايات النصارى [2] .

وقاص ذلك اليوم ، هو أديب الحي ، وأديب القوم ، وهو لا بد أن يكون من أصحاب المواهب والفطنة،وممن رزق موهبة التأثير على القلوب بفضل ما رزق من حسن عرض الكلام وتخريج القصص ، وتنسيقها . واظهار الأدوار البارزة للأبطال ، وعرضها بأسلوب مشوق مرغب ، تنسي السامع كل شيء إلا تتبع الحكاية . ولا بد وأن يُملّح القاص قصصه بادخال شيء من الشعر فيها ، لا سيما شعر الفرسان والحروب والمغامرات .

ولا نعرف من أسماء قصاص الجاهلية أسماء كثيرة،وأشهر اسم نعرفه هو اسم (النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) . (النضر بن الحارث

---

١ الاستيعاب (٣/٥٤٣ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ فجر الاسلام (٦٧) ، (١٩٦٥ م) .

ابن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي)[1] ، وكان من (شياطين قريش) ، أي أذكيائهم ، وممن يؤذون الرسول ، وكان يحدث قريشاً بأحاديث رستم واسفنديار وما تعلم في بلاد فارس من أخبارهم[2] ، ويزعم ان في استطاعته ان يأتي بمثل ما أتى به الرسول من أمر القرآن ، فأشير اليه في الآية : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحي إليّ ولم يوح اليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله »[3] ، وذكر ان كل ما ذكر في القرآن من (الأساطير) ، فإنما قصد به (النضر) ، وقد نزلت في حقه ثماني آيات[4] ، تدل على انه كان يتحدى الرسول ويخاصمه ويقول في القرآن انه من صنع محمد ، وكان يأتي بقصص يزعم انه يضاهي بها كتاب الله . وقد أرسلته قريش مع (عقبة بن أبي معيط) الى يهود (يثرب) ليأخذا منهم من أمور التوراة والدين ما يجادلا به الرسول ، فعلموهما ما يجب أن يسألا به ، فجاءا وسألا الرسول وحاججاه ، وقد أشير الى هذه المحاججة في القرآن[5] .

وقد أمر الرسول بقتل (النضر) ، فقتله (عليّ) وهو بالصفراء ، فقالت فيه (ليلى) ابنته ، أو (قتيلة) ابنته ، وهي ابنته في رواية ، أو أخته في رواية أخرى ، شعراً تبكيه وتتوجع فيه على قتله . أوله :

يا راكباً ان الأثيل مظنّة ... من صُبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميْتاً بأن قصيدة ... ما ان تزال بها الركائب تخفق
فليسمعن النضر ان ناديته ... إن كان يسمع ميت لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
قسراً يقاد الى المنيّة متعباً ... رَسْفَ المقيد وهو عان موثق
أمحمد هلا أنت ضَنْءُ نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق

---

١ الاشتقاق (٩٩) ، كتاب نسب قريش (٢٥٥) ، ابن هشام (١/١٨٨ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .
٢ الروض الانف (١/١٨٨) .
٣ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ٩٣ ، الروض الانف (١/١٨٩) ، ابن هشام (١/١٨٩ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .
٤ ابن هشام (١/١٩٠) ، (حاشية على الروض) .
٥ ابن هشام (١/١٩٠) ، (حاشية على الروض) .

ما كان ضرك لو مننت وربما منّ الفتى وهو المغيظ المُحنق
فالنضر أقربُ من تركت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق[1]

وورد اسم رجل أدخل للمسلمين القصص الديني ، هو (تميم بن أوس بن خارجة) الداري[2] ، ذكر أنه أسلم سنة تسع من الهجرة ، وأنه كان نصرانياً ، وانه لقي النبي ، فقص عليه قصة الجسّاسة والدجّال . وذكر انه كان يترهب ويسلك مسلك رجال الرهبانية حتى بعد إسلامه ، وانه استأذن الخليفة (عمر) أو الخليفة (عثمان) في أن يذكر الناس في يوم الجمعة ، فأذن له ، فكان يقص في مسجد الرسول . وكان بذلك أول من قص في الإسلام . وروي أنه أول من أسرج السراج في المسجد[3] . وكان قد قدم مع أخيه (نعيم) الداري في وفد الداريين على الرسول منصرفه من تبوك[4] . وكان مقامه في الشام ، وربما وضع القصص على اسمه[5] .

وهذا النوع من التذكير والوعظ والارشاد القائم على الترغيب والترهيب بذكر أساطير الأولين والقصص والحكايات والغرائب والعجائب والقصص المتعلق بالحيوانات أو المدون على ألسنتها،هو نوع من الوعظ الذي كان يقوم به رجال الدين اليهود والنصارى في تهذيب أبناء دينهم وفي ارشادهم الى سواء السبيل،على نحو ما كانوا يتخيلونه ويتصورونه . ومن مدرستهم في الوعظ ، تعلم صاحبنا تميم علمه هذا على ما يظهر .

ويمكن الوقوف على طبيعة قصص (تميم) ونوعيته وعلى درجة ثقافته ومقدار عقليته بالرجوع الى ما نسب اليه من قصص ، وما ورد على لسانه من وعظ . ولكننا لا نجد في الكتب مادة من قصصه تكفي للحكم بموجبها على نوعيته . ولكننا

---

١ البيان (٤٣/٤ وما بعدها) ، الحصري ، زهر الاداب (٢٧/١) ، الاغاني (٩/١) ، العمدة (٣٠/١) .

٢ « تميم بن أوس بن حارثة ، وقيل خارجة بن سود ، وقيل سواد بن جذيمة بن دراع ابن عدى بن الدار ، أبو رقية الداري » ، الاصابة (١٨٦/١) ، (رقم ٨٣٧) .

٣ الاصابة (١٩١/١) ، أسد الغابة (٢١٥/٢) ، ابن سعد ، الطبقات (٧٥/١) .

٤ الاصابة (٥٣٦/٣) ، (رقم ٨٧٧٠) ، صحيح مسلم ، شرح النووي ، (٤٢٠/٥ وما بعدها) .

٥ مسالك الابصار (١٧٢/١) ، البخلاء (٣١٣) .

لا نستبعد أن يكون قد خلط بين القصص النصراني وبين الأساطير العربية . فقد كان نصرانياً ، يسمع أقوال وعّاظ الكنائس ، فتعلم منهم ، وطبق ما تعلمه في الاسلام .

وذكروا ان (الأسود بن سريع بن حمير (خمير) بن عبـــادة بن النزال) التميمي السعدي ، كان قاصاً ، وكان شاعراً مشهوراً ، وهو من الصحابة ، وكان أول من قص في مسجد البصرة . قيل انه مات سنة اثنتين وأربعين[1] . ولعله كان من النصارى كذلك .

ويجب أن نشير الى قاص آخر هو (عبيد بن شرية الجرهمي) ، وان كان من المتأخرين . فقـــد كان في أيام (معاوية) ، وقد كان من الملازمين له . وكان الخليفة يحنّ اليه ، ويتلذذ بسماع قصصه عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبـــل الألسنة ، وأمر افتراق الناس في البلاد . وهـــو شخص لا نعرف من أمره شيئاً يذكر . وذكر (ابن النديم) أنه عاش الى أيام (عبد الملك بن مروان) ، وأن معاوية أمر غلمانه بتدوين ما كان يقصه وينسب اليه . وله من الكتب : كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين[2] .

---

١ الاصابة (١/٥٩ وما بعدها) ، (رقم ١٦١) ، الاستيعاب (١/٧٢) ، البيـــان والتبيين (١/٦٧) .

٢ الفهرست (ص ١٣٨) .

الفصل التاسع والعشرون بعد المئة

الطب والبيطرة

والطب من العلوم المطلوبة في كل زمان ومكان ، لما له من صلة بحياة الانسان. ولعلماء اللغة آراء في معنى (الطب) وقد ذكروا أن من المجاز : الطب بمعنى السحر ، قال ابن الأسلت :

ألا من مبلغ حسان عني أطب كان داؤك أم جنون[1]

فوجدوا أن بين الطب والسحر صلة . وهو تعبير عن مداواة الأمراض في السابق بالسحر ، فقد كان الساحر طبيباً ، يداوي المرض ويشفي المريض بسحره، وكذلك كان الكهان يداوون المرضى ، ولا زال الناس يعتقدون بأثر السحر في مداواة المرض ، فيراجعون من يدعي العلم بالسحر لنيل الشفاء[2] .

وكان الطب ، في ذلك الزمان ، شرف ، فللطبيب مكانة كبيرة عند الجاهليين. قال (المرتضى) في حديثه عن زهير بن جناب : « كان سيد قومه ، وشريفهم، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم الى الملوك ، وطبيبهم . والطب في ذلك الزمان

---

١ وورد : « أسحر كان طبك » ، تاج العروس (١/٣٥١) ، (طب) .

٢ ارشاد الساري (٨/٣٦٠) .

شرف ، وحازي قومه ، والحُزاة الكهان »[1] . فهو قد جمع خلالاً كثيرة وفي جملتها الطب والكهانة . وقد كان الكهان يداوون المرضى ، فكان كهنة مصر يعالجون المرضى ويطببونهم ، لاعتقادهم ان الأمراض هي من الآلهة ، تصيب الانسان فلا تشفيه منها إلا التوسلات اليها باشفائه ، وحيث ان المقربين اليها هم الكهنة ، لذلك لجأ المرضى اليهم لاشفائهم . ونجد في النصوص العربية الجنوبية توسلات كثيرة وتضرعات الى الآلهة ، لأن تمنّ على المتوسلين اليها بالصحة والعافية ، وبالشفاء من الأمراض التي نزلت بهم ، وأن تحميهم من الأوبئة التي تفشت بين الناس ، فأخذت تميتهم .

ولا بد وأن يكون السحرة والحزاة والكهنة في الجاهلية ، هم الذين مارسوا الطب ، وعالجوا المرضى ، بالسحر وبالأدعية ، أو بالأدوية التي أخذوها عمن سبقهم ومن تجاربهم الخاصة . ونحن نأسف لأن نقول إن النصوص الجاهلية لم تعطنا حتى الآن نصوصاً طبية ، أو نصوصاً فيها وصفات أدوية الشفاء من الأمراض .

والطب ، هو من فروع العلم المحظوظة بالنسبة الى فروع العلم الأخرى عند الجاهليين . فقد أشير اليه ، وأشير الى اسم نفر من الأطباء ، هم : الحارث بن كَلَدة الثقفي ، والنَّضْر بن الحارث ، و (ابن أبي رمثة التميمي) و (ضماد) وكلهم ممن عاصر الرسول وأدرك زمانه ، وبفضل هذه المعاصرة ، ذكرت أسماؤهم في كتب الحديث والسير والأخبار ، ولولاها لكان شأنهم شأن غيرهم ممن لم يصل اسمهم الي أحد ، فصاروا نسياً منسياً .

وذكر ان رجلاء جاء الى النبي ، فرأى بين كتفيه خاتم النبوة . فقال : إن أذنت لي عالجتها فإني طبيب . فقال له النبي ، طبيبها الذي خلقها ، معناه العالم بها خالقها الذي خلقها لا أنت[2] .

أما الحارث بن كلدة الثقفي ، فإنه من ثقيف ومن أهل الطائف . ذكر أنه سافر إلى البلاد، وتعلم الطب بناحية فارس على رجل من أهل جُنْدَيْسابور، وغيرها.

---

١ أمالي (١/٢٣٨) .

٢ اللسان (١/٥٥٣) ، (طبب) ، تاج العروس (١/٣٥٢) ، (طبب) ، « فان يك بك طب داويتك ، فاني أطب العرب » ، الطبري (٢/٢٩٧) .

وتمرن هناك ، وطب بأرض فارس ، وعالج وحصل له بذلك مـال ، وعرف الداء والدواء . وكان صاحب حسّ مرهف ، وموسيقياً يضرب بالعود . تعـلم ذلك بفارس واليمن .

قيل إن سعد بن أبـي وقّاص مرض بمكة ، فعاده رسول الله ، فقال له : أُدْعُ الحارث ، فإنه يتطبب . فعاده الحارث وداواه فشفاه . ونسبوا له كلامـاً مع كسرى أنو شروان . وقيل : إنه هو القائل : « الطب : الأزم ، والبطنة بيت الدواء ، والحِميَةُ رأس الدواء ، وعوّدوا كل بدن ما اعتاد » ، وأشياء أخرى تنسب الى فلاسفة متقدمين ، ولحكماء من العرب غير الحارث[1] .

وقيل إن من حكمه : « خير الدواء الأزم ، وشرّ الدواء إدخال الطعام على الطعام » . وقيل إنه وصى ولده بقوله : « يا بني عوّد نفسك الأثرة ومجاهدة الشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ، ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال . إن الله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة ، واحذر سرعة الكظة وسرف البطنة ، فقد قال بعض الحكماء : إذا كنت بطيناً فعد نفسك مع الزمنى »[2] . ومن حكمه قوله: « لا تنكحوا من النساء إلا الشابة ، ولا تأكلوا من الحيوان إلا الفتى ، ولا من الفاكهة إلا النضيج »[3] .

وقد نسبوا الى الحارث كتاباً ، هو كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنو شروان[4] ، ولم يشيروا الى مضمونه ومحتوياته وحجمه . والظاهر أنه هذه المحاورة التي دبجوها في ترجمته ، ونسبوها اليه ، وزعموا أن كسرى أمر بتدوين مـا نطق به[5] .

---

١ عيون الانباء لابن أبي اصيبعة (١/١٠٩ وما بعدها) ، أخبار الحكماء (ص ١١١ وما بعدها) ، ابن صاعد (ص ٤٧) ، ابن جلجل (ص ٥٤ وما بعدها) ، ابن القفطي تاريخ الحكماء (ص ١٦١ وما بعدها) ، ابن العبري (ص ١٥٦ وما بعدها) ، ابن حجر ، الاصابة (١/٢٨٨) ، بلوغ الارب (٣/٣٢٨ وما بعدها) ، شرح ديـوان لبيد (ص ١٠٢) .

٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٥٦) .

٣ المحاسن والاضداد (١١٠) .

٤ عيون الانباء (١/١١٠ وما بعدها) .

٥ ابن أبي أصيبعة (١/١١٢) ، بلوغ الارب (٣/٣٢٨ وما بعدها) ، العقد الفريـد (٦/٣٧٣) .

وقد ذكر أن الحارث بن كلدة كان شاعراً ذا حكمة في شعره ، وقد أورد الآحدي له أبياتاً في أثناء ترجمته له[1] . وذكره (أبو العلاء المعري) في (رسالة الغفران) ، ونسب له قوله :

فما عسل ببارد ماء مزن على ظمأ ، لشاربه يُشاب
بأشهى من لقيكم الينا فكيف لنا به ومتى الإياب[2]

وذكر الأخباريون ، ان (الحارث) هذا ، كان قد داوى الملك (أبا جبر) الكندي ، وكان ملكاً شديد البأس ، فخرج الى كسرى يستجيشه على قومه فأعطاه جيشاً من الأساورة ، فلما بلغوا (كاظمة) سمّوه ، ثم تركوه وعادوا ، فسار (أبو جبر) الى (الطائف) ، ليداويه (الحارث بن كلدة) ويشفيه ، فداواه فبرىء وارتحل يريد اليمن فنكس ومات . فرثته عمته (كبشة)[3] .

وقد عاصر رسول الله ، وفي بعض الروايات أنه أسلم ومات مسلماً في خلافة (عمر) ، وأنه أكل مع (أبي بكر) وانه شهد ان (ابا بكر) مات مسموماً[4] وأنه خرج مع النساء حينما حاصر المسلمون الطائف سنة تسع للهجرة . وأنه عاش الى أيام معاوية في رواية . وان (آل نافع) و (آل أبي بكرة) كانوا يزعمون أنهم من نسله[5] .

وأما النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي فهو ابن خالة الرسول . وكان النضر قد سافر البلاد أيضاً كأبيه ، واجتمع بالأفاضل والعلماء بمكة وغيرها ، وعاشر الأخبار والكهنة ، واشتغل وحصل من العلوم القديمة ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه ما كان يعلمه من الطب وغيره وكان يؤاتي أبا سفيان في عداوة النبي ، ويحسده ، ويكثر الأذى له ، ويتكلم فيه بأشياء كثيرة ، ويحط من قدره عند أهل مكة . فلما كانت وقعة بدر ، كان على رأس

---

١ المؤتلف والمختلف (ص ١٧٢) .
٢ (١٦٦) ، (تحقيق بنت الشاطىء) .
٣ نزهة الجليس (١/٤٨٤) .
٤ الطبري (٣/٤١٩) « ذكر مرض أبي بكر ووفاته » .
٥ الاشتقاق (ص ١٨٥) ، مختصر ابن العبري (ص ١٥٦) ، أخبار الحكماء ، لابن القفطي (١٦١) ، Die Araber IV, S. 33.

المشركين ، فوقع أسيراً ، ولما كان الرسول بالصفراء أو الأثيل ، أمر بقتله ، فقتل[1] .

وقد نسب بعض أهل الأخبـــار (النضر بن الحارث) على هذه الصورة : (النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار)[2] ، وقالوا إنه من أشراف قريش وأسيادها ، وكان من مطعمي (بني عبد الدار)[3] ، ونصوا أنه « كان من كفّار قريش شديد العداوة لرسول الله »[4] ، وانه كان ابن خالـــة الرسول ، ولهذا فلا يمكن أن يكون هذا النضر ابناً للحارث بن كلـدة الثقفي ، الذي هو (الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج) على رواية من ضبط نسبه من أهل الأخبار[5] . ثم إن (الحارث بن كلدة الثقفي) ، لم يخلف إلا ابنة يقال لها أزدة ، على ما ذكره (أبو عبيدة)[6] ، لذلك فلا يمكن أن يكون (النضر بن الحارث) ابناً له ، كما ذهب الى ذلك (ابن أبـي أصبيعة) وغيره[7] ، لا سيما وان (ابن أبـي أصبيعة) نفسه قد جعله في عـــداد المشركين من قريش الذين آذوا الرسول ، وذكر انه ابن خالة النبي ، وأنه آذاه وساهم مع المشركين في معركة بدر ، فأسر . وأن أخته (قتيلة) قد رثته بشعر دوّنه، كما دوّنه غيره[8]. وما دوّنه عنه ، دوّنه غيره من ترجمة (النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف بن عبدار) القرشي ،وتجده مذكوراً مع شعر الرثاء في كتاب (نسب قريش)

---

١ عيون الانباء (١١٣/١ وما بعدها) ، البلاذري (١٤١/١) ، شمس العلوم (٧٩/١) بلوغ الارب (٣٣٥/٣ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٩٩) . شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (٣٤٨/٣) ، البيان والتبيين (٢٣٦/٢) ، (٤٣/٤) ، (عبـد السلام هارون) ، البلدان (١١٢/١) ، شرح ديوان الحماسة ، للتريزي . حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٤١/٤) .

٢ نسب قريش ، للزبيري (٢٥٥) ، ابن هشام ، سيرة (٣٢٠/١) ، (النضر بـــن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) .

٣ سيرة ابن هشام (٣٢٠/١) ، (٣٢٠/٢) .

٤ الاشتقاق (٩٩) .

٥ الاشتقاق (١٨٥) .

٦ الاشتقاق (١٨٥) .

٧ عيون الانباء (١٦٧) ، (النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي) .

٨ عيون الانباء (١٦٧ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (٢٩٧/٢ وما بعدها) .

للزبيري[1] . وهو من العلماء بنسب قريش ومن المتقدمين على (ابن أبي أصبيعة)[2].

وفي رواية يرجع سندهـا الى (الكلبي) و (مقاتل) ، أن في حق (النضر ابن الحارث) ، نزلت الآية « ومن الناس من يشتري لهو الحديث »[3] . فقـد قيل : « إنه كان يخرج تاجراً الى فارس،فيشتري أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ، ويقول لهم : إن محمداً ، عليه السلام ، يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة،فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن »[4] . وقد نزلت في حقه ثماني آيات[5]، يفهم من تفسير علماء التفسير لها ، أنه كان ذكياً لبقاً و (شيطاناً) من شياطين قريش ، له علم بالشعر وبأخبار الأمم ، يراجع أحبار اليهود وعلماء النصرانية ، ليزيد بذلك علماً على علمه، وكان يعتقد لذكائه وعلمه أنه أحق بالدعوة من النبي ، وحسده وصار يعاكسه في كل مكان .

ووصف بأنه صاحب أحـاديث ونظر في كتب الفرس . كان يحدّث ، ثم يقول : أينا أحسن حديثاً : أنا أم محمد ؟ ويقول : إنمـا يأتيكم محمد بأساطير الأولين . وقيل : إنه كان يقول إنما يعينه على ما يأتي به في كتابه هذا جبر ، غلام الأسود بن المطلب ، وعدّاس غلام شيبة بن ربيعة ، ويقـال : غلام عتبة ابن ربيعة ، وغيرهما . فأنزل الله : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسانُ الذي يُلْحِدون اليه أعجميّ وهذا لسان عربي مبين »[6] . وكذلك « قال الذين كفروا إن هذا الا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . فقـد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا : أساطير الأولين ، اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً »[7]، وروي أنه كان يحدث قومه أحاديث ملوك الفرس وأحـاديث رستم واسفنديار[8] . وعلى هذا ، فلم يكن النضر ، في عداد الأطباء ، وإنما كان في عداد الواقفين

---

١ (ص ٢٥٥) .
٢ (١٥٦ ـ ٦٣٦ هـ) .
٣ سورة لقمان ، الاية ٦ .
٤ أسباب النزول (٢٥٩) ، (سورة لقمان) .
٥ سيرة ابن هشام (١/٣٢٠ وما بعدها) .
٦ النحل ، الاية ١٠٣ .
٧ الفرقان ، الاية ٤ وما بعدها ، البلاذري (١/١٤١) .
٨ ابن هشام (١/٣٢٠) .

على أساطير الفرس ولغتهم ، ولا تستبعد مع ذلك عنه مزاولة الطب ، لأن المثقفين في ذلك الوقت ، كانوا يعالجون ويدرسون مختلف العلوم والمعرفة .

وأما ابن أبي رمثة التميمي ، فكان طبيباً على عهد الرسول مُزاولاً لأعمال اليد وصناعة الجراح[1] . ولم يذكروا عنه شيئاً غير هذا المذكور . وذكر من الأطباء طبيب يقال له ابن حِذْيم ، من تيم الرباب . قيل : إنه حاز على شهرة واسعة بين الجاهليين ، وانه ذكر في شعر لأوس بن حجر ، هو :

فهل لكم فيهـــا إليّ ، فإنني طبيب بما أعيا النطاسي حِذيما[2]

وزعم انه كان أطب العرب ، وانه كان أطب من الحارث بن كلدة ، حتى ضرب بطبّه المثل ، فقيل : أطبّ من حِذْيم . وذكر أنه كان بارعاً في الكي ، فقيل : أطبّ في الكي من ابن حِذيم[3] . وقيل هو انه كان من (تيم الرباب) وكان متطبباً عالماً ، وهو أقدم من الحارث بن كلدة . وقد جعله بعضهم (ابن حذام) (ابن حمام) الشاعر المذكور في شعر (امرىء القيس) ، وهو خطأ ورد من باب التصحيف[4] .

ويظهر من كتب الحديث والأخبار والتراجم ، ان هناك نفراً آخرين مارسوا التطبيب في أيام النبي . فقد أشير الى نفر من قبيلـــة أنمار زاولوا الطب في أيام الرسول[5] . وذكر ان النبي بعث الى أبيّ بن كعب طبيباً ، فقطع له عرقاً ، وكواه عليه[6] .

وأشير الى اسم طبيب آخر ، عرف بـ (ضماد بن ثعلبة الأزدي) ، ذكر أنه كان يداوي ، وانه جاء الى رسول الله[7] . وانه كان صديقاً للنبي في الجاهلية ،

---

١ عيون الانباء لابن أبي أصيبعة (١١٦/١) ، ابن جلجل (ص ٥٧) ، ابن صاعد (ص ٤٧) ، ابن القفطي (٤٣٦) ، تهذيب التهذيب (٩٧/١٢) ، مسند ابن حنبل (١٦٣/٤) ، اللسان (٢٣٢/٦) .
٢ تاج العروس (٣٣٨/٨) ، (حذم) .
٣ بلوغ الارب (٣٣٧/٣) .
٤ الخزانة (٢٣٢/٢) ، (بولاق) .
٥ ابن جلجل (ص ٥٤) .
٦ ابن جلجل (ص ٥٨) ، زاد المعاد (٨٤/٣) .
٧ نهاية الارب (٧/١٨ وما بعدها) ، (٣٥٠/١٧) .

وكان من أزد شنوءة . وكان رجلاً يتطبب ويرقي ويطلب العلم ، ويداوي من الريح . وقد أسلم . وكان محترماً مقدراً . ذكر أن بعثاً بعثه رسول الله أو ابو بكر ، مرّ ببلاد ضماد ، فلما جاوزوا تلك الأرض . وقف أميرهم ، فقال : أعزم على كل رجل أصاب شيئاً من أهل هذه الأرض إلا ردّه ، لمكانة هذا الرجل ولشرفه ولصداقته للرسول [1] . « وروي انه قدم مكة معتمراً ، فسمع كفار قريش يقولون: محمد مجنون ، فقال : لو أتيت هذا الرجل فداويته . فجاءه فقال له : يا محمد إني أداوي من الريح فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك . فتشهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضماداً ، فقال : أعدها عليّ ، فأعادها عليه فقال : لم أسمع مثل هذا الكلام قط ، لقد سمعت الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط »[2] .

ولا يستبعد تعلم هؤلاء الأطباء في جنديسابور مركز الطب والعلوم في الانبراطورية الساسانية ، او في أماكن من بلاد الشأم ، فقد كان الطبيب الحاذق محتاجاً في هذا اليوم الى تعلم هذا العلم في أماكن متعددة للاستفادة من تجارب الأطباء . وقد كان السفر متصلاً غير منقطع،فلا يستبعد قدوم الأطباء وطلاب الطب من جزيرة العرب الى هذه الأماكن للتعلم فيها .

واشتغلت النساء بالمعالجة والتطبيب أيضاً . فقد قامت (رفيدة) تداوي جرحى المسلمين يوم ذهابهم الى (بني قريظة)[3] . وكانت امرأة تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وكانت لها خيمة في المسجد، مسجد الرسول بيثرب تداوي بها الجرحى . ولما جرح (سعد بن معاذ) يوم الخندق ، قال رسول الله : « اجعلوه في خيمة رفيدة التي في المسجد حتى أعوده من قريب » ، وكان الرسول يزوره في خيمتها في الصباح وفي المساء[4] .

واشتهرت (زينب) ، وهي من (بني أود) بالطب . كانت تطبب وتعالج العين والجراح[5] .

---

١ الاصابة (٢٠٢/٢) ، (رقم ٤١٧٧) ، الاستيعاب (٢٠٩/٢) ، حاشية على الاصابة .

٢ ابن سعد ، طبقات (٢٤١/٤) .

٣ نهاية الارب (١٩١/١٧) .

٤ الاصابة (٢٩٥/٤) ، (رقم ٤٢٤) .

٥ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٤٠/١) ، (١٩٥٧ م) .

والوجع المرض المؤلم[1] ، والعرب تسمي كل مرض وجعاً[2] ، ويعبر عنه بالسقام كذلك[3] . وذكر أن (الوعك) الحمّى او ألمها وأذاها ومغثها في البدن ، وذكر ان الوعك لا يكون إلا من الحمّى دون سائر الأمراض[4] .

وقد عالج الأطباء الجروح بوضع الخرق بعضها فوق بعض على الجرح ، أي بتضميده بها ، ويقال لذلك (الغميل) . وكانوا إذا ارادوا تعريق المريض، غملوه[5]، اي غطوه بالثياب ليعرق ، فيشفى من البرد والزكام . والضماد العصابة او الخرقة تشد فوق الجرح او الرأس ، او اي موضع من الجسم يشتكي من وجود ألم به، فكانوا يضمدون الرأس للصداع ، كما كانوا يضمدون العين ، بوضع الدواء في العين ، أو على الخرقة ثم تضميد العين بها ، ورد ان (طلحة) ضمد عينيه بالصبر ، كذلك كانوا يضعون الأدهان على الضماد، لتضميد الجروح ، أو الأورام او موضع الألم[6] .

ويذكر علماء اللغة أن (النطاسي) ، العالم الشديد النظر في الأمور[7] ، فهي بمعنى الحاذق . ويقال : طبيب نطّيس ونطاسي ، وورد : نطس الاطباء . وهي أكثر ما ترد مع الاطباء ، للدلالة على الحذق والفهم في هذه الصناعة . وذكر علماء اللغة ان اللفظة من المعربات ، عربت من أصل (نسطاس) ، وهي من لغة الروم . والنُطس الاطباء الحذاق ، والعالم بالطب بالرومية[8] .

ولعدم وصول كتب او صحف او أحجار لها علاقة بالطب عند الجاهليين ، اضطررنا الى أخذ معارفنا في الطب من الموارد الاسلامية ، مثل كتب التفسير والحديث والادب ، ففيها إشارات الى بعض الامراض ، وفي بعضها اشارات الى معالجة بعض منها . هذا ، وتفيدنا الموارد الاعجمية في هذا الباب كثيراً ،

---

١ تاج العروس (٥/٥٣٣) ، (وجع) .
٢ ارشاد الساري (٨/٣٤٣) .
٣ تاج العروس (٨/٣٣٦) ، (سقم) .
٤ ارشاد الساري (٨/٣٤٣) ، تاج العروس (٧/١٩٢) ، (وعك) .
٥ تاج العروس (٨/٥٠) ، (غمل) .
٦ تاج العروس (٢/٤٠٥ وما بعدها) ، (ضمد) .
٧ بلوغ الارب (٣/٣٣٨) .
٨ تاج العروس (٤/٢٥٨) ، (نسطاس) ، (نطس) ، (٦/٣١٠) .

لورود أمراض فيها وطرق معالجة ، كانت معروفة وشائعة في الشرق الأوسط قبل الإسلام . ونجد في المعجمات الخاصة بالعهدين القديم والجديد وفي تواريخ الطب القديم معلومات ذات أهمية كبيرة بالنسبة الينا ، لأنها تعيننا على تكوين رأي في الطب عند الجاهليين .

والمذكورون ، هم أطباء نشأوا في المدن ، وأقاموا في الحضر ، وتعلموا من أطباء محترفين . أما الأعراب ، فقد كان لهم أطباء ، ولكن طبهم ، هو طب العرف والعادة . طبّ موروث ،يداوي بالوصفات التي داوى بها الآباء والأجداد، دون تغيير وتبديل وجدل ونقاش . ولهذا ، فهو طب بدائي تقليدي موروث ، يعتمد في بداواته على قدرة القبيلة،وعلى ما يجده الطبيب حوله من نبات وأعشاب وحيوان ونار فيداوى بها . وما زال الأعراب على طبّهم هذا ، يداوون به على نحو ما داوى أجدادهم وأجداد أجدادهم في الاسلام وقبل الاسلام .

وليس لطب البادية اتصال بالطب الخارجي ، إلا ما كان من طب القبائل القاطنة على مقربة من الحواضر ، أو القبائل التي كان لها اتصال مباشر منتظم أو غير منتظم بالعالم الخارجي . فقد تسرب الى علم (العوارف) فيها نفح من الطب الغريب ، عالج به (عوارف) القبيلة ، واستمروا على المعالجة به ، حتى صار سنّة لهم وطباً قبلياً . ومن أهم صفات الطب القبلي ، انه طب لا يثق إلا بنفسه ، ولا يرى الشفاء إلا من أطبائه وبأدويته المتعارفة عنده . والمريض الأعرابي لا يعمل إلا بطب أصحاب الخبرة من الشيبة والعجائز الذين عرفوا بممارستهم معالجة المرضى؛ وللسن عندهم قيمة في نجاح المعالجة والحصول على الشفاء ، فالسن تجربة وعلم . ولذلك فللمسن المعالج الذي يرجع اليه عند الشكاية من الألم والمرض ، تأثير كبير على المريض من الناحية النفسية،لاعتقاده بأن السنين تزيد في خبرة الانسان وتضيف الى علمه القديم علماً جديداً . لذلك يثق المرضى به ، مع ان طب الأعراب ، لا يعرف البحث والمطالعة لزيادة العلم ، ولا يركن الى التجديد بالحصول على معارف طبية جديدة ، بدراسة أثر أعشاب البادية بصورة مستمرة في شفاء المرضى واستخلاص النتائج من مراقبة تأثير الدواء على حالة المريض .

وقد عرف طب البادية بـ (طب الأعراب) وبطب البادية ، وعرف دواء الأعراب بدواء أهل البادية . وهو دواء نابت من محيطهم يستند على المعالجة بالأعشاب وبالرماد وبالألبان وبأبوال الإبل وبالحرز . ومن أدويتهم (النهاء) دواء

يكون بالبادية يتعالجون به ويشربونه . ويظهر انه من حجر يقول له (النهاء) ، وهو حجر أبيض أرخى من الرخام ، يكون بالبادية ، ويجاء بـه من البحر . وضرب من الخرز[1] .

و (العقار) و (العقاقير) الأدوية . وقيل ما يتداوى به من النبات أو أصولها والشجر[2] . و (العُقار) في الآرامية ما يتداوى به من النبات ، أي دواء[3] .

وطب مثل هذا ، لا يمكن أن يأتي بنتائج ايجابية في معالجة الأمراض الصعبة العسيرة ، وفي حالات مرضية مهمة جداً في نظر بعض الناس ، ولا سيما مشايخ القبائل ، كالعقم وتقوية الشهوة الجنسية ، ولهذا كانوا يلجأون الى أطباء الحضر . وقد أدرك الرهبان والمبشرون أثر هذه الحالات المرضية، ولا سيما الأمراض النفسية منها في نفوس أولئك الرؤساء ، وجلهم ممن درس الطب وقرأ الكتب المؤلفة فيه ومارسه عملياً ، فذهبوا بأنفسهم إلى القبائل للتبشير ،وعالجوا الرؤساء معالجة نفسانية في الغالب ، وأثروا فيهم ، ونجحوا في مثل هذه الحالات في كسب عطفهم عليهم وتأييدهم لهم ، وفي الدخول في جوارهم ، للقيام بالتبشير . ونجد في النتف الباقية عن حياة المبشرين الذين بشروا بين العرب قصصاً من هذا النوع روي في معالجة بعض الرؤساء،يذكر أنهم نجحوا في معالجتهم وأن نجاحهم هذا هو كرامة ومعاجز قد تمت بفضل الله ومنّة المسيح .

ويكون الشفاء عند العرب في ثلاثة : شربة عسل وشرطة محجم وكيّة نار . واذا عجز الطبيب من اشفاء مريضه بما عنده من وسائل لجأ الى (الكيّ) ، ولذلك جاء : « آخر الدواء الكي » . وكان أهل الجاهلية يرون انه يحسم الداء بطبعه فيبادرون اليه قبل حصول الاضطرار اليه ويعالجون بـه أكثر الأمراض . وروى في الحديث قوله : « الشفاء في ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكيّة نار ، وأنهى أمتي ثمن الكيّ »[4] .

والعسل من الأدوية والوصفات التي أمر بها الأطباء في معالجة بعض الأمراض، ولا سيما أمراض المعدة ، عولج به وحده ، وعولج به ممزوجاً بمواد أخرى ،

---

١ تاج العروس (١٠/٣٨٢) ، (نهى) .
٢ تاج العروس (٣/٤١٧) ، (عقر) .
٣ غرائب اللغة (١٩٦) .
٤ ارشاد الساري (٨/٣٦١) ، كتاب الطب » .

لتكوين عجائن ولصقات منه[1] . واستعملت العجائن المكونة من الدقيق والتمر والسمن في معالجة أمراض الجلد وآلام المفاصل ، والنزلات . كذلك استعملت لصقات كونت من مواد أخرى في معالجة مثل هذه الأمراض . والمناقع هي من طرق المعالجة أيضاً ، ومنها مناقع الخل والزيوت .

وقد ورد في رواية : ان الرسول أرسل عكّة عسل الى لبيد الشاعر الشهير حين علم بمرضه ، فشرب منها ، وبرىء[2] ، وفي هذا الخبر دلالة على تداويهم بالعسل .

وقد أقام أهل مكة والحجاز وزناً كبيراً للمداواة بالعسل . ونجد في كتب الحديث وفي كتب الأدب والأخبار إشارات الى هذه المداواة . وقد استعملوا العسل في مداواة « المبطون » الذي يشتكي بطنه من الاسهال المفرط ، ومن سوء الهضم ، لاخراج الفضول المجتمعة في المعدة وفي الأمعاء[3] .

وفي جملة معالجات الأطباء ووصفاتهم للمرضى ، استعمال الحجامة ، أي استخراج مقدار من الدم بكأس يسحب هواؤها بالمص ، فيخرج الدم من الشروط التي عملت في ظهر الرقبة . وقد استخدموها في معالجة الرأس والشقيقة والصداع[4]. والفصد . واستعمال ديدان خاصة لامتصاص الدم[5] . والشقيقة صداع يصيب شقي الرأس ، وان أصاب الصداع قنة الرأس أحدث داء البيضة . وأما الصداع فهو عام[6] .

والفصد ، هو شق العرق لإخراج مقدار من الدم للمعالجة من بعض الأمراض.

---

١ عمدة القارىء (٢١/٢٣٢) ، « عليكم بالشفاءين : القرآن والعسل » العقد الفريد (٦/٢٧٣) .

٢ شرح ديوان لبيد (ص ٢٥ مقدمة) .

٣ ارشاد الساري (٨/٣٧٨ ، ٣٦٣) .

٤ عمدة القارىء (٢١/٢٤٢ وما بعدها) ، « أن عيينة بن حصن دخل على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يحجم في نأس رأسه » فقال : ما هذا ؟ قال : هذا خير ما تداويتم به ، « الحجامة والكي » ، العقد الفريد (٦/٢٧٥ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٨/٣٧٠) .

٥ عمدة القارىء (٢١/٢٣٠ وما بعدها) .

٦ ارشاد الساري (٨/٣٧٠) .

وقد عرف عند العرب كما عرف عند غيرهم[1]. وقد داووا الصبيان بـ (الفصيدة) تمر يعجن ويُشاب، أي يخلط بدم[2]. والظاهر أن هذا الدم، هو من دم الفصد. وقد كان الجاهليون يأكلون دم الحيوان، يجففونه بعد خلطه مع مادة أخرى، أو وضعه في أمعاء ليجف فيؤكل، أو مع الشعر ثم يأكلونه، ومنهم من كان يشرب الدم، للقوة. و « وفي حديث عكرمة: كان طعام أهل الجاهلية العلهز. قال ابن الأثير: هو طعام من الدم والوبر »، وذلك أن يخلط الدم بالوبر، أو الصوف ينفش ويشرب بالدماء ويشوى ويؤكل. وقد نسب أكله الى الفقراء وإلى أيام المجاعة، وزعم أنهم كانوا يخلطون فيه القردان. أو دم الحلم. ونسب أكله الى القحطانيين، وذلك في شعر هجاء، هو:

وإن قرى قحطان قرف وعلهز فأقبح بهذا وبح نفسك من فعل[3]

وهو من الشعر المنبعث عن عاطفة العصبية ولا شك.

وكان الفصد عند العرب من جملة وسائل القتل التي تستعمل في قتل الملوك والأشراف. تمييزاً لهم عن السوقة وسواد الناس الذين يقتلون بحدّ السيف. فقد كان الشريف إذا سقط في أيدي عدوّه ووجد نفسه أنه مقتول لا محالة، أوصى بإسقائه الخمر، حتى يسكر، فيخف بذلك ألمه ثم يفصد عرق اليد فيخرج منه الدم حتى يموت ميتة الأشراف.

واستعمل الكيّ في معالجة أمراض المفاصل، مثل الرثيّة «الروماتزم»، وقد برع في ذلك الأعراب بصورة خاصّ. وهو معالجة أخذ بها أطباء أهل الوبر أيضاً، وطريقتهم هي كي الجزء المريض بحديدة محماة، أو بحجر محمى. وقد استعمل الكي أيضاً في معالجة الجروح والقروح ووجع الرأس. وفي العربية مثل قديم له علاقة به، هو: آخر الدواء الكي. فالكي اذن معالجة يلجأ اليهـا حينما يعيا الدواء عن الشفاء. واستعمل في معالجة الاستسقاء - بالكي على البطن[4]. وينسب أهل الأخبار المثل المذكور الى (لقمان بن عاد)[5]. وفي نسبتهم هذه المعالجة اليه

---

١ اللسان (٣/٣٣٦)، (فصد).
٢ اللسان (٣/٣٣٦)، (فصد)، تاج العروس (٢/٤٥٣)، (فصد).
٣ تاج العروس (٤/٦١)، (العلهز).
٤ الفاخر (ص ٥٨، ١٢٦).
٥ الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب (١/٣)، (حيدر آباد الدكن ١٩٦٢ م).

دلالة على قدمها عند العرب . وهي معالجة لا زال الأعراب يستعملونها في مداواة أمراض عديدة عندهم ، لا سيما في معالجة أمراض الروماتزم . وقد ورد أن (خباب بن الأرت) اكتوى في بطنه سبع كيّات[1] .

و (الرثية) وجع المفاصل واليدين والرجلين ، وقيل وجع الركبتين والمفاصل ، أو ورم وظلاع في القوائم ، أو هو كل ما منعك من الالتفات أو الانبعاث من كبر أو وجع[2] .

وقد استعملوا (الكي) للشوكة . والشوكة حمرة تظهر في الوجه وغيره من الجسد . وقد كوى (أسعد بن زرارة) من الشوكة[3] . وقيل الشوكة داء كالطاعون ، وكانوا يسكنون الشوكة بالرقي كذلك[4] .

والبصل والثوم والكمون والكرفس والخردل هي من النباتات التي عولج بها ، فاستعمل البصل لمعالجة النزلات الصدرية وبعض أنواع الحميات وللقضاء على الديدان في داخل الجسم . واستعمل الثوم لمعالجة أمراض المعدة والديدان أيضاً، وفي معالجة أمراض القلب[5] . واستعمل الكمون في معالجة النزلات الصدرية كذلك . وهو من الأدوية المعروفة عند غير العرب أيضاً ، فقد كان العبرانيون يستطبون به[6] ، وكانوا يحصلون عليه بواسطة الفينيقيين والعرب . وأحسنه هو الكمون المستورد من (سيلان)[7] . وعالجوا به في الادرار ، وفي مطاردة الريح في المعدة وللهضم[8] .

وعولج بالسنا وبالشبرم وبالزبيب ، ويرون أن الزبيب يُذهب النّصب، ويشد العصب ، ويطفىء الغضب ، ويصفي اللون ، وبالسفرجل ويرون أنه يشد القلب، ويطيب النفس ويذهب بطخاء الصدر[9] . وعالجوا بالتين ، استعملوه لمعالجة الإمساك والكبد والطحال[10] ، وعالجوا بالرمان[11] .

---

١ ارشاد الساري (٨/٣٥٦) .
٢ تاج العروس (١٠/١٤٤) ، (رثى) .
٣ الطبري (٢/٣٩٨) ، النهاية لابن الاثير (٤/٢٤٠ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٧/١٥٢) ، (شوك) ، اللسان (١٠/٤٥٥) ، (شوك) .
٥ « الثوم : ويسمى ترياق البدو » ، شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ٢٧٠) .
٦ The Bible Dictionary, I, p. 275.
٧ تاج العروس (٩/٣٢٢) ، (كمن) .
W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 330.
٨ تاج العروس (٩/٣٢٢) ، (كمن) .
٩ العقد الفريد (٦/٢٧١ وما بعدها) .
١٠ تاج العروس (٩/١٥٤) ، (التين) .
١١ تاج العروس (٩/٢١٩) ، (رمان) .

و (الحُلْبَةُ) من النبات الذي عولج به في أمراض كثيرة ، فعولج به أمراض الصدر مثل الربو والسعال والبلغم،وعولج به الكبد والمثانة والبواسير وآلام الظهر . وذكر أن (الحلبة) طعام أهل اليمن عامة ، وبالغوا في فوائدها حتى رووا أن حديثاً ورد فيها : « لو يعلم الناس ما في الحلبة لاشتروها ولو بوزنها ذهباً »[1] .

وتطيب بالسعوط والنشوق . وقد استعملوا لذلك جملة مواد ، منها : دهن الخردل ، ودهن البان ، والقسط الهندي والبحري ، وبالعود الهندي والكافور . وقد استخدم العود الهندي في معالجة ذات الجنب[2] . ويرى بعض الباحثين أن النشوق من أصل آرامي هو (نسكو Nosko) من Nsk بمعنى أسال في شيء ، أي دواء يسكب في الأنف[3] . واستخدم (السُنبل) ، وهو نبات طيب الرائحة في التداوي كذلك ، ويعرف بـ (سنبل) في السريانية أيضاً[4] .

وذكر أن (السعوط) اسم الدواء يصب في الأنف . وذلك بأن يوضع الدواء في إناء يجعل فيه السعوط ويصب منه في الأنف ويقال للإناء المِسعط والسعيط والمُسعط[5] . ويستعمل السعوط من مختلف الدهون . وقد استعمل في مداواة (العذرة) ، وهو وجع يأخذ الطفل في حلقه ، يهيج من الدم أو في (الخرم) الذي هو بين الأنف والحلق ، وهو سقوط اللهاة . وقيل قرحة تخرج بين الأنف والحلق تعرض للصبيان غالباً عند طلوع العذرة.وهي خمس كواكب تحت الشعرى، أي العبور وتطلع وسط الحر[6] .

و (القسط) عود يجاء به من الهند ، فعرف لذلك بالقسط الهندي ، وعود يؤتى به من اليمن ، ويعرف بالقسط البحري . وعود عرف بـ (قسط أظفار) وقسط عرف بـ (القسط المر) وهو كثير ببلاد الشأم . ويقال للقسط (الكست) و (كشط) . وذكر ان الرسول أشار الى (القسط) فقال : « عليكم بهذا العود الهندي ، فإن فيه سبعة أشفية : يستعط به من العذرة ويلدّ به من ذات

---

١ تاج العروس (٢/٣١٢) ، (طبعة الكويت) ، (١/٢٢٢) ، (حلب) .
٢ عمدة القارىء (٢١/٢٣٨ وما بعدها) ، العقد الفريد (٦/٢٧٥) ،
٣ غرائب اللغة (ص ٢٠٧) .
٤ غرائب اللغة (ص ١٨٩) .
٥ اللسان (٧/٣١٤ وما بعدها) ، (سعط) .
٦ ارشاد الساري (٨/٣٦٧) .

الجنب[1] . وقد استعمل القسط بخوراً ودواء . وهو من نبات أصله من الهند ، يقال له (قسطس) ، وهو معروف عند غير العرب أيضاً ويداوى به[2] .

وعالجوا بـ (العيد) ، شجر جبلي ضمدوا بلحائه الجرح الطري فيلتئم[3] . وبـ (السنى) ، نبت يتداوى بـه . وقد جاء ذكره في الحديث . وقد خلطوه بالحنّاء لتقوية اللون وتسويده[4] . وداووا بـ (السعتر) (الصعتر)[5] ، وبالقرطم ، في معالجة أمراض عديدة[6] .

وقد كانت النساء تعالج الصبيان من العذرة بالغمز ، وذلك أن المرأة كانت تأخذ خرقة فتفتلها فتلاً شديداً وتدخلها في حلق الصبي وتعصر عليه ، فينفجر منه دم أسود وربما أقرحته[7] .

وعرف (الدرياق) (التّرياق) في التطبيب به . استعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين ، والعرب تسمي الخمر (ترياقاً) و (درياقاً) لأنها تذهب بالهم . و (التّرياق) ، فارسيّ معرب . ويقال درياق . بالدال أيضاً . « وفي الحديث إن في عجوة العالية ترياقاً . التّرياق ما يستعمل لدفع السُمّ من الأدوية والمعاجين»[8].

والبلسم ، من المواد المهمة في المعالجات الطبية ، وقد اشتهر كثيراً في الطب القديم ، ليس عند العرب فقط ، ولكن عند أكثر الأمم الأخرى . اشتهر في معالجة الجروح خاصة ، اذ هو مادة صمغية تضمد بها الجراحات . ووطنه بلاد الحبشة ، واشتهر من أنواعه الجيدة (بلسم جلعاد) عند العبرانيين ، وهو ذو رائحة عطرة . وقد مدحه الأطباء وأثنوا عليه في معالجة الأمراض والجروح[9] .

وذكر علماء اللغة أن (البلسم) ، هو (البلسام) وهو البرسام ، والموم .

---

١ ارشاد الساري (٣٦٧/٨) ، اللسان (٣٧٩/٧) .
٢ غرائب اللغة (٢٦٥) .
٣ تاج العروس (٤٣٨/٢) ، (عود) .
٤ تاج العروس (١٨٥/١٠) ، (سنى) .
٥ تاج العروس (٢٦٩/٣) ، (السعتر) .
٦ تاج العروس (٢٤/٩) ، (قرطم) .
٧ ارشاد الساري (٣٦٩/٨) .
٨ اللسان (٣٢/١٠) ، (ترق) .
٩ قاموس الكتاب المقدس (٢٤٥/١) . Hastings, p. 872. f.

والبلنسم: القطران[1] . و (البلسم) هو (بلسمون) ، و (بلسان) Valsamon [2].

وقد استعمل لحاء (العقد) لتضميد الجرح الطري ، فيلتحم لخاصية فيه[3] : وعالجوا بـ (البان) ، وهو شجر معروف ، ذكر في شعر (امرىء القيس)، ولحب ثمره دهن ، وحبّه نافـع للبرش ، والنمش ، والكلف ، والحصف ، والبهق ، والسعفة ، والجرب ، وتقشر الجلد ، واستعمل في الاسلام لمداواة أمراض عديدة[4] .

و (السفوف) كل دواء يؤخذ غير معجون ، مثل سفوف حب الرمان وغيره[5] . وترد اللفظة في الآرامية بالمعنى نفسه ، وهي من المعربات عنها[6] .

واستعملت الزيوت في معالجة عدد من الأمراض والجروح،فاستعملت في معالجة البطنة مثلاً . وقد تخلط بغيرها،كالخمر أو الخل أو الملح،وقد تغلى ثم توضع على الجرح لقطع النزيف منه ولتعقيمه . والمعالجة بالزيوت ، قديمة معروفة عند المصريين والعبرانيين واليونان وغيرهم ، أشير اليها في كثير من الموارد القديمة[7] . وعولج (الباسور) بدهنه بزيت الزيتون[8] .

وعالجوا باستعمال (الحبّة السوداء) . استعملوها قليلاً ، وأكلاً ولطوخاً ، كما سحقوها وخلطوها بالزيت لاستعمالها قطرات في معالجة أمراض الأنف . وقد كانوا يبالغون في منافعها ، فاستعملوها في معالجة أمراض كثيرة باطنية وخارجية[9] وذكروا أن الرسول قال : « إن هذه الحبّة السوداء شفـاء من كل داء ، إلاّ السام) ، والسام الموت[10] .

وعولج بالألبان ، ولا سيما ألبان الإبل . وهم يفضلون لبن الإبـل على سائر

---

١ تاج العروس (٢٠٦/٨) ، (بلسم) .
٢ غرائب اللغة (٢٥٥) .
٣ تاج العروس (٤٢٧/٢) ، (عقد) ، (٤٣٨/٢) ، (عود) .
٤ تاج العروس (١٤٧/٨) ، (بون) .
٥ تاج العروس (١٣٩/٦) ، (سف) .
٦ غرائب اللغة (١٨٧) .
٧ The Bible dicti., vol., II, p. 154.
٨ العقد الفريد (٢٧٤/٦) .
٩ عمدة القارىء (٢٣٥/٢١ وما بعدها) .
١٠ ارشاد الساري (٣٦٥/٨ وما بعدها) .

الألبان[1] . وقد عولج به مختلف الأمراض ، ومن ذلك (السقم)[2] .

وعالجوا بأبوال الإبل أيضاً . وورد في شعر (لبيد بن ربيعة العامري) أنهم عالجوا ببول الإبل ، وكانوا يغلونها أحياناً ليشربها المريض[3] .

وعولج بـ (التلبينة) ، حساء من نخالة ولبن وعسل ، وقيل حساء يتخذ من ماء النخالة فيه لبن . وذكر أنها تُجم فؤاد المريض وتذهب ببعض الحزن وتنظف المعدة[4] . وعالجوا بالحساء لغسل البطن وتنظيفها من سوء الهضم[5] .

وعولج بإهراق الماء على المريض ، وذلك في أمراض الحمى ، وفي الأمراض التي يشعر المريض بأن في جسمه حرارة والتهاباً ، فيجلس على كرسي ويصب الماء عليه ، حتى يخفف من شدة حرارة المريض[6] . كما عولجت الحمى بنصح المريض بالاكثار من شرب الماء البارد وغسل الأطراف[7] .

وللمحافظة على الأسنان ولظهورها بيضاء نظيفة ، استعملوا السواك وبعض الأعواد لاستخراج الفضلات التي تتخلل الأسنان ، وما زال الحجاج يستوردون المساويك من مكة . وقد اشتهرت مكة منذ الجاهلية بالسواك ، يستخرج من أغصان أشجار تنبت هناك ، لأغصانها رائحة طيبة ، وتساعد على تبييض الأسنان . ومن المواد التي عملت منها المساويك : البشام ، والضرو ، والعثم ، والأراك ، والعُرجون ، والجريد ، والإسحل[8] .

وقد حث الاسلام على تنظيف الأسنان بالمسواك . ورد في الحديث : « السواك مطهرة للفم » أي يطهر الفم . وأشير الى المسواك في الشعر ، إذ ورد :

وكأن طعم الزنجبيل ولذة صهباء ساك بها المسحر فاها

---

١ عمدة القارىء (٢١/٢٣٤ وما بعدها) .
٢ ارشاد الساري (٨/٣٦٤) .
٣ شرح ديوان لبيد (ص ١١٦) ، عمدة القارىء (٢١/٢٣٤ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٨/٣٦٤ وما بعدها) .
٤ ارشاد الساري (٨/٣٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١٣/٣٧٦) ، (لبن) .
٥ ارشاد الساري (٨/٣٦٦ وما بعدها) .
٦ ارشاد الساري (٨/٣٧٧) .
٧ ارشاد الساري (٨/٣٨١) .
٨ البيان (٣/١١٤) .

وهو للشاعر (عدي بن الرقاع) ، وورد في شعر آخر :

إذا أخذت مسواكها ميحت به رضاباً كطعم الزنجبيل المعسل[1]

واستعمل الإثمد والكحل في معالجة الرمد[2] ، كما استعملوا قطرات من أدوية استحضروها مثل ماء الكمأة في معالجة أمراض العين[3] . وذكر ان الإثمد يحد البصر ، ويقوي النظر[4] .

والكحل ، من جملة مواد تطبيب العيون ، ومن جملة وسائل الزينة كذلك . يستعمله الرجال والنساء . وقد كان معروفاً عند الشعوب الأخرى ، يصنع من حرق اللبان أو قشور اللوز ،ومن السخام المتبقي من حرق بعض الدهون والزيوت[5]. وقد عرفت مكة بصنع الكحل قبل الإسلام ، ولا تزال مشهورة به . وقد كان الناس يحملون المكاحل في جيوبهم ويحتفظون بها في بيوتهم ، يعملونها من القرون أو المعادن ، ويبالغ الأغنياء منهم في زخرفتها وفي تزيينها للتبجح بها عند اخراجها أمام الناس[6] .

ونصحوا بتنقيط نقط من ماء بارد في العين عند النهوض من النوم ، لجلائها وإزالة الغشاوة عنها ، كما نصحوا بوضع القدمين واليدين في ماء بارد أو حار ، وذلك لمعالجة العين ، ولمعالجة القدمين واليدين أيضاً . وقد عرف العبرانيون هذه المعالجة كذلك[7] .

وكانوا يعالجون الماء الأسود الذي يحدث في العين بالنقب ، أي القدح . وقد ورد في حديث (أبي بكر) أنه اشتكى عينه فكره أن ينقبها[8] . و (الناقب)

---

١ تاج العروس (١٤٦/٧) ، (سوك) .

٢ عمدة القارىء (٢٤٥/٢١) ، ارشاد الساري (٣٧٣/٨) .

٣ عمدة القارىء (٢٤٨/٢١) ، « ان الكمأة من اكمن ، وماؤها شفاء للعين ، وهي شفاء من السم » ، العقد الفريد (٢٧٢/٦) .

٤ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول ، (ص ٢٦١) ، « عليكم بالاثمد عند النوم ، فانه يحد البصر ، وينبت الشعر » العقد الفريد (٢٧٣/٦) .

٥ The Bible dictio., vol., II, p. 234.

٦ Hastings, Dict., vol., I, p. 814.

٧ Ency. of Relig. knowledge, vol., III, p. 1456.

٨ تاج العروس (٤٩٣/١) (نقب) .

و (الناقبة) داء يعرض للإنسان من طول الضجعة ، وقيل هي القرحة التي تخرج بالجنب[1] . وعالجوا المـــاء الأبيض باستعمال الأشياء الرفيعة الحادة مثل السكين أو العاقول ، لرفع الغشاء الرقيق وسحبه عن للعين ، بعد اكتمال نزول الماء بها .

ولقطع نزيف الدم المنبعث من الجروح ، استعملوا الرماد[2] ، والزيوت المغلية تسكب على الجرح ، لقطع نزيف الدم . أما النزيف النـازل من الأنف ، وهو الرعاف ، فقد استخدموا الماء البارد لقطعه . وقـــد عرفوا كذلك ربط الجروح بشدة حتى يقف الدم فينقطع ، واستعملوا الضماد والمناديل لمنع الدم من الخروج، ومن ذلك قولهم : ضمد الجرح ، أي شده[3] . واستعملوا حرق الحصير والمواد القابلة للاشتعال لاستعمال رمادها لقطع النزيف[4] ، أو وضع الملح على الجرح لايقاف نزيف الدم منه . ولمعرفة عمق الجروح ومقدار غورها ، استعملوا آلة يسمونهـــا المِسبار[5] . والسِّبار[6] ، فتيل يجعل في الجرح[7] . ويعبرون عن مداواة الجرح بقولهم أسا الجُرحَ ، أي داواه وشفاه[8] .

وقد عولج الإمساك بالحقن ، أي حقن المريض ، وباستعمال المسهلات لتليين المعدة[9] .

والباسور من الأمراض المعروفة عند الجاهليين ، وقد أشير اليه في كتب الحديث[10]. « وفي حديث عمران بن حصين ، وكان مبسوراً ، أي به بواسير » . واللفظة معربة . والبواسير جمع (باسور)[11] . والناسور علة تحدث في حوالى المقعدة ، وعلة تحدث في المـآقي ، وفي اللثة[12] .

---

١ تاج العروس (١/٤٩٣) ، (نقب) .
٢ عمدة القارىء (٢١/٢٥٣) ، صحيح مسلم (٥/١٧٨) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٩٣) .
٤ ارشاد الساري (٨/٣٨٠) .
٥ المغرب (٢٤٠) .
٦ ككتاب ، المعاني الكبير (٢/٩٨٣) .
٧ شرح القاموس (٣/٢٥٣) .
٨ غرائب اللغة (ص ١٧٢) .
٩ المغرب (١٣٣) ، تاج العروس (٩/١٨٢) ، (حقن) .
١٠ صحيح البخاري (٢/٤٨١) ، الجمهرة (١/٢٥٥) ، المعرب للجواليقي (٥٨) .
١١ تاج العروس (٣/٤٢) ، (بسر) .
١٢ تاج العروس (٣/٥٦٤) ، (نسر) .

وعولجت الأورام التي تصيب الجلد بالمناقيع واللصقات ، ولا سيا اللصقات الحارة ، كي تعجل في اخراج الصديد من العضو المتورم . واستعملت هذه اللصقات من سحق بعض الحبوب ذات المادة الدهنية ، مثل حب الكتان أو حب البخور ، وبعد سحقها توضع على النار ثم تفرغ في قماش لتوضع فوق الورم لازالته ، وتحويله الى صديد . واستعملت من مواد أخرى مثل التمر مع الزبد وأمثالها ، وكلها على أساس ان الدفء الذي يكون فيها يسبب زوال الورم وتحوُّل الدم الفاسد الى صديد يخرج أو يجف .

واستعمل (الزقوم) في معالجة الجروح . وهو مرّ شديد المرارة ، وأشير الى (شجرة الزقوم) و (شجر من زقوم) في القرآن الكريم[1] ، ولما نزلت الآية لم تعرف قريش معنى الكلمة ، « فقال أبو جهل : إن هذا الشجر ما ينبت في بلادنا ، فمن منكم يعرف الزقوم ؟ فقال رجل قدم عليهم من أفريقية : الزقوم بلغة أفريقية : الزبد بالتمر . فقال أبو جهل : يا جارية هاتي لنا زبداً وتمراً نزدقه ، فجعلوا يأكلون منه ويقولون : أفبهذا يخوفنا محمد في الآخرة ! »[2] . والزقوم تنبت بالبادية له زهر ياسميني الشكل . وقيل شجرة غبراء صغيرة الورق مدورتها لا شوك لها ذفرة مرة لها كعابر في سوقها كثيرة ولها وريد ضعيف جداً يجرسه النحل ونورتها بيضاء ورأس ورقها قبيح جداً . وفي أريحا شجرة يقال لها الزقوم لها ثمر كالتمر حلو عفص ، ولنواه دهن عظيم المنافع في تحليل الرياح الباردة وأمراض البلغم وأوجاع المفاصل والنقرس وعرق النسا ، وذكر أن أصلها من الهند ، جاءت به بنو أميّة من أرض الهند وزرعته بأريحا[3] .

وعولجت كسور العظام بالجبائر ، وبالدلك ، ووضع المناقيع فوق العضو المصاب عظمه بالكسر ، والجبيرة : العيدان التي تجبر بها العظام ، وذلك بعد جبر المجبر لها[4] .

ومن المصطلحات الطبية المتعارفة عند الجاهليين : (البطنة) ، وهي التخمة .

---

١ الصافات ، الآية ٦٢ ، الدخان ، الآية ٤٣ ، الواقعة ، الآية ٥٢ .
٢ تاج العروس (٣٢٦/٨) ، (زقم) .
٣ تاج العروس (٣٢٦/٨) ، (زقم) .
٤ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٢٩٧) .

وتعالج بالحمية وبالمنتقعات والحقن . وقد عرف الجاهليون أثر المعـدة في الصحة العامة ، فعُدّت بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء .

والأمراض التي تعرض لها الجاهليون عديدة ، منهـا : العمى ، والعَوَر ، والتهاب العيون ، والرمد ، ومنها : ما يصيب الجلد ، مثل البرص والوضح ، والبهق ، والحكة ، والدمامل ، والبثور ، والجرب ، والقرح ، ومنها أمراض داخلية ، مثل أوجاع المعدة والكبد واليَرَقان والصداع والشقيقة ، وذات الجنب وأوجاع المفاصل والعظام ، والفالج ، والسل ، والحمى ، وأمراض أجهزة البول والحمى والبُرَداء . وأمراض القلب والرعشة والجنون والأمراض العصبية الأخرى وغير ذلك من أمراض لا تزال معروفة .

ومن الأمراض المعروفة عند الجاهليين البرص ، وهو مرض يصيب الجلد ، وهو غير الجذام ويطلقون عليه (الوضح) كذلك ، لبياض يظهر في ظاهر البدن [1] ومنه قيل لجذيمة الأبرش جذيمة الوضاح[2] . وقد كان معروفاً في الشرق الأدنى ، وأشير اليه في التوراة ، وهو نوع من (البسورياس) Psoriasis أو (اللبرا) Lepra, Leprosy[3] . ويظهر انه كان كثير الانتشار ، وممن أصيب به (الحرث ابن حلزة اليشكري)[4] ، وجماعة آخرون من الأشراف والمعروفين ذكـرهم أهل الأخبار[5] .

وقد نعت البرص ببعض النعوت، فقيل لمن به برص (المحجل)[6]، و (الوضاح)، و (الوضح) البرص . وقد كان الناس يكرهون مجالسة البُرْص خشية العدوى ، فكان الملك (عمرو بن هند) يتجنب مؤاكلة البُرص ، ويأمر بنضح الأمكنـة التي يجلسون عليها حذر العدوى[7] . وكانت قريش قد أخرجت (أبا عزة ، عمرو

---

١ تاج العروس (٤/٣٧٣) .
٢ « ويكنى به عن البرص ، ومنه قيل لجذيمة الابرش : الوضاح . وسيأتي الكلام عليه وفي الحديث : رجل بكفه وضح ، أي برص » تاج العروس (٢/٢٤٧) .
٣ قاموس الكتاب المقدس (١/٢٢٠ وما بعدها) ،
The Univer. Jewish Ency., 7, p. 434.
٤ شرح المعلقات السبع ، للزوزني « دار صادر » (ص ١٥٤) .
٥ المحبر (ص ٢٩٩ وما بعدها) .
٦ المحبر (ص ٣٠١) .
٧ شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٥٤) .

ابن عبدالله بن عمـــير بن وهيب بن حذافة) ، وهو من البُرص ، من مكة مخافة العدوى ، فكان يكون بالليل في شُعَف الجبال ، وبالنهار يستظل بالشجر [١] .

وأما الجذام ، فإنه من الأمراض المعدية ، وقد كان معروفاً بين الجاهليين ، وقد ورد النهي عن الاختلاط بالمجذومين في حديث : « فر من المجذوم فرارك من الأسد » مما يدل عـــلى شدة عدواه واختلاط المجذومين بين الناس في ذلك العهد . وذكر علماء اللغة أن الجذام علة تحدث من انتشار السوداء في البدن كله ، فيفسد مزاج الأعضاء وهيأتها ، وربمـــا انتهى الى تقطع الأعضاء وسقوطها عن تقرح [٢] .

و (البهق) ، هو مرض جلدي أيضاً ، يترك بياضاً في الموضع المصـاب من الجسد ، وهو (زرعة) في العبرانية . ويدعى Laprosy [٣] .

وقد كانت أمراض الجلد من الأمراض المتفشية بالنسبة الى تلك الأزمنة ، لقلة العناية الطبية وللفقر وعدم توفر وسائل النظافة والتنظيف بين معظم الناس . ولسوء تغذيتهم بسبب فقرهم العام .

و (السفعة) من أمراض الجلد ، وهي سواد أو حمرة يعلوها سواد أو صفرة ، تظهر في الوجه . وقد علل حدوثها بإصابة العين [٤] . والثؤلول ، بثر صغير صلب على صور شتى تصيب الجسد [٥] . وقـد مات (أبو سفيان بن الحارث بن عبـــد المطلب) من ثؤلول كان برأسه ، حلقه حلاق فقطعه فمات منه [٦] .

ومن الأمراض الخطيرة التي أشير اليها في كتب الحديث والأخبار : الحمى ، وقد كانت شديدة الانتشار في المدينة [٧] ، حتى أضعفت أجسام معظم أهل المدينة والمهاجرين . وهي علة يستحر بها الجسم . وقد أهلكت كثيراً من الناس ، ولذلك

---

١ المحبر (ص ٣٠٠ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٨/٢٢٣) ، تفسير الطبري (٣٠/٢٠٠) .
٣ Hastings, A Dictionary of Chirst and The Gospels, II, p. 24.
٤ ارشاد الساري (٨/٣٩٠) .
٥ تاج العروس (٧/٢٤٣) ، (ثئالل) .
٦ الاصابة (٤/٩٠) ، (رقم ٥٣٨) .
٧ « والحمى والحمة : علة يستحر بها الجسم من الحمم ، قيـــل سميت لما فيهـــا من الحرارة المفرطة ، ومنه الحديث : الحمى من فيح جهنم » ، تاج العروس (٨/٢٦١) (حمـــم) .

قيل : الحُمى رائد الموت ، أو بريد الموت ، وقيل : باب الموت[1] . وقد اشتهرت خيبر بنوع خاص من الحمى عرف باسمها ، فقيل : حمى خيبرية وحمى خيبر وحمى خيبري[2] . وذكر علماء اللغة أسماء للحمى تحكي صفاتها وكيفية ظهورها وتحكمها في البدن ، فقالوا : حمى الغب ، وذلك اذا أخذت المريض يوماً وتركته يوماً[3] ، وحمى الربع ، وحمى الصالب ، وهي الحمى التي يكون معها صداع ، والنافض ، والراجف التي تكون معها رعدة ونفضة ، وحمى مغبطة ومردمة ، أي دائمة عليه لا تقلع ، وتسمى الحمى المطبقة أيضاً ، والوعك الحمى ، وحمى الروح ، وحمى الدِق أن يغمى عليه في الحمى ، والورد هو يوم الحمى . ويقال للعرق الذي يتصبب من الحمى : الرُحَضاء ، ولأول ما يحس بالحمى : المسّى[4] . ويقال في السريانية للحمى (حمتو) Hemto بمعنى حرارة[5] .

وذكر أن (حمى صالب) ، أو (الصالب) حمى معها حرّ شديد وليس معها برد . وقال بعض علماء اللغة : الصالب من الحمى الحارة خلاف النافض . وقيل هي التي فيها رعدة وقشعريرة[6] . و (الحمة) في تعريف العلماء علة يستحر بها الجسم ، سميت لما فيها من الحرارة المفرطة ، وإما لما يعرض فيها من الحميم ، وهو العرق . ورد في الحديث : الحمى من فيح جهنم[7] .

وقد لاقى الرسول[8] والصحابة شدة من (حمى) المدينة ، وقد ذكر أن (أبا بكر) كان إذا أصابته الحمى — وكانت تزوره مناوبة — قال :

كل امرىء مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

---

١ تاج العروس (٨/٢٦١) ، (حمم) .

٢ « قال الشاعر الاخنس بن شهاب :
كما اعتاد محموما بخيبر صالب » تاج العروس (٣/١٦٩) .

٣ تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) .

٤ بلوغ الارب (٣/٣٣٩ وما بعدها) .

٥ غرائب اللغة (ص ١٧٩) .

٦ تاج العروس (١/٣٣٨) ، (صلب) .

٧ تاج العروس (٨/٢٦١) ، (حمم) .

٨ ارشاد الساري (٨/٣٤٩ وما بعدها) .

وكان بلال ، إذا أقلعت عنه الحمى ، يقول :

ألا ليتَ شعري هل أبيتن ليلة بـــوادٍ وحولي اذخر وجليـــل
وهـــل أردن يوماً ميـــاه مجنة وهـــلْ تبدون لي شامة وطفيـــل

وكان عامر بن فهيرة ، يقول :

قد وجدت الموت قبـــل ذوقه كـــل امرىء مجاهد بطوقـــه
كالثور يحمي جسمه بروقه[1]

الى غير ذلك مما يخبر عن شدة وقع تلك الحمى في أجساد المهاجرين ، ولما رأى الرسول ما حلّ بصحابته من هذه الحمى ومن ضجرهم من الإقامة بيثر بسببهـــا توسل الى الله أن يخفف عنهم أذاها وأن يزيل عنها هـــذا المرض و يبرأها منه[2] .

ويقسم العرب الحمى الى نوعين : حمى يشعر الانسان فيها بحرارة شديدة تصيب الجسم ، قد تجعله يتصبب عرقاً من شدة وقع الحمى على الجسم ، ولا يكون من برد ، وقد يصاب المريض بها بصداع ووجـــع شديد في الرأس ، وحمى يشعر الانسان فيها بنفضة ورعدة وقشعريرة ، يقال لهـــا (نافض) و (النافض) و (حمى نافض)[3] ، وهي حمى الرعدة ، لوجود رعـــدة وقشعريرة بها تصيب الجسم[4] . ويقول العرب لقرة الحمى ومسها في أول ،عدّها (العرواء) ، وقد أول ما تأخذ من الرعدة[5] . ويقال لهذه الحمى (الراجف) ، لأنها ذات رعدة ترجف مفاصل من هي به[6] . و (القعقاع) ، وهي حمى نافض تقعقع الأضراس[7] و (القفة)[8] .

---

١ ارشاد الساري (٣٤٧/٨) .
٢ « اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة » ارشاد الساري (٣٤٧/٨) .
٣ تاج العروس (٩٢/٥) ، (نفض) .
٤ تاج العروس (٣٥٤/٢) ، (رعد) .
٥ تاج العروس (٢٣٩/١٠) ، (عرى) .
٦ تاج العروس (١١٣/٦) ، (رجف) .
٧ تاج العروس (٤٧٧/٥) ، (قع) .
٨ تاج العروس (٢٢٥/٦) ، (قف) .

وقد كانت الحمى منتشرة في المواضع التي تكون فيها الينابيع والمستنقعات والمياه الآسنة الواقفة وما شاكل ذلك من أمكنة ، ولما كان العرب في حاجة شديدة الى الماء ، كانوا يشربون منها اضطراراً ، فأصيبوا بسبب ذلك بأنواع من الأمراض : وقد كانت وسائل مقاومة البعوض الناقل للحمى غير معروفة ، كما ان وسائل العناية بالصحة وتنظيف الجسم لم تكن متوفرة عندهم بسبب فقر أكثرهم ، لذلك صارت أجسامهم معرضة لمختلف الأمراض ، ولا سيما بين أهل المدر الذين لم تكن بيوتهم صحية ، ولا مياههم نقية ، وكانت بيوتهم ضيقة غير صحية ، فكانوا يصابون بالسل وبالأمراض الأخرى ، أكثر من الأعراب المتباعدين في السكن ، والذين لا يعرفون البعوض ، ويستنشقون الهواء النقي ، وتقيهم الشمس من شر الجراثيم .

والذبحة ، وهي داء يأخذ بالحلق ، وقد كان معروفاً بين الجاهليين ، وكانوا يعالجونها بالكي . ذكر أن الرسول كوى (أسعد بن زرارة) في حلقه من (الذبحة) ، وقيل (الشوكة)[1] . وأنه عاد (البراء بن معرور) ، وأخذته الذبحة ، فأمر من لعطه بالنار[2] :

وقد أشير الى مرض عرف بـ (خبط) في نصوص المسند ، وقد فسر أنه برد شديد في الرأس[3] .

وقد كانت الأوبئة تفتك بالناس فتكاً ، فكان الأغنياء والموسرون يفرون من الأماكن المزدحمة الى أماكن بعيدة ، ويلجأون إلى الصحارى ابتعاداً عن المصابين بها . وكانوا يرجعون أسبابها وأسباب الأمراض عموماً الى غضب الآلهة على الناس ، والى أرواح شريرة تصيب الجسم من الأكل والشرب ، والى أنواع من الهوام والحشرات . ومن أشهر أنواع هذه الأوبئة الطاعون والجدري والهيضة .

والطاعون المرض العام والوباء ، وقد أشير اليه في كتب الحديث . ويظهر انه كان منتشراً معروفاً في الحجاز وفي سائر أنحاء جزيرة العرب آنئذ[4] . وقد جعل

---

١ اللسان (٢/٤٣٨) ، (ذبح) ، الاصابة (١/٥٠) ، (رقم ١١١) .
٢ اللسان (٢/٤٣٨) ، (ذبح) .
٣ Mahram, p. 437.
٤ تاج العروس (٩/٢٦٩) ، « طاعون عمواس » في أيام عمر ، ارشاد الساري (٨/٤٨٣ وما بعدها) .

بعض العلماء الطاعون نوعاً من أنواع الوباء ، وفرّق بينهما بعض علماء اللغة ، وجعلوا الوباء المرض العام عامة ، مهما كان ، مثل انتشار الحمى والجُدَري والطاعون والنزلات والحكه والأورام . وقد ذُكرت الأوبئة في كتب الحديث[1] . و (الدبل) الطاعون[2] .

ونسب الجاهليون حدوث الطاعون الى (وخز الجن) ، فهو يقع لأن الجن تطعن الشخص وتخزه فيصاب بالطاعون . وقد أشار الى هذا الرأي (حسان بن ثابت) ، أشار اليه في أثناء حديثه عن أعاصير نزلت بـ (بصرى) وبـ (رمح) وعن (دخان نار) ، حتى أثرت في كل قصر ومنزل في ذينك المكانين ، ثم أعقب ذلك (وخز جن بأرض الروم)[3] ، أي بلاد الشأم وفيها المكانان المذكوران إذ كانت تحت حكم الروم ، كما أشار الى هذه الفكرة شاعر آخر اسمه (الغساني)[4].

ونجد في كتابات المسند إشارات الى أوبئة تكتسح البلاد فتفني عدداً كبيراً من الناس . فنجد فيها أن فلاناً يحمد آلهته لأنها منت عليه بالعافية وأنقذته من الوباء الذي تفشى في أيامه فأهلك الناس.وقد كان القدراء من الناس يهربون من الأرضين الموبوءة إلى أرضين أخرى بعيدة سالمة ليتخلصوا من الوباء . ونجد في الكتابة الموسومة بـ (CIH 343) رجلاً اسمه (يحمد) يشكر إلهه (تألب ريام)، لأنه منّ عليه بالعافية وشفاه من المرض الذي نزل به في وباء انتشر فيما بين (هوزن) (هوازن) (هوزان) و (سهرتن) (سهرت) . وقد كانت الأوبئة تكتسح المناطق الواقعة عند قواعد الجبال وفي المناطق الحارة الرطبة ، ولا سيما التهائم . وتقع (هوزن) (هوزان) (هوازن) عند مرتفعات (حراز)[5] .

وقد كانت الحروب من المصادر التي غذت العربية الجنوبية بمادة دسمة من الأوبئة . فقد كانت تأتي على عدد كبير من الناس ، فتتركهم جثثاً تتعفن على ظاهر الأرض ، كما كانت تأتي على مواطن السكن ومواضع المياه وتأتي على كل

---

١ شرح القاموس (١/١٣٠) .
٢ تاج العروس (٧/٣١٧) ، (دبل) .
٣ فأعجل القوم عن حاجاتهم شغل من وخز جن بأرض الروم منكور
البرقوقي (ص ٢١٩) .
٤ البرقوقي (ص ٢١٩) ، ديوان حسان (ص ٧٩) « هرشفلد » .
٥ Beiträge, S. 119.

ما يملكه الناس ، وتزيد في مشكلة الفقر مشكلة ، وتبعد النـــاس عن النظافة ، فتهيىء بذلك للأوبئة أمكنة جيدة ، لتلعب بها كيف تشاء . ودليل ذلك ما نجده في كتابات المسند من اشارات الى أمراض وأوبئة تعم المناطق المنكوبة بالحروب ، حيث تكتسح من الأحياء ، ما لم يتمكن السيف من اكتساحه منهم .

وذكر الأخباريون نوعاً من البثور يخرج بالبدن ، دعوه : العـدسة ، عرفوه أنه : بثرة صغيرة شبيهة بالعدسة ، تخرج بالبدن مفرقة ، كالطاعون ، فتقتـــل غالباً ، وقلما يسلم منها . وقد رمي بها أبو لهب فمات . والظاهر أن هذا المرض كان منتشراً بمكة ، فقد روي أن قريشاً كانت تتقي العدسة ، وتخاف عدواها[1].

وقد كان الجاهليـــون يعرفون عدوى بعض الأمراض ، فكانوا يتجنبونها ولا يقتربون من المريض المصاب بها ، ويطلقون عليها العدوى[2] ، فكانوا إذا أصيبوا بأوبئة ، فرّوا الى أماكن بعيدة سليمة تهرباً منها ، وحجروا على المريض ، لئلا يقرب منهم ، فينتقل المرض اليهم . وذلك لما كانت الجاهلية تعتقـــده في بعض الأمراض من أنها تعدي بطبعها ، مثل الجذام[3] .

والحصبة ، من الأمراض المعروفة عند الجاهليين[4] . وكذلك الجُدَري . وقد ذكر بعض الأخباريين أن أول جدري ظهر هو ما أصيب به أبرهة[5] . وهو قول من هذه الأقوال المعروفة عند الأخباريين ، فالجدري من الأمراض القديمة المعروفة عند الجاهليين قبل أبرهة بزمان .

وذكر ان العرب عالجت الحصبة والجدري بمَرار الشجر ، وبالحنظل والحرمل[6].

و (السل) من الأمراض المعروفة بين الجاهليين . ذكر بعض أهل الأخبار انه عرف بـ (داء الياس) ؛ لأن (الياس بن مضر) أول من مات من السل، فسمي بذلك ، وسمي بـ (ياس)[7] .

---

١ تاج العروس (٤/١٨٦) ، الاشتقاق (ص ١٤٣) .
٢ شرح القاموس (١٠/٢٣٤) .
٣ ارشاد الساري (٨/٣٧٣) .
٤ شرح القاموس (١/٢١٤) .
٥ شرح القاموس (٣/٨٩) .
٦ الاشتقاق (ص ١٠١) .
٧ الروض الانف (١/٧) ، تاج العروس (٧/٣٧٨) ، (سلل) .

ومن العلل : البرقان ، والصداع ، و (الشقيقة) ، وهو وجع يكون في شق الرأس ، و (السعال) وجع في الصدر ، والزكام ، والزحير ، والحصر وهو انقباض البطن ، والأسر وهو احتباس البول والحصى في مجرى البول ، والحكة ، والحصف ، والحمرة ، والشرى ، والحماق ، والقُوَباء ، والثؤلول ، والعُرّ وهو الجرب الأبيض ، وداء الثعلب ويصيب الشعر ، وداء الفيل ويعتري الرجلين ، والدوّار ، والهيفة ، وتسمى الفضجة ، والنملة ، وهي بثور صغار مع ورم يسير ثم تتقرح فتسعى وتتسع ، وتسمى أيضاً الذباب ، والجنون والخدر ، والفالج ، والحزاز وهي القشرة التي تصيب الرأس ، والحدبة ، والطرش ، والطلق ، والجشاء ، والباسور ، والناسور ، والبهق ، والكلف ، والمغس ، والمغص ، والاستسقاء ، والإغماء ، والاختلاج ، والبخر ، والفواق ، والجشاءة ، والقلس[1] .

وعرفت القُوَباء بأنها الحزازة ، وذكر أنه كانت بوجه أبيض بن حمال بن مرثد بن ذي لحيان المأربي السَّبَئي حزازة ، توسعت فالتقمت أنفه[2] . والقوباء هو الذي يظهر في الجسد ويخرج عليه ، يتقشر ويتسع ، يزعمون أنه يعالج بالريق . وقالوا :

يا عجباً لهذه الفليقة هل تغلبن القوباء بالريقة[3]

ودم الملوك ، دواء ينفع ويفيد في معالجة من يعضه كلب كَلِب في نظر الجاهليين . فإذا أصيب إنسان بداء الكلب ، فشفاؤه بمعالجته بدم الملوك . وقد عرفه (ابن دريد) بقوله : « والكَلَب داء يصيب الناس والإبل شبيه بالجنون. وكانت العرب في الجاهلية إذا أصاب الرجلَ الكَلَبُ ، قطروا له دم رجل من بني ماء السماء ، وهو عامر بن ثعلبة الأزدي ، فيسقى ، فكان يشفى منه . قال الشاعر : دماؤهُمُ من الكلب الشفاء »[4] .

وكانوا إذا خافوا على المرأة الحامل ، ووجدوا أن ولدها ميّت في بطنها ،

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٣٩ وما بعدها) .

٢ الاصابة (١/١٧) .

٣ تاج العروس (١/٤٤١) ، (قوب) .

٤ الاشتقاق (ص ١٤) .

استخرجوه منها . وجوّزوا قيام الرجل بذلك . وعبّروا عن ذلك بـ (السطو)[1] .

ويلعب التطبيب بالسحر والرقي والتعويذ دوراً خطيراً في حياة الجاهليين ، كما يظهر ذلك من الأخبار الواردة في كتب الحديث والأدب ، حتى عدّ السحر نوعاً من الطب[2] . وقد منع الاسلام أكثرها وحرمها ، ومع ذلك بقيت حية مستعملة بين الأعراب والجهلة من أهل القرى الذين لا تساعدهم أحوالهم المعاشية على مراجعة الأطباء . ويقوم هذا التطبيب على التأثير في المريض ، واستعمال بعض الحرز أو عظام بعض الحيوانات والسحر ، بحجة وجود علاقة بين المرض والأرواح ، وأن هذا النوع من التطبيب يطرد الروح الخبيثة التي تدخل الجسم فتصيبه بالمرض من ذلك الجسم . وهذا الرأي في المرض ، رأي شرقي قديم ، سيطر على كل الشعوب القديمة . فقد كان في رأي الأطباء ، أن المرض روح شريرة تستولي على الجسم المريض بدخولها فيه ، وان واجب الطبيب العمل بعلمه وبفنه لاخراج الروح الشريرة من الجسم[3] .

وفي جملة الوسائل التي استعملت لمكافحة المرض والتغلب على الأرواح الشريرة أو النظر ، أي إصابة الانسان بالعين من حاسد تصيب عينه إصابة مؤذية، الاستعانة بالرقي والتعاويذ . وقد كان العبرانيون يطلقون على التعاويذ لفظة (حرط)[4] ، وهي أنواع ، بعضها على هيأة قلب يعلق بسلسلة في العنق ، ويتهدل القلب الى الصدر ، فيكون من جملة وسائل الزينة ، وبعضها يربط بالعضد وفي مواضع أخرى من الجسم .

ولم يقتصر الجاهليون في اتخاذ هذه الوسائل على حماية أنفسهم فقط، بل اتخذوها لحماية ما يملكونه أيضاً من حيوان وزرع وملك ، فعلقوا العظام أو المعادن أو نعل الحيوان مثل نعل الفرس ، ورسموا العين واليد على الجدر وفوق الأبواب، لحمايتها من العيون المؤذية ومن حسد الحاسدين ، ولا يزال الناس يستعملونها لحماية أنفسهم ومقتنياتهم من الاصابة بأذى العين وبحسد الحاسدين .

---

١ تاج العروس (١٠/١٧٧) ، (سطا) .
٢ عمدة القارىء (٢١/٢٦٣ وما بعدها) شرح القاموس (١/٣٥١) .
٣ A. Jeremias, Altorientalische Geisteskultur, S. 55. ff., The Universal Jewish Ency., Vol., 7 pp. 434.
٤ Hastings Dict., Vol. I, p.88.

والجنون وسائر الأمراض العصبية معروفة بين الجاهليين أيضاً ، وهم يعدونها من الأمراض التي تحدث للإنسان بسبب دخول الجنون والشياطين في جسد الانسان فتتملكه ، ولا يمكن شفاء من أصابه مس من الجنون أو لوثة في العقـــل ، إلا بإخراج الأرواح المسيطرة على المريض من جسده. ولذلك كان علاج هذه الأمراض من واجب الكهان والسحرة في الغالب ، بسبب كونها أمراضاً لم تقع من آفة في الجسد ، وإنما وقعت من عارض خارجي ، هو دخـول الأرواح الى الأجساد ، ومهمة اخراج تلك الأرواح من وظائف المذكورين .

وقد عالج العرب الجنون والخبل بشرب دماء من دماء الملوك . ومن أقوالهم: دماء الملوك شفاء من عضة الكلب الكَلِب والجنون والخبل . ومعالجة داء الكلب، بلعق دم الملوك أو الأشراف من الأدوية المشهورة عند الجاهليين في مداواة هـــذا المرض . ونسب الى (الخليل بن أحمد) « أنه قال : دواء عضة الكَلْب الكَلِب الذراريح والعدس والشراب العتيق . وقد ذكر كيف صَنعته وكم يُشرب منـــه وكيف يتعالج به »[1] . وذكر أهل الأخبار أن (الأسود بن أوس بن الحُمرة) أتى (النجاشي) فعلّمه دواء الكَلَب ، وقد ورث ولده هذا الدواء . ومن ولده (المحل) . وقد داوى (عتيبة بن مِرداس) فأخرج منه مثل جراء الكلب[2] . و (الأسود بن أوس) ، هو من (بني الحمرة) ، وهم من (ثعلبـــة بن يربوع) . وقـــد ذكر (ابن دريد) ، أن (الأسود بن أوس) تعـــلم من (النجاشي) ، دواء الكلب ، وأن نسله يداوون به العرب الى اليوم ، أي الى يومه ، وقد صار منهم اليوم الى (بني المحل) ، فهو فيهم أيضاً[3] .

وقد ظن الجاهليون ان النوم يؤدي الى امتداد السم في جسد اللديغ ، فكانوا يعلقون الجلاجل والحلى على اللديغ ثم تحرك لئلا ينـــام فيدب السم في جسده[4] . ويقولون انه اذا علق عليه أفاق ، فيلقون عليـــه الأسورة والرُعاث ، ويتركونها عليه سبعة أيام ويمنع من النوم . قال النابغة :

---

١ عيون الاخبار (٢/٧٩) .

٢ عيون الاخبار (٢/٨٠) .

٣ الاشتقاق (١٣٨) .

٤ المعاني الكبير (٢/١٠٠٨) .

يسهد في وقت العشاء سليمها لحلى النساء في يديه قعاقع[1]

وفي جملة ما داووا به الخدر الذي يصيب الرجل ، انهم كانوا يذكرون أحب الناس الى الشخص ، فيذهب الخدر عنه[2] .

وزعموا انه اذا ظهرت بشفة الغلام بثور ، يأخذ منخلاً على رأسه ويمر بين بيوت الحي ، وينادي : الحلأ الحلأ ، فيلقى في منخله من ها هنا ثمرة ، ومن ها هنا كسرة ، ومن ثم بضعة لحم ، فإذا امتلأ ، نثره بين الكلاب ، فيذهب عنه البثر ، وذلك البثر يسمى : الحلأ[3] .

وإذا أراد أحدهم دخول قرية ، فخاف وباءها ، أو جنها ، فله سبيل سهل يحميه ويقيه ، هو أن يقف على باب القرية والموضع الذي يريد دخوله ، ثم ينهق نهيق الحمار ، ثم يعلق عليه كعب أرنب ، فيدخل عندئذ الموضع دون خوف . فقد فعل ما يتقي به الأذى والسوء . ويسمون ذلك التعشير . قال عروة بن الورد:

لعمري لئن عشرت من خشية الردى نهاق الحمير إنني لجزوع[4]

واذا أردت المرأة المقلاة أن يعيش ولدها ، ففي إمكانها ذلك اذا تخطت القتيل الشريف سبع مرّات ، وعندئذ يعيش ولدها . وفي ذلك يقول بشر بن أبي خازم :

تظل مقاليت النساء يطأنه يقلن ألا يُلقى على المرء مئزر[5]

والجاهليون ، مثل غيرهم من شعوب ذلك الزمن ، وفي جملتهم العبرانيون ، كانوا يرون أن الأمراض هي غضب يسلطه الآلهة على الانسان لتنتقم منه ، لسبب ما ، مثل عدم قيام المريض بواجباته تجاهها ، ولهذا كانوا يسرعون بتقديم النذور والقرابين اليها ترضية لها . ويرد المرض اليهم ، بتسلط الهوام وبعض الديدان والأرواح الشريرة على الانسان ، فتصيبه بالمرض . ولهذا كان الطب من واجب

---

١ نهاية الارب (٣/١٢٤) .
٢ نهاية الارب (٣/١٢٥) .
٣ نهاية الارب (٣/١٢٥) .
٤ نهاية الارب (٣/١٢٥) ، بلوغ الارب (٢/٣١٥) .
٥ نهاية الارب (٣/١٢٤) .

الكهان ورجال الدين بالدرجة الأولى ، هم يداوون المريض ويعطونـــه الوصفات التي يعتقدون أن فيها الشفاء للمريض ، كما كانوا يعتقدون بالنظر ، أي بإصابة الإنسان ، فيلحقه المرض[1] .

وقد مارس التطبيب بين العرب المبشرون ، وذلك بعد الميلاد بالطبع، وأكثرهم من الأعاجم ، وكانوا قد درسوا الطب وتعلموه على الطريقة اليونانية في الغالب ، فلما أرسلوا الى بلاد العرب أو جاءوا هم أنفسهم للتبشير ، مارسوا تطبيب المرضى ، وقد شفوا جماعة من سادات القبائل ، وأثر شفاؤهم هذا عليهم فاعتنقوا النصرانية. واشتهر (العباديون) بالتطبيب كذلك[2] ، ولعل ذلك بعامل تنصرهم ، فقد كان أكثر رجال الدين النصارى يدرسون مختلف العلوم ، وفي جملـــة ذلك الطب ، ومنهم من ترجم كتب العلوم اليونانية إلى السريانية ، فدرس العباديون هذه العلوم . وكان طبهم مبنياً على العلوم والتجارب السابقة ، ومتقدماً جداً بالنسبة إلى طب أهل البادية ، لذلك نجح المبشرون والنصارى في معالجة أمراض الأعراب ، ولا سيما سادتهم ، الذين صاروا يقصدونهم لنيل الشفاء على أيديهم . ومن ثم اشتهر النصارى بالطب ، ولما جاء الاسلام ، كان أكثر الأطباء من النصارى ، وعلى أيديهم تخرج الأطباء المسلمون .

وقد استخـدم الجاهليون النساء لتمريض الجرحى في غزوهم وغاراتهم ، وقد فعل المسلمون فعلهم . قالت (بنت معوذ بن عفراء) : « كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نسقي القوم ونخدمهم ونردّ القتلى والجرحى الى المدينة »[3]. وقد كان في مسجد الرسول موضع يعالج فيه المرضى والجرحى ، وكان الرسول والصحابة يتفقدون المرضى النازلين به[4] .

وليس في الموارد المتوفرة لدينا ما يدل على إقدام الأطباء الجاهليين على التشريح ، للاستفادة منه في زيادة علمهم بالطب . وقـد كانت شعوب الشرق الأدنى تنفر من تشريح الإنسان ، وتعدّه مثلة واهانة للمتوفى ، وعملاً مخالفاً لأحكام الدين ،

---

١ Hastings. Dict. of the Bible, p. 597. ff.

٢ الفاخر (ص ٥٨) .

٣ ارشاد الساري (٨/٣٦١) .

٤ كتاب الجهاد .

ولذلك نهت عنه[1] . والجاهليون لا يختلفون من هذه الناحية عن غيرهم إن لم يزيدوا عليهم في هذه الأمور التي يعدّونها حرمة وكرامة للإنسان . وتشريح الميت وتقطيع بعض أجزاء جسمه ، اعتداء على حرمة الميت ، واهانة له ولأهله الأحياء، ولهذا لا نطمع في الحصول على موارد قد تفيد بوجود خبرة علمية عند الأطباء الجاهليين ناتجة من تجاربهم وبحوثهم التي حصلوا عليها من التشريح .

ولم يرد الينا أي شيء مفيـــد في الكتابات الجاهلية عن الطب والأطباء ، وإن أملنا الوحيد في الحصول عـــلى معارف عن الطب ، متوقف على المستقبل يوم يقوم علماء الآثار بالتنقيب تنقيباً علمياً عميقاً في باطن الأطلال الأثريـــة ، للكشف عن تأريخ الماضين . وعندئذ يكون مـــن الممكن العثور على نصوص قد تكشف النقـــاب عن الطب الجاهلي وعن العلوم الأخرى وعن مختلف نواحي الثقافة عند الجاهليين .

ويقال للمرض (مرضم) أي مرض في الكتابات الجاهليـة[2] . وتؤدي لفظة (حلصم) (حلظم) (حلظ) معنى مرض ووباء[3] . ويتبين من بعض الكتابات ان أوبئة شديدة وأمراضاً مهلكة كانت تقع في بعض الأحيان ، فتفتك بالناس . وقد كانوا يتجنبونها بالتضرع الى الآلهة للرحمة بهم وتخليصهم من الضر ، كما كانوا يتركون المدن والأماكن المزدحمة إلى محلات بعيدة مكشوفة غير موبوءة حتى ينكشف الوباء . وفي جملة هذه الأوبئة الطاعون .

ويعبر عن المرض في المسند بلفظة أخرى هي (شين) ، وهي في معنى (شعين) Sha'en في الأثيوبية و (سيعون) Se'on في العبرانية و (شينو) Shenu في البابلية[4] ، وذلك كما في هذا النص السبئي : « تشين شين ارجلهو »[5] ، أي

---

١ Hastings, Dict., p. 598.

٢ Rhodokanakis, Katab. Texte, II, S. 33, Jamme, Sabaen Inscriptions, p. 441.

٣ خليل يحيى نامي ، نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرقها ، (ص ٣٦) ، السطر السادس من النص رقم ٢٢ .
Rhodokanakis, Kata. Texte, II, S. 33, CIH, 407, Mardtmann und mittwoch, alt. Inscri., S. 47.

٤ Repe. Epi. Semi., Tome VII, Prim. Livr., p. 30. f. Num. 3991.

٥ المصدر نفسه ، الفقرة : ٧ .

المرض الذي مرض أرجله ، و (تشين) بمعنى المرض . وكما في هذه الجملة : « بن هوت تشين »[1] ، أي « في هـذا المرض » و « من هـذا المرض » . وتعني (شين) أذى ومكروه ومعنى سوء كذلك ، وهي في عربيتنـا العراقية ضد (الزين) أي الحسن ، فنقول : زين وشين ، أي حسن وقبيح ، أو جيـد ومكروه .

ووردت لفظة (عوس) بمعنى وباء أو طاعون . وأما (خوم) ، فتؤدي معنى (وخم) و (خامة) ، ويراد بها انتشار الأمراض والأوبئة ، أي وباء . جـاء في بعض النصوص (عـوس ذكون بأرضن) ، أي (الأوبئة التي انتشرت بالأرضين)[2] . وورد (خوم وعوس وموت كون بأرضن)[3] ، أي (الوخامة) (الوخم) والأوبئة والوَفَيات التي تفشت في الأرض . ورد « كن ضلم وعوسم باشعبن وهكرن » ، أي « وكانت أو وتفشت أمراض وأوبئة بالقبائل والمدن »[4]. وورد « خوم ذكين بكل ارضن » ، أي « الوخامة (أوبئة) تفشت في كـل أرض »[5] . ويفهم من هذه النصوص أن العربية الجنوبية ، كانت معرضة لأوبئة عامة ، تأتي فتكتسح البلاد اكتساحاً ، تميت الأعراب ، أبناء القبائل ، كما تميت أهل المدن، فتشمل مناطق واسعة من البلاد . وقد كانت تظهر خاصة بعد الحروب التي كانت تفني القرى والمدن ، وتدمر مواضع المياه ، وتترك الجثث ملقاة على سطح الأرض حتى تتن وتجيف ، فتتفشى منهـا الأمراض ، وتظهر الأوبئة ، وتتسرب الى مواضع نائية لتضيف الى خسائر الحرب خسائر أخرى فادحـة في الأرواح .

وقـد وردت في نصوص ثموديـة اشارات إلى أمراض كانت معروفة في ذلك الوقت[6] .

---

١ المصدر نفسه ، الفقرة : ١٢ .

٢ خليل يحيى نامي ، نقوش عربية جنوبية ، مجلة كلية الآداب، القاهرة ١٩٣٧، (ص ١ ، ١٣ قسم ٢ ، ١٦) ، (١٩٥٤) (ص ٢١ وما بعدها) .
CIH 81, 4, Jamme 645, Ma. Mb. 275.

٣ Ja 645, 13-14.

٤ CIH 541, 72-73.

٥ Rep. Epig., 4138, 4-5.

٦ Grimme, S. 40.

وفي العربية ألفاظ عديدة تعبر عن الأوجاع والآلام والأمراض والأسقام التي تصيب الانسان ، وتستعمل للتعبير عن منزلة ودرجة من درجات الأمراض التي تصيبه ، من نفسية وغير نفسية . وتحديد مدلولاتها وحدودها ، يفيدنا كثيراً في تكوين رأي في مدى تأثر الجاهليين بالنواحي الطبية والنفسية في ذلك العهد .

وقد كان الختان شائعاً بين العرب ، ويستعمل (الموسى) للختان ، ولوقف الدم تستعمل أدوية خاصة من مراهم ومواد ، كما يستعمل الضماد أيضاً . ولم يكن الختان من أعمال الطبيب ، انما يقوم به الختّان ، والحلاقون والحجّامون .

وقد عرف الجاهليون طريقة تغطية بعض العيوب أو الاصابات التي تلحق بأعضاء الجسم ، بالاستعانة بالوسائل الصناعية ، فشدوا الأسنان وقووها بالذهب ، وذلك بصنع أسلاك منه تربط الأسنان ، أو بوضع لوح منه في محل الأسنان الساقطة [1] . واتخذوا أنوفاً من ذهب ، لتغطية الأنف المقطوع ، كالذي روي عن عرفجة بن أسعد من انه اتخذ أنفاً من ذهب ، وكان قد أصيب أنفه (يوم الطلاب) في الجاهلية [2] .

وتخصص نفر من الجاهليين بمعالجة الحيوان ، وهم البياطرة ، يعالجون أمراضها فيصفون الأدوية ، يقال للواحد منهم البطير والبيطر والبيطار ، وقد أشير اليهم في أشعار الجاهليين [3] . ويعالجون الجروح التي تصيبها . وفي جملة ما كانوا يعالجون به الكيّ . والمعالجة باستعمال القطران ، وذلك بطلي الحيوان المريض به [4] . ومن هذه الأمراض الجرب . ويقال للحيوان المطلي بالقطران (المقطور) أما اذا كان أنثى ، مثل ناقة ، فيقال : « مقطورة » [5] . ويقال إن الجرب ، هو العُرّ . والعُرّ بثر في الإبل ، ويعالج بالقطران . قال علقمة الفحل :

قد أدبر العُر عنها وهي شاملها من ناصع القطران الصرف تدسيم [6]

---

١ المعارف (ص ٨٢) .
٢ العقد الفريد (٦/٣٥٤) ، الطبقات ، لابن سعد (٧/٤٥) .
٣ تاج العروس (٣/٥١) ، (بطر) .
٤ تاج العروس (٣/٥٠٠) ، (قطر) .
٥ شرح ديوان لبيد (ص ١٢٢) .
٦ الفاخر (ص ٦٦) .

وكان بعضهم إذا وقع العُرّ في إبلهم ، « اعترضوا بعيراً صحيحاً من تلك الإبل ، فكووا مشفره وعضده وفخذه ، يرون أنهم اذا فعلوا ذلك ذهب العُرّ عن إبلهم » . ويقال إنهم كانوا يفعلون ذلك ، ويقولون : تؤمن معه العدوى . قال النابغة :

وكلفني ذنب امرىء وتركته كذي العُرّ يكوى غيره وهو راتع[1]

والهناء : ضرب من القطران تطلى به الإبل ، لمعالجة الجرب وغير ذلك . ويقال للجرب عند أول ظهوره : النقب[2] . ويقال للبعير المهنوء بالقطران (المشوف)[3] .

وعالجوا أمراض الجلد التي تصاب بها الإبل بطليها بالنفط . ويقال لذلك : (الكحيل)[4] .

ومن الأمراض التي تصيب (الإبل) مرض (الدبرة) ، يظهر في سنام الإبل فلا يزال يأكل سنامه حتى يُحَبّ ، أي يقطع ، وإلا نزل على السناسن فيصيبها ويموت الحيوان . واذا كان السنام مكشوفاً ، فإن الطيور تنقره فيتأذى الحيوان ويتألم وقد يموت ، ولعل ذلك هو الذي حمل الجاهليين على التشاؤم من (الأخيل) وبعض الطيور الأخرى التي كانت تحط على ظهور الإبل فتنقر سنامها . ويقال للجمل الذي يقطع سنامه (الأجبّ)[5] .

ومن الأمراض التي كانت تصيب الإبل (السوّاف) ، وقد عرف بأنه داء يصيب الإبل فتهلك[6] . و (الجارود) ، وهو مرض معد ، إذا فشا أهلك الإبل . وقد ظهر في (بكر بن وائل) ، فأهلك إبلها . وهم يعلمون انه من

---

١ نهاية الارب (٣/١٢٣) ، اللسان (٦/٢٣٠ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١/٣٩٨ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٦) .
٢ البيان (١/١٠٧) .
٣ شرح ديوان لبيد (ص ١١٥) .
٤ تاج العروس (١/٣٣٢) ، (صبب) .
٥ شرح ديوان لبيد (ص ١) .
٦ الاشتقاق (٢/٣١١) .

الأمراض التي تعدي ، وتنتقل بالعدوى[1] . وذكـر أهل الأخبار ان (الجارود العبدي) ، وهو رجل من الصحابة من عبد القيس ، إنما سمي (جارودا) لأنه فرّ بإبله إلى أخواله من (بني شيبان) وبإبلـه داء ، ففشا ذلك الداء في إبـل أخواله فأهلكها ، وفيه يقول الشاعر :

لقد جرّد الجارودُ بكر بن وائل

ولذلك سمي المشؤوم جارودا[2] .

ومن أمراض الدواب مرض يقال له (العقل) ، يصيب رجل الدابـة ، إذا مشت ظلعت ، وأكثر ما يعتري في الشاء[3] . ومرض (الحلمـة) ، دودة تقع في جلد الشاة الأعـلى وجلدها الأسفل ، وقيل : دودة تقع في الجلد فتأكله ، فإذا دبغ وهى موضع الأكل وبقي رقيقاً . وقيل : القراد أول ما يكون صغيراً قمقامة ، ثم يصير حمنانة ، ثم يصير قراداً ، ثم حلمة[4] .

وكانوا ينقون رحم الفرس أو الناقة من النطف ، ويخرجون الولـد من بطن الفرس أو الناقة ويعبر عن ذلك بلفظة (مسى)[5] .

ويذهب بعض الباحثين الى أن لفظة (بيطار) ، هي من أصل يوناني ، هو Ippiyatros[6] .

ومن الذين عرفوا بـين الجاهليين بمعرفتهم بالبيطرة (العاص بن وائل) ، وكان يعالج الخيل والإبل[7] . وقد برع البياطرة بمعرفتهم خاصة بالخيل والإبل ، لأنها أثمن أموال العرب . وعناية العرب بالخيل ، هي التي حملت الإسلاميين على وضع مؤلفات خاصة فيهـا . ومن جملة من ألف في الخيـل (أبو عبيدة)

---

١ الاشتقاق (ص ١٩٨) .
٢ اللسان (١١٦/٣) ، (صادر) ، (جرد) .
٣ اللسان (٤٦٣/١١) ، تاج العروس (٢٨/٨) ، (عقل) .
٤ تاج العروس (٢٥٦/٨) ، (حلم) .
٥ تاج العروس (٣٤٢/١٠) ، (مسى) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢٥٦) .
٧ المعارف (٥٧٦) ، (اخراج ثروت عكاشة) .

و (أبو زيد الأنصاري) و (الأصمعي) وآخرون[1] . وللأصمعي كتاب في الإبل[2] ، ولأبي عبيدة كتاب في الابل كذلك[3] . ولأبي زيد الأنصاري كتاب في هـذا الموضوع أيضاً . ولأحمد بن حاتم مثله ، وقد ألف غيرهم في الابل وفي حيوانات أخرى[4] . وقد طبعت بعض هذه الكتب .

---

١ الفهرست (ص ٨٥ وما بعدها) .
٢ الفهرست (ص ٨٨) .
٣ الفهرست (ص ٨٦) .
٤ الفهرست (ص ٨٧ وما بعدها) .

الفصل الثلاثون بعد المئة

الهندسة والنوء

ولا بد أن يكون للجاهليين علم بطرق السيطرة على المياه ، وبطرق استنباطها والاستفادة منها . ففي مواضع من اليمن والحجاز والعربية الجنوبية آثار سدود مثل سد مأرب ، لا يمكن أن تكون قد أنشئت بغير علم ودراية وخبرة . ففيها فن في كيفية جمع المياه في خزاناتها ، وفن في كيفية تصريفها وتوزيعها وقت الحاجة بقدر ، وفيها أبواب تتحكم في سير المـــاء . كذلك كان لهم علم في حفر الآبار وإنشاء الصهاريج لجر الميـــاه الى الأماكن التي تحتاج اليها . وقد اشتهرت ثقيف بعلمها بطرق استنباط المياه . واشتهرت قبائل أخرى بهذا العلم أيضاً ، وذكر أن بعضها كانت تتفرس وتحدس بوجود الماء من نظرها الى لون التربة ومن شمهـــا ومن علامات أخرى عرفوها وأدركوها بالتجربة .

ونجد اليوم بقايا سدود استخدمت لحبس (السيول) للاستفادة منها في الشرب وفي الزراعة . وتقع أكثر هذه السدود في الأودية التي تكون مسايل تسيل منهـــا الأمطار المتساقطة في موسمي المطر في العربية الجنوبية . فتعمل الأحباس بين طرفي الوادي لتحبس الماء ، فلا يندفع إلى المواضع المنخفضة فيذهب عبثـــاً ، وبذلك يرتفع مستواه ، فيسقي الزرع على جانبيه ، وتعمل سواقي لتسيل منها الميـاه إلى الأماكن المنخفضة التي تقع تحت هذه الأحباس وهكذا تسقى بقية المزارع. وتختلف هذه الأحباس من حيث جودة العمل والاتقان ، فبعضها أحباس بدائية بسيطة ،

عملت من الأتربة ، أو من الأحجار والصخور ، على شكل (سكر) ، يمنع الماء من المرور ، وبعضها عملت بصورة فنية متقنة من الحجر الموضوع بعضه فوق بعض ، مع استخدام مواد ماسكة لشد الحجر بعضه إلى بعض ، وقد يطلى السد بمادة تمنع الماء من اللعب به . وتعمل به منافذ ذات أبواب ، تسد وتفتح حسب الحاجة للتحكم بالماء . وتلاحظ بقايا هذه السدود اليوم في وادي مبلقه ، وفي وادي بيحان ، وفي وادي حريب ، وفي أودية أخرى عديدة .

أما أهل المواضع المرتفعة مثل الهضاب والجبال ، فقد عمدوا الى عمل حواجز وحوائط منخفضة ، لمنع المطر من الانحدار ، إذ تحصره هذه الحواجز ، فيسيل الى المزارع ليسقيها ، وقد تعمل له مجارٍ ليسيل الزائد منه والذي لا يحتاج اليه الى أسفل ، فلا يغرق الزرع . وقد يوجه الى كهوف وآبار محفورة وكهاريس ، لتمتلىء بالماء ، للاستفادة منه في مواسم انحباس الأمطار .

وتوجد في المعابد فوهات تدفع مياه الأمطار حين سقوطها الى مجاري بنيت تحت الأرض تؤدي الى صهاريج تخزن فيها مياه الأمطار . وقد عثرت بعثة (وندل فيلبس) الأميركية على مواضع خزن الماء في معبد مأرب المعروف في الكتابات بمعبد (اوم) ، (اوام) المخصص لعبادة (المقه) إلَه سبأ الرئيس . ونجد مثل هذه المخازن في المعابد الأخرى أيضاً . وخزن الماء على هذه الطريقة،أسلوب متبع في فلسطين وفي المواضع الأخرى ذات الأرض الصلدة الحجرية ، حيث تنقر الأرض وتعمل بها كهوف كبيرة تخزن فيها المياه [1] .

وقد تخصص قوم وتفرسوا بمعرفة مواطن المياه واستنباطها وساعدوا في حفر الآبار وفي حفر القنى وإنشائها . وفي كتب اللغة ألفاظ أطلقت على الأدلاء الخبراء أصحاب العلم بمواضع وجود الماء في باطن الأرض ، مثل جوّاب الفلاة ، وذلك لأنه كان لا يحفر صخرة إلا أماهها ، والقناقن ، وهو الدليل الهادي البصير بالماء تحت الأرض في حفر القنى ، والعيّاف ، وقد تحدثت عنها وتطلق أيضاً على الدليل الذي يعرف موضع الماء من الأرض [2] .

والماء في الأرضين الجافة القاحلة ، نعمة كبرى وحياة لأهلها ، فكانوا يفرحون

---

١ Archaeological Discoveries in South Arabia. p. 226.

٢ المخصص (١٢/٣٥ وما بعدها) .

ويشكرون آلهتهم ويتقربون اليها بالذبائح والنذور عند عثورهم على الماء في الأرضين التي يحفرون فيها الآبار . ولهذا قدسوا الآبار وأسبغوا عليها القدسية ، وتقربوا لها بالنذور والهدايا،وعدُّوا مياهها شافية نافعة مقدسة . والبئر ثروة تدر على أصحابها المال . وقد يبارك الكهان والرؤساء تلك الآبار ، لتنعم على أصحابها بالماء الغزير. وقد كان (المحققون) (محتقيم) ، وهم الرؤساء عنـــد العبرانيين ، يحضرون الاحتفالات ، ويشكرون إلـه اسرائيل عند ظهور الماء في الآبار،على نحو ما يفعله العرب في مثل هذه الأحوال[1] .

وقد لجأ الجاهليون الى التحايل في استصلاح الماء الأجاج أو الكدر ، للاستفادة منه في الشرب ، فذكر إذا كانت بهم حاجة ماسة الى الماء ، ولم يجدوا إلا ماء البحر أو المـــاء الأجاج الملح ، وضعوه في قدر ، ووضعوا فوق القدر قصبات وعليها صوف منفوش ، ثم يوقـــد تحت القدر ، حتى يرتفع البخار ، فيدخل مسامات الصوف ، ويمتلىء به . فإذا كثر ، عصر في إناء ، ولا يزال على هذا الفعل حتى تتجمع كمية من الماء العذب ، وتترسب الأمـلاح في القدر . وذكر أيضاً أنهم كانوا يحفرون في الشاطىء حفرة واسعة ، ليترشح اليها ماء البحر ، ثم الى جانبها وقريب منها حفرة أخرى يترشح اليها الماء من الثانية ، ثم تحفر حفرة ثالثة ، وهكذا حتى يعذب الماء .

أما الماء الكدر ، فقـــد كانوا يتخلصون من كدرته بإلقاء مواد فيها لتعلق الكدرة بها ، فإذا رسبت ، رسبت الكدرة معها ؛ وبذلك يتنقى الماء . وفي جملة المواد التي استعملوها الجمر الملتهب ، يلقى به في الماء ، فـإذا انطفأ وتحول الى فحم ، أخذ معه ما يجده من الكدرة ، فيصفو بذلك الماء ، واستعملوا نوعاً من الطين وسويق الحنطة[2] .

وقد عرفت هذه الفراسة ، فراسة استنباط الماء من الأرض ، بالأمارات الدالة على وجوده ، على نحو ما ذكرت من شم التربة ، أو برائحة بعض النباتات فيه، أو بمراقبة حركات الحيوان ؛ ويقال لها : الريافة[3] .

---

١ Ency. Bibli., vol., I, p. 515.

٢ بلوغ الارب (٣٩٦/١) .

٣ بلوغ الارب (٣٤٣/٣) .

وتوجد اليوم آبار قديمة في مواضع مختلفة من جزيرة العرب عميقة جداً ، ولا زال الناس يستقون منها الماء . وهي عادية ، أي قديمة تعود إلى ما قبل الاسلام. وكانت عليها مستوطنات تعيش على ماء هذه الآبار . ولهذا فلا غرابة إذا ما وجدنا القدماء يقدسون الآبار ويعتبرونها من مصادر الحياة بالنسبة لهم ، لأنها تمدهم وتمد إبلهم وكل ماشيتهم بعرق الحيـــاة وروحها . ويدل عمقهـــا على مقدار ما بذله الحفارون من جهد حتى توصلوا إلى تلك الأعماق بوسائلهـــم البدائية التي كانت متوفرة عندهم في ذلك العهد .

والآبار هي من مصادر الحضارة والتحضر في جزيرة العرب ، فلولاها ولولا موارد الماء الأخرى ، لما ظهرت المستوطنات ، ولما ظهر زرع ، ولما عاش ضرع . ولهذا صارت البوادي أرضين قفراً لا يسكنها ساكن إلا إذا استنبـط ماء فيها ، أو سقط غيث عليها . ولقيمة الماء في حياة جزيرة العرب ، نجد نصوص المسند تذكرها وتشير إلى الأرضين التي تسقى منها ، وتعتبرها من مصادر النعمة والثراء.

ولأهمية الماء ، كانوا يتقربون إلى آلهتهم بالقرابين وبالأدعية والتوسلات ، لأن تمنحهم المطر ، وتسقي أرضهم على أحسن وجه ، وقد كان من واجب رجال الدين الإستسقاء ، وذلك بأن يتوسلوا إلى آلهتهم بأن تمنّ عـــلى عبيدها بالمطر ، يقومون به بإجراء طقوس دينية خاصة ، وربما استعانوا بالسحر في هذا الاستسقاء. وقد كانت الشعوب الأخرى تستسقي كذلك ، وتستعين بالسحر في إرضاء الآلهة لكي تنزل الغيث على المحتاجين اليه . وقد عرف الاستسقاء بمكة وعند سائر العرب، كما تحدثت عن ذلك في مواضع من هذا الكتاب . والأغلب أن الكهنة كانوا هم الذين يقومون بالاستسقاء ، لأنه من صميم أعمالهم وواجباتهم[1] .

وقد سبق أن تحدثت عن شق الطرق في الهضاب وفي جبال اليمن ، لايصال القرى والمدن بعضها ببعض . وقد أبدع المهندسون في ذلك الوقت في شق الطرق في المناطق الجبلية ، ويسمونها (مسبا)[2] ، ولا تزال آثار بعض منها موجودة حتى اليوم . ووردت لفظة (مذهب) في نصوص المسند ، بمعنى الممر والطريق والمعبر[3] .

---

١ Rhodokanakis, Katab. Texte., II, S. 53, amm. 2, 5, R. Smith, Religion der Semiten, S. 59, Goldziher, im Festschrift für Th. Nöldeke, S. 309.

٢ راجع النص رقم ٤٦٢٤ المنشور في الصفحة ٢٧٦ من كتاب :
REP. EPIG., VII, II.

٣ Jamme 618, 16, Mahram, p. 119.

وقد قام المهندسون بإصلاح الطرق ، ونجد لفظة (درك) Derek في العبرانية بمعنى (الطريق)[1] . والدرك في العربية أسفل كل شيء ، ومراتب الهبوط[2] ، ولعلها في الأصل الطريق المنحدر إلى أسفل . وأما السبيل ، فالطريق . وتقابل هذه اللفظة لفظة (شبيل) في العبرانية[3] . و (السراط) (الصراط) الطريق الممهد المعبد ، واللفظة من الألفاظ المعربة عن اللاتينية ، من أصل Strata ، بمعنى طريق مبلط ، وطريق كبير واضح[4] .

النوء والتوقيت :

ومعارفنا بالأنواء والتوقيت عند الجاهليين قليلة ضحلة . وهي مبعثرة في كتب اللغة والأدب وفروع المعرفة الأخرى ، مثل كتب الجغرافيا والأنواء . ولم يصل الينا شيء منها في نصوص المسند . غير ان ما نجده في المؤلفات المذكورة على قلّته وضآلته يدل على ان الجاهليين كانوا أصحاب عناية ودراية بالأنواء والتوقيت وانهم كانوا على علم أو شيء من العلم بالأنواء عند غيرهم ، مثل أهل العراق أو أهل بلاد الشأم . ولعلهم كانوا على اتصال مباشر أو بالواسطة بعلم اليونان واللاتين بالأنواء .

وعدم وصول شيء – في كتابات المسند – من علم النجوم والأنواء وما يتعلق بعلم الفلك ، لا يمكن أن يكون دليلاً بالطبع على عدم وجود علم لأهل العربية الجنوبية الجاهليين بالفلك ، ولا يعقل ألاّ يكون لهم علم به . فقد كان العرب الجنوبيون أصحاب زراعة وتجارة ، وكانوا يركبون البحر . وركوب البحر يحتاج الى علم بالنجوم وبتقلبات الجوّ كما كانت ديانتهم تقوم على أساس تقديس النجوم. ولهذه الملاحظات لا بد أن يكون لأهل اليمن وغيرهم من أهل العربية الجنوبية علم بالأنواء . وقد يعثر في يوم ما على نصوص مدوّنة بلهجاتهم فيها شيء مما من أمر هذا العلم .

١ Hastings, extra volume, p. 368.
٢ تاج العروس (٧/١٢٧) ، (درك) .
٣ Hastings, extra volume, p. 368.
٤ غرائب اللغة (٢٧٨) .

والنوء عند الجاهليين هو النجم إذا مال للغروب ، أو هو سقوط النجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه ، وهو نجم آخر يقابله من ساعته في المشرق . وانما سُمي نوءاً لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع ، وذلك الطلوع هو النوء . وبعضهم يجعل النوء هو السقوط . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحرّ والبرد الى الساقط منها ، فتقول : مطرنا بنوء كذا [1] . قال الشاعر :

ينعى امرءاً لا تغب الحيّ جفنته إذا الكواكب أخطا نوءها المطر[2]

وذكر أن من طلوع كل نجم الى طلوع رقيبه ، وهو النجم الآخر الذي يليه ثلاثة عشر يوماً ، وهكذا كل نجم منها الى انقضاء السنة ، ما خلا الجبهة ، فإن لها أربعة عشر يوماً ، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة . وذلك لتكمل السنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . وذكر بعض العلماء أن العرب لا تستيء بالنجوم كلها ، إنما يذكر في الأنواء بعضها . وقال (ابن الأعرابي) : « لا يكون نوء حتى يكون مطر معه ، وإلا فلا نوء »[3] .

وقد زعموا ان لكل نوء أثر في هذا الكون وفي الانسان . فإذا حدث شيء ووقع أمر نسبوه إلى نوئه . وفي جملة ما نسبوا أثره إلى الأنواء : حدوث المطر ، فإذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى أثر النجم الطالع في ذلك الوقت . فيقولون مطرنا بنوء كذا . وقد ذهبوا إلى أن الأنواء (٢٨) نوءاً أو نجماً اعتقدوا انها علة الأمطار والرياح والحر والبرد[4] . وقد ذكروا الأنواء الممطرة ومواسم المطر[5] . ونظراً إلى أن السنة أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنواء ، لكل نوء ثلاثة عشر يوماً ، إلا نوء الجبهة فإنه أربعة عشر يوماً ، فيكون مجموع أيام السنة (٣٦٥) يوماً ، وهو المقدار الذي تقطع الشمس فيه بروج الفلك الاثني عشر[6] .

ونظراً لأهمية المطر في حياة جزيرة العرب ، اهتموا بمراقبة مظاهر الأنواء

---

١ تاج العروس (١/٤٧٢ وما بعدها) ، المخصص (٩/١٣ وما بعدها) ، العمدة (٢/٢٥٣) .
٢ الخزانة (١/٩٣) ، (بولاق) .
٣ تاج العروس (١/٤٧٣) « الكويت » ، العمدة (٢/٢٥٣) .
٤ زيدان : تأريخ اداب اللغة العربية (١/٢٠٢) .
٥ تاج العروس (٢/٤٧٣) .
٦ العمدة (٢/٢٥٣) .

وألوان السحب ، وقد علمتهم تجاربهم ان السحب البيضاء ، لا تكون ممطرة ، وأن السحب السوداء تكون هطلة ، تهطل الأمراض وتغيث الناس[1] .

هذا وتجد للسحب أسماء كثيرة من حيث ترتيبها وأوصافها وقربها أو بعدها عن الأرض ومن حيث لونها واحتمال وجود الغيث فيها[2] . وفي كثرة هذه الأسماء دلالة على شدة اهتمام العرب بالسحاب لما له من أثر في حياتهم ، لا سيما بالنسبة الى نزول الغيث . فقد كانوا يستسقون بالنوء،ويرجعون سبب سقوط المطر إليه .

ولتعارض عقيدة الجاهليين هذه مع عقيدة الإسلام في الخلق والأسباب ، جاء النهي عنها في الإسلام . ورد في الحديث : « من قال سقينا بالنجم ، فقد آمن بالنجم وكفر بالله »[3] . وجعلت الأنواء من الأمور الثلاثة التي عرفت بالجاهلية والتي نهى عنها الإسلام : الطعن في الأنساب والنياحة والأنواء[4] .

وكانوا يكرهون نوء السماك ، ويقولون فيه داء الإبل ، قال الشاعر :

ليت السماك ونوءه لم يخلقا ومشى الأفيرق في البلاد سلما[5]

والسماك ، سماكان : الأعزل والرامح وهما نجمان نيران : وسمي أعزل لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب ، كالأعزل الذي لا رمح معه . ويقال لأنه إذا طلع لا يكون في أيامه ريح ولا برد ، وهو أعزل منها . وهو من منازل القمر ، والرامح ليس من منازله ولا نوء له ، وهو إلى جهة الشمال . والأعزل من كواكب الأنواء وهو الى جهة الجنوب . وهما في برج الميزان . ويقول الساجع : إذا طلع السماك ، ذهب العكاك ، فأصلح قتاك ، وأجد حذاك ، فإن الشتاء قد أتاك[6] .

وقد تخصص قوم بالنوء ، ورد أن (عمر بن الخطاب) « نادى العباس : كم بقي من نوء الثريا ؟ فقال : إن العلماء بها يزعمون انها تعترض في الأفق سبعاً

---

١ الميداني (١٠٩/٧) .
٢ نهاية الارب (٧٢/١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤٧٤/١) « الكويت » .
٤ الانواء (ص ١٣ وما بعدها) .
٥ نهاية الارب (١٢٦/٣) .
٦ تاج العروس (١٤٤/٧ وما بعدها) .

بعد وقوعها . فوالله ما مضت تلك السبعُ حتى غيث النـــاس »[1] . وكانوا إذا أرادوا الوقوف على ظواهر الجو لجأوا إلى العالمـــين بالأنواء ، وكانوا إذا أرادوا التعبير عن خبير بها ، قالوا مثلاً : « ما بالبادية أنوأ منه ، أي أعـــلم بالأنواء منه »[2] . وذكر أهل الأخبار أن (الحارث بن زياد بن ربيع) ، لم يكن في الأرض عربي أبصر منه بنجم[3] .

واعتقاد راسخ مثل هذا في الكواكب والنجوم ، لا بد أن يحمل الجاهليين على تتبع ما ورد عند الأمم الأخرى من علم الأنواء ، للاستفادة منه في حياتهم العملية، وقد عاش بينهم عدد كبير من اليهود ، ولهؤلاء علم أيضاً بالأنواء ، ولهم اهتمام بهذا العلم ، لما له من علاقة بشؤونهم الدينية . ثم كان بينهم نصارى وقفوا على هذا العلم أيضاً ، وكان هؤلاء قد هضموا علم الشرقيين به وطعّموا علمهم وعلم الشرقيين بما ورد في كتب اليونان واللاتين من علم به .

وقد اتخذ الجاهليون النجوم دليلاً لهم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر . وقد أشير إلى ذلك في سورة الأنعام : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر »[4] . ولا بد للاهتداء بها من الوقوف عليها ، ووضع أسماء لها ، وتعيين البارز منها ، ووضع معالم لها ، ليكون في الامكان معرفتها ومعرفة اتجاهات السير بها ، والاستعانة بها وبالجهات الأربع في معرفة الاتجاه المؤدي إلى المكان المراد . فكانوا إذا سألهم سائل عن طريق قالوا : « عليك بنجم كـــذا وكذا » ، أو « خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها .. »[5] إلى آخر ذلك من إشارات تفيد استدلالهم بالنجوم والكواكب وبالمطالع لمعرفة الطرق .

وفي الشعر الجاهلي أبيات تشير الى اهتداء الناس في سيرهم بالنجوم فورد في شعر لسلامة بن جندل في المسير ليلاً :

ونحن نعشو لـكم تحت المصابيح

---

١ تاج العروس (١/٤٧٤) .
٢ تاج العروس (١/٤٧٤) .
٣ الاشتقاق (٢٣٩) .
٤ الانعام ، سورة رقم ٩٧ .
٥ البيروني ، الآثار الباقية (٢٣٨) ، تأريخ التمدن الاسلامي (٣/١٥) .

ويقصد بالمصابيح الكواكب[1]

وقد سار أهل الجاهلية مثل غيرهم من الأمم القديمة على فكرة تقسيم السماء الى (بروج) . وقد أشير إلى البروج في القرآن في سورة الحجر : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً »[2] ، وفي سورة البروج : « والسماء ذات البروج »[3] . وقد قسم اليونان واللاتين السماء الى (بروج) . وعرف كل برج عندهم بلفظة : (بركس) ، Burgus . ومن هذا الأصل أخذت لفظة (البرج) و (البروج). أخذت إما من اللاتينية أو اليونانية مباشرة ، وإما من السريانية بالواسطة[4]، وذلك قبل الإسلام بأمد ، فتعربت وصارت من الألفاظ العربية الأعجمية الأصل ، مثل ألفاظ أخرى دخلت العربية من أصل يوناني ولاتيني قبل الاسلام بسنين .

وللكواكب أفلاك تدور فيها ، وقد أشير اليها في القرآن ، فورد : « وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون »[5] . وهي عندهم مدارات دائرية على هيأة حجر الرحى ، تدور الشمس والقمر والكواكب بها ، كل في فلك مقدر له[6] .

ويرى (نالينو) ، ان ما ورد في القرآن الكريم عن (البروج) ، وكذلك ما ورد في الخطبة المنسوبة إلى قُس بن ساعدة الإيادي من قوله : « وسماء ذات أبراج » لا يعني بالضرورة وقوف الجاهليين على البروج الاثني عشر ، وأخذهم بهذه النظرية الفلكية ، وذلك لأمور ذكرها ، وحججٍ أوردها . وفي جملتها أن أسماء كل البروج ، ما عدا الجوزاء مترجمة من أسمائها اليونانية والسريانية . ثم إن هذه البروج لم تكن ذات فائدة عملية للجاهليين ، ولهذا لا يحتمل اهتمامهم بها، وأخذهم بها ، ولا سيما ان معارفهم الفلكية لم تكن واسعة عميقة . ولهذا ذهب إلى أن ما ورد في القرآن عن البروج ، لا يراد به الصور المعروفة الموجودة عند

---

١ الانواء (ص ١٨٦) .
٢ السورة رقم ١٦ .
٣ سورة البروج .
٤ كتاب صور الكواكب الثمانية والاربعين ، تأليف عبد الرحمن بن عمر الرازي الصوفي ، المطبعة العثمانية ١٩٥٤ م ، كتاب الانواء (ص ط) ، المخصص (١٢/٩) Ency., I, p. 796, Fränkel, Die Aramaische Fremdwörter in Arabisch, S. 235.
٥ الانبياء ، الاية ٣٣ ، تفسير الطبري (١٦/١٧ وما بعدها) .
٦ تفسير الطبري (١٦/١٧ وما بعدها) ، الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٢) .

اليونانيين والتي وقف عليها العرب في عصور الترجمة ، وإنما هي مجرد نجوم . وقد استشهد ببعض مقطفات من كتب التفسير ، في تفسير لفظة (البروج)[1] .

وقد ذكر (الطبري) أن (البروج) الواردة في (سورة البروج)[2] الكواكب، والنجوم ، والأصوب : منازل الشمس والقمر ، « وذلك أن البروج جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة ، ومن ذلك قـــول الله : ولو كنتم في بروج مشيدة . وهي منازل مرتفعة عالية في السماء . وهي اثنا عشر برجاً ، فسير القمر في كل برج منها يومان وثلث ، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ، ثم ثم يستسر ليلتين . ومسير الشمس في كل برج منها شهر »[3] .

ونسب الى أميـــة بن أبي الصلت علم بالبروج والكواكب ، وقد ورد في الأخبار : أن الرسول أنشد قوله :

زُحَلٌ وثور تحت رجـل يمينه والنّسر للأخرى وليث يرصد[4]

وفي هذا البيت ، إن صح قول الرواة ، أن الرسول أنشده دلالة على وقوفه على شيء من هذا بالفلك .

ويذكر العرب ان القمر يأخذ كل ليلة في منزل من المنازل حتى يصير هلالاً ، وقد أشير إلى المنازل في القرآن : « والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »[5] . والمنازل ثمانية وعشرون منزلاً في كل شهر ينزلها القمر[6] . وكل من الشمس والقمر يجريان في فلكهما ، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس ، وكل في فلك يسبحون»[7] . والعرب تزعم أن الأنواء المنازل ، وتسميها نجوم الأخذ ، لأن القمر يأخذ كل ليلة في منزل منها حتى يصير هلالاً ، وهي منسوبة إلى البروج الاثني عشر . وفي كل برج من

---

١ نالينو (ص ١٠٨ وما بعدها) .
٢ البروج ، الرقم ٨٥ .
٣ تفسير الطبري (٣٠/٨١) ، تفسير النيسابوري (٣٠/٥٩) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير ابن كثير (٤/٤٩١) .
٤ الاصابة (١/١٢٩) .
٥ سورة يس ، الآية ٣٩ .
٦ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠١) .
٧ تفسير الطبري (٢٣/٥ وما بعدها) .

البروج منزلان وثلث من منازل القمر ، وهي نطاق الفلك ، والفلك مدار لها . وإنما سُمي فلكاً لاستدارته[1] .

وأول ما يعد العرب من (المنازل) (الشَرطان) ، وهما كوكبان يقال هما قرنا الحمل ، ويسمّيان النطح والنـــاطح ، وبينهما في رأي العين قاب قوس ، وأحدهما في جهة الشمال والآخر في جهة الجنوب والى جانب الشمال كوكب صغير يعد معهما أحياناً فيقال الأشراط ، وقد يعرف بـ (الأشرط) . و (الشرطان) نجمان من الحمل ، وهما قرناه ، والى جانب الشمالي منهما كوكب صغير[2] . ومن العرب من يسمي هذه النجوم الثلاثة الأشراط . وقيل هما أول نجم الربيع ، ومن ذلك صار أوائل كل أمر يقع أشراطه[3] ، والربيع أول الأزمنة للعرب ، فيـــه الخير والبركة لهم . وإذا نزلت الشمس بهذا المنزل فقـــد حلت برأس الحمل ، وهو أول نجوم فصل الربيع ، وعند ذلك يعتدل الزمان ، ويستوى الليل والنهار فإذا استوى الزمـــان ، يليه نهاية الربيع ، وعودة العرب الى الأوطان . « يقول ساجع العرب : إذا طلع الشرطان استوى الزمان وحُضرت الأوطان ، وتهـــادت الجيران . أي : رجع الناس الى أوطانهم من البوادي بعد مـــا كانوا متفرقين في النجع »[4] .

ثم (البطين) ، وهو ثلاثة كواكب خفية ، ويقال : هي بطن الحمـــل ، ثم (الثريا) ، وهي أشهر منازل القمر ، ويسمونها : النجـــم . وقـــد أكثر الشعراء من التشبيه بها[5] . ولهم في فعلها أسجاع . منها : « إذا طلع النجم ، فالحر في حدم ، والعشب في حطم ، والعانة في كدم » ، و « إذا طلع النجم عشاء ، ابتغى الراعـــي كساء » ، و « إذا طلع النجم غديـــة ابتغى الراعي شكية »[6] .

وعرفت (الثريا) بـ (كيمه) Kimah عند العبرانيين وعند السريان ، وعرفت

---

١ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠١) .
٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٢) .
٣ تاج العروس (١٦٦/٥ وما بعدها) ، (شرط) .
٤ الجمان (٢٠٢ وما بعدها) .
٥ المصدر نفسه (٢٠٣ وما بعدها) .
٦ الجمان (٢٠٦ وما بعدها) .

بـ (النجم) كذلك[1] . وقد ذكرت بـ (النجـــم) وبـ (النجم الثاقب) في القرآن الكريم . وقد ذكرت الثريا في شعر امرىء القيس[2] ، وفي شعر (قيس بن الأسلت) ، و (قيس بن الخطيم) ، و (أحيحة بن الجلاح)[3] ، كما ذكرت في شعر شعراء آخرين من جاهليين وإسلاميين .

ويرى العرب أن لها أثراً في الصحة وفي وقوع الأوبئة . وأوبأ أوقات السنـة عندهم ما بين مغيبها إلى طلوعها . « قال طبيب العرب : اضمنوا ما بين مغيب الثريا إلى طلوعها ، وأضمن لكم سائر السنة . ويقـال : ما طلعت ولا نأت إلا بعاهة في الناس والإبل وغروبها أعوه من شروقها » . وفي الحديث : « إذا طلع النجم لم يبق في الأرض من العاهة شيء إلا رُفع . فإنه يريد بذلك عامة الثمار ، لأنها تطلع بالحجاز وقد أزهى البسر ، وأمنت عليه الآفة وحلّ بيع النخل »[4] .

ثم الدبران ، وهو كوكب أحمر منير يتلو الثريا ويسمى تابع الثريا ، ثم الهقعة ، وهي ثلاث كواكب صغار ، يقال انها رأس الجوزاء ، ثم الهنعة ، وهي كوكبان أبيضان ، ومنها الشعرى العبور ، التي ذكرت في القرآن : « وانه هو رب الشعرى »[5] ، وكان من العرب من يتعبد لها ، وأول من عبدهـا (أبو كبشة) ، الذي كان المشركون ينسبون الرسول اليه . والغميصاء ، والنثرة[6] ، ثم الطرف ، ثم الجبهة ، ثم الزبرة ، ثم الصرفة ، ثم العوّاء ، ثم السماك الأعزل ، ثم الغفر ، ثم الزبانى ، ثم الإكليل ، ثم القلب ، ثم الشولة ، ثم العولة ، ثم النعائم ، ثم البلدة ، ثم سعد الذابح ، ثم سعد بُلَع ، ثم المرع ، ثم سعد السعود ، ثم سعد الأخبية ، ثم الحواء ، ثم الفرغ المقدم ، ثم الفرغ المؤخر ، ثم بطن الحوت[7] .

وقد جعلوا لكل منزل من المنازل المذكورة أثراً في حياة النـاس ، يتمثل في أسجاعهم المروية في كتب الأدب وفي كتب الأنواء . أخذوها من الظروف والأحوال

---

١ Hastings, Dict., Vol., I, p. 192.

٢ اذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٤) .

٣ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٤) .

٤ الجمان (٢٠٧) .

٥ النجم ، الاية ٤٩ .

٦ الجمان (٢١١ وما بعدها) .

٧ الجمان (٢١١ وما بعدها) .

والتجارب العملية التي كانت تقع لهم عند طلوع الكواكب المذكورة . فنسبوا الفعل اليها ، من جفاف ورطوبة وحرّ وبرد ، وهطول مطر أو انحباسه ومن حصول أوبئة إلى غير ذلك من أثر .

ويظهر من دراسة ما ورد عن أنواء أرباع السنة وعن عدة المنازل وصفاتهـا ومن الأسماء التي أطلقت عليها على أن الجاهليين كانوا على علم بهـا وبالبروج[1] . فالمصطلحات المستعملة في هذه الأنواء وكذلك الأسماء هي مصطلحات أخذها المسلمون من لغة أهل الجاهلية ، وأخذهم لها عنهم ، كلاً أو بعضاً ، هو دليل على وجود علم للجاهليين بالأنواء والفلك . ولا يستبعد ذلك عنهم ، لأن الجاهليين كانوا في حاجة شديدة الى معرفة الأنواء وعلم الفلك ، وقد كان لأهل العراق ولأهل بلاد الشأم علم بهما ، يعود بعضه الى البابليين ويعود بعض آخر الى اليونان ، وقـد كان السريان يدرسون الفلك ، والعرب على اتصال بهم ، ولا سيما عرب النصارى مثل أهل الحيرة ، حيث درسوا علوم تلك الأيام ، ولما كانت معـارف الأنواء والفلك ضرورة لهم ، فلا يستبعد أخذ الجاهليين معرفتهم بهما من المكانين .

والأجرام السماوية هي كواكب ونجوم ، وقد أشير اليها في القرآن الكريم . و (الكوكب) من التسميات التي ترد في اللهجات السامية الأخرى. فهي (كوكب) (كوكاب) في العبرانية ، و (كوكبا) في السريانيـة ، و (كوكب) في الحبشية ، و (ككبو) Kakkabu في الأشورية[2] . ويراد بالكوكب النجوم المتحركة التي تتغير مواضعها . أما الأجرام التي تبدو ثابتة لا تترك محلاتها ، فهي النجوم.

وقد اشتهرت مجموعة من النجوم باسم (بنات نعش) عند العرب. ولا تزال هذه التسمية دائرة على ألسنة الناس يطلقونها على المجموعة نفسها المعروفة بهـذه التسمية عند الجاهليين ، وللأخباريين قصص أوردوه عن هـذه التسمية يرجع إلى ما قبل الاسلام . وتعرف بنات نعش بـ (عش) (عاش) و (عيش) عند العبرانيين[3] .

وعرفت مجموعة أخرى من النجوم باسم (جبار) . وتسمى (جبارا) Gabbara

---

١ العمدة (٢٥٢) « باب ذكر منازل القمر » .
٢ Hastings, Dict., Vol., I, p. 191.
٣ Hastings, Dict., Vol., I, p. 191.

في السريانية ، وبـ (نفله) Niphla في الكلدانية ، و (فسيل) في العبرانية . ويظهر انها من الأبراج السماوية القديمة المعروفة عند الساميين[1] .

وعرفت (زُحَل) و (سهيل) عند الجاهليين كذلك. وكذلك (عشتار) معبودة العرب الجنوبيين . و (العقرب) أحد البروج .

وقد وردت في سفر (أيوب)[2] جملة (حدرى تيمان) ، ومعناها (الخادر الجنوب) أو (مخادع الجنوب)[3] ، مما يدل على أن المراد بها نجوم تقع في الجنوب ، أي في جنوب فلسطين . وقد ورد في العربية (وسهيل يمان) ، أي جنوبية ، وذلك بالنسبة الى أهل الحجاز .

و (الزُّهَرَةُ) ، هي من الكواكب الظاهرة البارزة التي تعرف بسهولة . وهي (هيلل) عند العبرانيين .

وهناك كوكب اسمه Kaawanu عند الأشوريين . ويراد به (كيون) Kiyyun عند العبرانيين . ويقابل (كيوان) في العربية . وهو معروف عند المنجمين . ومن المعربات[4] . والساطرون ، من الكواكب المعبودة عند بعض الشعوب السامية[5].

أما الشمس ، فهي أعرف الأجرام السماوية ، وبها استدل على الوقت على الساعات والأيام والسنين والمواسم . وفي القرآن الكريم آيات توضح لنا رأي الجاهليين في الشمس .

وأما القمر ، فمن آلهة العرب الجنوبيين البارزة . ويعرف عندهم بـ (هلل) أي (هلال) . والقمر من التسميات العربية الشمالية . وأما الهلال ، فإنه القمر في أيامه الأولى عند أهل الحجاز . وللقمر أسماء نطقت بها العرب . فمنها : الطوس والباهر والغاسق والزبرقان والواضح والزمهرير والسنّار والساهور[6] . والساهور هو القمر في الآرامية ، من Sahro[7] .

---

١ Hastings, Dict., Vol., I, p. 192.
٢ أيوب ، الاصحاح التاسع ، الاية التاسعة .
٣ Hastings, Dict., Vol., I, p. 192.
٤ Hastings, Dict., Vol., I, p. 193.
٥ Hastings, Dict., Vol., I, p. 193.
٦ نهاية الارب (١/٥١ وما بعدها) .
٧ غرائب اللغة (١٨٩) .

وقد اشتهر بعض الجاهليين بعلمهم بمواقع النجوم ، منهم : (بنو مُرّة بن همام الشيباني) و (بنو مارية بن كلب)[1] .

الكسوف والخسوف :

والكسوف والخسوف من الظواهر المعروفة عند الجاهليين . وقد عُدّ وقوعها من الأمارات التي تشير إلى وقوع حوادث جسيمة في العالم . شأنهم في ذلك شأن شعوب العالم الأخرى في ذلك العهد .

فقد كان بعض الجاهليين يرى أن كسوف الشمس آية دالة على موت رجل عظيم . فقد ورد أن الشمس كسفت في عهد رسول الله ، ووافق ذلك موتَ ابراهيم بن رسول الله ، فقال الناس : انما كسفت الشمس لأجله . فقال النبي : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى يخوّف بهما عباده، وانهما لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته »[2] . وقد حدث ذلك في المدينة . وورد في الاخبار أن الانصار كانوا يقولون في النجم الذي يرمى به ، مات ملك ، ولد مولود[3] . وكانوا يتصورون أن الكهان كانوا يستعينون على معرفة المغيبات والخفايا بواسطة شياطينهم الذين كانوا يصعدون إلى السماء فيأخذون أخبارهم . وأن الرعد صوت الموكل بالسحاب يزجر السحب من أن تخالف أمره ، حيث يسوقها من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله[4] .

ويظهر من الموارد الإسلامية أن الجاهليين كانوا يثبتون الوقت بموقع ظل الشمس. ويستعين أهل البادية بالظل ، ظل إنسان أو عصا أو ظل خيمة ، ويدركون من هذا الظل مقدار الوقت بصورة تقريبية . وعلى هذا المبدأ قدر الفقهاء أوقات الصلاة . ولا يستبعد استعانة أهل القرى والمدن بمزاول ثابتة في تقدير الوقت . وذلك بأن تخطط درجات على جدار ثابت أو على أرض ، أو تعمل فتحات في

---

١ البيروني (٢٤١) ، زيدان : اداب اللغة (٢٠٦/١) .
٢ نهاية الارب (٤٨/١) .
٣ نهاية الارب (٨٧/١) .
٤ نهاية الارب (٨٨/١ وما بعدها) .

جدار ، ويعين الوقت برؤية ظل قضيب أو عمود مثبت على الدرجة المرسومة أو الفتحة ، ويستدل من الظل على منزلة الساعة من النهار .

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب يلجأون الى المتفرسين في دراسة الأجرام السماوية لمعرفة الأمور الخافية عليهم من حاضر ومستقبل،وذلك بالاستدلال عليها من ظواهر الكواكب والنجوم . والكهان ، هم المتخصصون بهـذه المعرفة عند الجاهليين ، فكانوا يتنبأون لهم بما سيقع من أمور وأحداث بالاستدلال بحركات تلك الأجرام ، وبما تجمع عندهم من فراسات وتجارب ورثوها في هـذا الشأن . وقد كان الجاهليون يبـالغون في ذلك كثيراً ويؤمنون بالتنجيم وبتأثير الطالع في حياة الانسان،ولهذا ذم الاسلام المنجمين وكذبهم ومنع المسلمين من التصديق بهم .

وكان لأهل الجاهليـة رأي في تساقط الشهب والنيازك ، ويرون ان لتساقط النجوم أثر في الإنسان وفي العالم . ذكر أنهم كانوا يرون أنه إذا انقض شيء من البروج الاثني عشر ، فهو ذهاب الدنيا ، وإن لم ينقض منهـا شيء ، بل رأوا انقضاض النجوم وسقوطها ، فإن ذلك يدل على حدوث أمر عظيم في الدنيا[1] .

التوقيت :

وقد اهتم الجاهليون بأمر التوقيت ، أي تعيين الأوقات وضبط الأزمنة، لعوامل ضرورية عديدة . فالزراعة خاضعة لتقلبات الجو وتبدل المواسم ، والاعياد وكثير من الشعائر الدينية وأمور العبادة لها علاقة بالتوقيت كذلك ، كما أن للتجارة وللسير في البر وفي البحر صلة كبيرة بمعرفة الأنواء . ولهـذا عنوا بتتبع سير الكواكب ودراسة ملامح السماء وظواهر الطبيعة التي لها علاقة بالرياح والامطار وبأمثال ذلك للاستفادة منها في الحياة العملية .

ويحدثنا الجاحظ في كتاب الحيوان عن حاجة الأعرابي إلى معرفة حال السماء وتقلبات الجـو ، فيقول : « عرفوا الآثار في الارض والرمل ، وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء ، لأن كـل من كان بالصحاصح الأماليس ، حيث لا أمارة ولا هاوي مع حاجته إلى بعد الشقة ، مضطر إلى التماس ما ينجيـه ويؤديه . ولحاجته

---

١ تفسير القرطبي ، الجامع (٨٢/١٧ وما بعدها) ، (سورة والنجم) .

إلى الغيث ، وفراره من الجدب وضنه بالحياة ، اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من الكواكب ، ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها ، وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً »[1] . وفي هذا وفي غيره تفسير لسبب اهتمام الجاهليين بالتوقيت ودراسة الأنواء[2] .

وقد اعتبر القدماء أمر التوقيت من واجبات رجال الدين ، فكان رجال المعابد والكهّان هم الذين يقومون بضبط الوقت وتثبيت الأعياد وأوقات العبادة . ظلّوا على ذلك أمداً طويلاً ، ولا تزال آثار ذلك باقية حتى اليوم . وكان هؤلاء الرجال قد احتكروا المعرفة والعلم لاعتقاد الناس أنهم أقرب البشر الى الآلهة ، وأن ما يتكلمون به إنما هو وحي منها ، يوحي الى هؤلاء ، فعلمهم اذن نابع من مصدر صادق لا يتطرق اليه الشك .

وإذا كانت كتابات المسند لم تتحدث عن الموقتين ضبّاط الزمن في العربية الجنوبية ، فإننا لا نعتقد بشذوذ العرب الجنوبيين عن غيرهم في هذا الباب ، خاصة وأننا نرى أن الكهان وسدنة الكعبة ومن لهم صلة بالأصنام ، كانوا هم الذين يقومون في الحجاز بضبط المواقيت والنسيء ، فليس بمستبعد أن يختص رجال الدين في العربية الجنوبية بالتوقيت .

---

١ مقدمة كتاب الانواء في مواسم العرب ، لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ، سنة ١٩٥٦ م (ص ١ وما بعدها) ، وسيكون رمزه : الانواء .

٢ العمدة ، لابن رشيق (٢/٢٥٢) « القاهرة ١٩٦٤ م » .

الفصل الحادي والثلاثون بعد المئة

الوقت والزمان

يقول علماء العربية : الوقت مقدار من الزمان ، وكل شيء قدرت له حيناً، فهو موقت . والوقت تحديد الاوقات كالتوقيت[1] . واختلفوا في الزمان ، فقالوا: الزمان الدهر ، وعارضه آخرون . إذ قالوا : يكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر والدهر لا ينقطع. والزمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبهه[2] ، ويظهر أن بين العلماء خلافاً في تحديد المراد من اللفظتين ثم في تحديد معنى كل لفظة منهما ، وفي معنى (الدهر) ، وذلك بسبب مسألة القدم والحدوث، وما للتفاسير من صلة بهما ، وأثر ذلك في مسائل ذات صلة بعلم الكلام .

وروي عن الرسول قوله : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » ، وفي رواية أخرى : « فإن الله هو الدهر » ، وورد في الحديث عن (أبي هريرة) ، « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وإنما أنا الدهر . أقلب الليل والنهار »[3] . فالدهر الزمان الطويل ، أو الدائم . وقد عبر عنه في الاسلام بالأبدية، التي هي الله .

ويقاس الوقت بالسنين . والسنة أطول وحدة قياسية له . وتنقسم الى أجزاء .

---

١ تاج العروس (١/٥٩٤) ، (وقت) .
٢ تاج العروس (٩/٢٢٧) ، (زمن) .
٣ تاج العروس (٣/٢١٨) ، (دهر) .

ولفظة (سنة) من الألفاظ العربية القديمة ، وترد في جميع لهجات الجاهليين ، وهي من الألفاظ السامية التي ترد في كل لغاتها ، مما يدل على أنها من الكلمات السامية القديمة . ويعبر عن كثرة السنين بمصطلحات ، مثل : (عصر) ، وهو كل مدة ممتدة غير محدودة تحتوي على أمم تنفرض بانقراضهم ، وفي القرآن الكريم: « والعصر إن الإنسان لفي خسر »[1] . وقد ذهب بعض المفسرين الى أن (العصر) الدهر[2] . وتقابل لفظة (العصر) لفظة (دور) Dor في العبرانية . ومنها جملة (دور وآدهور) Dor Wadhor ، بمعنى الدهر والدهور ، أي الزمان الدائم . وذلك بالنسبة لله[3] . لأن الزمن لا شيء بالنسبة له . « لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعد ما عبر وكهزيع من الليل »[4] ، و « أن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة ، وألف سنة كيوم واحد »[5] . وقد أيد القرآن الكريم هذا المعنى ، فذكر أن الوقت لا شيء بالنسبة الى أبديته : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون »[6] .

ولفظة سنة لفظة عربية شمالية ، ترد في عربية القرآن الكريم ، كما ترد في النصوص العربية الشمالية ، مثل نص النمارة الذي يعود عهده إلى سنة (٣٢٨) للميلاد ، ونص (حرّان) الذي يعود تأريخه إلى سنة (٥٦٨) للميلاد ، أي إلى عهد لا يبعد كثيراً عن أيام مولد الرسول . وقد كتبت لفظة (سنة) على هذه الصورة (سنت) ، أي بالتاء المبسوطة . وقد وردت هذه اللفظة في الكتابات الصفوية وفي اللهجات العربية الشمالية الاخرى أيضاً[7] .

ولدينا لفظة أخرى مرادفة للسنة هي العام ، فيقال لعامنا هذا ، أي لسنتنا .

---

١ سورة والعصر ، تاج العروس (٣/٤٠٤) ، (عصر) .

٢ تفسير الطبري (٣٠/١٨٧) .

٣ « من دور الى دور » ، Hastings, p. 288. المزمور العاشر ، الاية ٦ ، « وخلاصي الى دور الادوار » ، اشعياء ، الاصحاح ٥١ ، الاية ٨ ، المزمور التسعون ، الاية ١ .

٤ المزمور التسعون ، الاية ٤ .

٥ رسالة القديس بطرس الثانية ، الاصحاح الثالث ، الاية ٦ .

٦ سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الاية ٤٧ .

٧ « سنت حرب نبط » ، « سنة حرب النبط » « سنة محاربة النبط » ، تأريخ اللغات السامية (ص ١٨٠) .

وذكر علماء اللغة ان العام أخص مطلقاً من السنة ، فتقول كل عام سنة ، وليس كل سنة عاماً . وذكر بعض العلماء أن العام كالسنة ، لكن كثيراً ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الجدب والشدة ، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة ، والعام فيما فيه الرخاء والخصب . وقال بعض آخر : السنة أطول من العام ، وهي دورة من دورات الشمس ، والعام يطلق على الشهور العربية بخلاف السنة . وذكر بعضهم أن العام لا يكون إلا شتاءً وصيفاً ، وانك إذا عددت اليوم إلى مثله فهو سنة [1] .

وقد وردت لفظة (عوم) في نص واحد من نصوص المسند ، بمعنى سنة ، أي في معنى (عام) في لساننا [2] . ولكن الغالب أن يعبر عن السنة بلفظة (خرف) ، أي (الخريف) ، ويظهر أنهم أطلقوا على السنة (الخريف) ، لأن الخريف هو من أبرز المواسم في العربية الجنوبية وله أهمية خاصة بالنسبة لهم ، ولذلك غلّبوا التسمية على كل العام .

و (الحول) السنة اعتباراً بانقلاب الشمس ودوران الشمس في مطالعها ومغاربها. وقد وردت في القرآن الكريم . ويظهر انها من الألفاظ الجاهلية القديمة . والحولي: ما أتى عليه حول من ذي حافر وغيره ، ويقال جمل حولي ونبات حولي [3] .

وذكر علماء اللغة أن (الخريف) السنة والعام ، أي بالمعنى المفهوم من اللفظة في كتابات المسند . وذهب بعض العلماء الى أن الخريف هو الفصل المعروف . وأما ورود اللفظة بمعنى السنة والعام في أحاديث الرسول ، فلأن الخريف لا يكون في السنة إلا مرة واحدة ، ولذلك قصد باللفظة المسافة تقطع من الخريف الى الخريف ، وهو السنة [4] .

ويستعمل العرب الجنوبيون لفظة (خرف) (خريف) في مكان سنة في لغتهم . وترد في النصوص المؤرخة ، حيث تفيد توريخ حادث ما وتثبيته بذكر السنة التي وقع بها من سني الملك أو الرئيس الذي أرخ الحادث به . فيكتب :

---

١ تاج العروس (٨/٤١٢) .

٢ Le Muséon, 66, p. 119, Beeston, p. 20, 44, CIH. 575, 8, Rep. Epig. 2958 A.

٣ تاج العروس (٧/٢٩٣) .

٤ تاج العروس (٦/٨٣) .

(بـ خرف ..) (بخرف ..) ، أي (بسنة ...) ، ثم يذكـر بعدها اسم المؤرخ به . كما ترد بمعنى الخريف ، الفصل المعلوم من السنة .

وتؤدي لفظة (كبر) معنى سنة في بعض الأحيان ، وقد رأينا أن اللفظة تعني (كبير) ، وهي كناية عن وظيفـة كبيرة في الحكومة ، والظاهر أن الناس قد تجوّزوا في الاصطلاح ، فأطلقوه بمعنى السنة ، لأنهم كانوا يؤرخون بسني حكم الكبراء ، فصاروا يطلقونها على السنة أيضاً ، ويفهم معناهـا عندئذ من الجملة . كما في جملة : « عد ورخ وكبر نجو ذت هقنيّن »[1] ، ومعناها : « إلى شهر وسنة إعلان ذلك التمليك »[2] .

وتؤدي لفظة (الحِقبة) معنى السنة عند بعض علماء اللغة ، وتجمع على حقب، وذكر أن الحقب ثمانون سنة ، وقيل أكثر ، والجمـع أحقاب . وتؤدي لفظة (الحجة) معنى السنة كذلك[3] .

وتتألف السنة عند العرب وسائر العجم من اثني عشر شهـراً[4] ، وأيام السنة ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً ، تنقص عن السرياني أحد عشر يوماً وربع يوم ، لأن أيام السنة عند السريان ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربـع يوم . وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وهو التأخير[5] .

الفصول الأربعة :

وتقسم السنة إلى فصول أربعة بحيث يتكون كل فصل من هـذه الفصول من ثلاثة أشهر ، تكون ربـع السنة . وهـذه الفصول هي : الشتاء ، والربيـع ، والصيف ، والخريف . ويقال للصيف القيظ أيضاً[6] . ويظهر من هذه التسميات ومن هذا النوع من التقسيم أنه تقسيم بني على أساس التقويم الشمسي ، لا التقويم

---

١ M. Tawfik, Les Monuments de Main, Plate, 32, fig. 65. (Cairo 1951).
٢ Beeston, p. 20.
٣ المخصص (٦٦/٩ وما بعدها) .
٤ مروج الذهب (١٧٧/٢) .
٥ مروج الذهب (١٨٨/٢) ، (ذكر سني العرب وشهورها) .
٦ Reste, S. 95.

القمري . وهو تقسيم بقي مستعملاً في الاسلام ، مع أن التقويم الرسمي الاسلامي هو تقويم قمري ، لأنه تقسيم طبيعي مبني على طبيعة التغير الذي يطرأ على شهور السنة . ولو بني تقسيم الفصول على الشهور القمرية ، لما كان في الامكان السير عليه بالقياس إلى الحياة العملية المبنية على الزرع والتجارة والتنقل في المراعي، وكل هذه لها علاقة بتبدل طبيعة الشهور .

والتقسيم المذكور قائم على أساس ملاحظات الانسان للطبيعة ودراسته لها، وعلاقة البرد والحر بحياته وبزرعه وحيوانه . فقسم السنة إلى موسمين : موسم زرع يبذر فيه ويزرع ، وموسم حصاد يحصد فيه زرعه ويجني ثمره . وهو موسم يبدأ فيه الزرع بالأفول وبالذبول ، حتى إذا ما جاء البرد ، تساقط فيه الورق ، وتعرت الأشجار من الخضرة ويقابل هذا البرد الحر ، وهو موسم واضح ظاهر في جزيرة العرب حياته فيها أطول من بقية الفصول . فأدرك الانسان من تأثير الطبيعة عليه وجود أربعة فصول . وقد عبرت التوراة عن هذه الفصول بقولها : « مدة كل أيام الارض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل »[1] .

ولكن الواضح من الفصول في بلاد العرب : الصيف . ويستأثر بالنصيب الاكبر من السنة، لامتداد حره ، ثم الشتاء . ولذلك نجد الناس يقسمون السنة إلى نصفين: صيف وشتاء .

ونجد هذه الفكرة عند العبرانيين كذلك، فالصيف والشتاء هما الفصلان الواضحان البارزان عندهما . ويسمى الصيف بـ (قيز) (قيض) عندهم ، أي بالتسمية الواردة عند العرب ، أما الشتاء ، فهو (خرف) في العبرانية[2] .

وبعض العرب يقسم السنة نصفين : شتاءً وصيفاً ؛ ويقسم الشتاء نصفين ، فيكون الشتاء أوله ، والربيع آخره . ويقسم الصيف نصفين ، فيجعل الصيف أوله ، والقيظ آخره[3] .

وذكر أهل الاخبار وعلماء اللغة أن العرب تبتدىء بفصل الخريف وتسميه

---

١ التكوين ، الاصحاح الاول ، الاية ١٤ ، الاصحاح الثامن ، الاية ٢٢ ، قاموس الكتاب المقدس (٤٧٨/٢) .

٢ W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 315.

٣ الانواء (ص ١٠٤) ، بلوغ الارب (٢٤٤/٣) .

الربيع ، لأن أول الربيع ، وهو المطر ، يكون فيه ، ثم يكون بعده فصل الشتاء ثم يكون بعد الشتاء فصل الصيف ، وهو الذي يسميه الناس الربيع ، وقد يسميه بعضهم الربيع الثاني ، ثم يكون بعد فصل الصيف فصل القيظ ، وهو الذي يسميه الناس الصيف[1] . وذكر (اليعقوبي) أن العرب اختلفت « في أسماء الأزمنة الأربعة : فزعمت طائفة منها أن أولها الوسْمي ، وهو الخريف ، ثم الشتاء ، ثم الصيف ، ثم القيظ ، ومنهم من يعد الاول من فصول السنة الربيع ، وهو الاشهر والأعم ، والعرب تقول : خرفنا في بلد كذا ، وشتونا في بلد كذا ، وتربعنا في بلد كذا ، وصيفنا في بلد كذا »[2] .

وأول وقت الربيع عندهم ، وهو الخريف ، ثلاثة أيام تخلو من أيلول . وأول الشتاء عندهم ثلاثة أيام تخلو من كانون الاول . وأول الصيف عندهم ، وهو الربيع الثاني ، خمسة أيام تخلو من آذار . وأول وقت القيظ عندهم أربعة أيام تخلو من حزيران . والخريف عندهم المطر الذي يأتي في آخر القيظ ، ولا يكادون يجعلونه اسماً للزمان[3] .

وهناك أسماء أخرى لهذه الفصول ، فـ (الصفرية) هو الجزء الاول من السنة وسمي مطره الوسمي ، والشتاء هو الجزء الثاني منها . أما الصيف فهو الجزء الثالث . وأما الجزء الرابع ، فهو القيظ ، وسمّوا مطره الخريف . وقد حددوا مبدأ كل فصل ومنتهاه بالفصول .

وهناك كما يتبين من روايات علماء اللغة اختلاف في تشخيص الربيع ، منهم من يذهب إلى أنه الفصل الذي يتبع فيه الشتاء ، ويأتي فيه الورد والنَّور ، « ومنهم من يجعل الربيع الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريف وفصل الشتاء بعده . ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الوقت الذي تدعوه العامة الربيع ، ثم فصل القيظ بعده وهو الذي تدعوه العامة الصيف . ومن العرب من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريف الربيع الاول ، ويسمي الفصل الذي يتلو الشتاء ويأتي فيه الكمأة والنور الربيع الثاني . وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع »[4] .

---

١ الانواء (ص ١٠٤ وما بعدها) ، المخصص (٧٩/٩ وما بعدها) .
٢ مروج (١٩٢/٢) .
٣ الانواء (ص ١٠٤ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٢٤٣/٣ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٤١٤/٢ وما بعدها) .

وهناك من يجعل السنة ستة أزمنة : الوسمي ، والشتاء ، والربيع ، والصيف، والحميم ، والخريف[1] . وحصة كل زمن من هذه الأزمنة شهران .

وذكر بعض العلماء أن السنة عند العرب ستة أزمنة : شهران منها الربيع الأول وشهران صيف وشهران قيظ وشهران الربيع الثـاني ، وشهران خريف وشهران شتاء . وذكر بعضهم أن السنة أربعة أزمنة: الربيع الأول وهو عند العامة الخريف ، ثم الشتاء ، ثم الصيف وهو الربيع الآخر ، ثم القيظ . وهذا هـو قول العرب في الباديـة . والربيع جزء من أجزاء السنة ، وهو عند العرب ربيعان : ربيع الشهور وربيع الأزمنة . فربيع الشهور شهران بعد صفر . سمّيا بذلك لأنهما حدّا في هذا الزمن فلزمهما في غيره . ولا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر . وأما ربيع الأزمنة . فربيعان : الربيع الأول وهو الفصل الـذي يأتي فيه النور والكمأة ، وهو ربيع الكلأ . والربيع الثاني ، وهو الفصل الذي تدرك فيه الثمار . ومن العرب من يسمي الفصل الـذي تدرك فيه الثمار ، وهو الخريف : الربيع الأول ، ويسمى الفصل الذي يتلـو الشتاء ويأتي فيه الكمأة والنور الربيع الثاني . وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع[2] .

وقسم بعضهم الشتاء الى ربيعين : ربيع الماء والأمطار وربيع النبات لأن فيـه ينتهي النبات منتهاه . والشتاء كله ربيع عند العرب لأجل الندى[3] .

ويظهر من المسند أن العرب الجنوبيين كانوا يقسّمون السنة الى فصول كذلك، وأنهم كانوا مثـل غيرهم يقسمونها الى فصول أربعة : الشتاء والربيع والصيف والخريف . ولا يعني هذا التقسيم الرباعي أن الجو في العربية الجنوبيـة أو في أي مكان آخر في جزيرة العرب كان يختلف اختلافاً واضحاً بيّناً من حيث التطرف أو الاعتدال باختلاف هذه الفصول الأربعة ، وأن شهور الفصـول هي متساوية بالفعل ، وأن عدة كل فصل ثلاثة أشهر ، بل هو في الواقع تقسيم علمي نظري. أما من الناحية العلمية ، فإن فصلي الصيف والشتاء هما أبرز الفصول وأوضحهـا

---

١ بلوغ الارب (٣/٢٤٤) ، صبح الاعشى (٢/٤٠٥) .

٢ تاج العروس (٥/٣٤٠ وما بعدها) ، (ربع) ، صبح الاعشى (٢/٤١٥ ومـا بعدها) .

٣ تاج العروس (٥/٣٤٠) ، (ربع) .

في جزيرة العرب كلها . ولا سيما فصل الصيف الذي يعدّ أطول الفصول وأوضحها فيها . وهذا هو الذي دفع العرب ولا شك الى تقسيم السنة الى نصفين ، شتاء وصيف . يبتدئون بالشتاء ويجعلونه النصف الأول ، ويبتدىء عندهم بابتداء النهار في القصر وابتدائه في الزيادة . وأما الصيف ، فيبدأ عند انتهاء النهار بالطول وابتدائه بالنقصان[1] .

والشتاء هو (صربن) في المسند . أما الربيع ، فهو (دثا) . وأما الصيف، فـ (قيضن) ، أي القيظ ، وأما الخريف ، فـ (خرفن) ، أي الخريف[2] . ويذكر علماء اللغة أن القيظ هو أشد الحرّ ، وأن الخريف ليس في الأصل باسم للفصل ، إنما هو اسم لمطر القيظ ، ثم سمّي الزمان به فجرى[3] .

وترتبط مسميات الفصول ارتباطاً متيناً مع مواسم الحصاد . ففي أحد النصوص: (صربم وقيضم)[4] ، ومعناه (شتاء وصيف) ، ويظهر أن صاحبه قصد من لفظة (صربم) الحصاد الذي يتم في أول موسم الشتاء[5] . وأما (قيض) ، فهو الصيف ، حيث تشتد الحرارة فيه . وفي نص آخر: (قيض ودثا وصرب وميلم)[6] وكلمة (ميلم) يجب أن تؤدي معنى الخريف،إذ القيض ، هو الصيف و(دثا) الربيع و (صرب) الشتاء ، فتكون لفظة (ميلم) بمعنى الخريف إذن ، وربما الحصاد ، أي الحصاد الذي يجمع في آخر الشتاء ، قبل هطول أمطار الربيع[7] .

وفي الربيع والخريف تتساقط الأمطار الفصلية في العربية الجنوبية ، تتساقط الأمطار الربيعية في شهري آذار ونيسان. وأما أمطار الخريف القوية الثقيلة ، فتهطل في تموز (جولاي) وآب (أغسطس) وأيلول (سبتمبر) . وتعرف أمطار الخريف فتسمى بـ (خرف) (خريف) . دعيا بذلك لنزولها في هذين الموسمين . والى هذين الفصلين أشار (بلينيوس) Pliny حين قال إن العرب الجنوبيين

---

١ المخصص (٧٩/٩) ، الانواء (ص ١٠٤ وما بعدها) .
٢ Mitt., S. 62, 65, 71, Rep. Epi., 4250.
٣ المخصص (٨٠/٩) .
٤ Rep. Epig. 4230/8.
٥ Beeston, p. 20.
٦ CIH 174/4.
٧ Beeston, p. 20.

يسمّون غلة البخور التي يجمعونها في فصل الخريف باسم Dathiathum ، ويسمون الغلة التي تجمع من هذه المادة في فصل الصيف بـ Carfiathum . والكلمة الأولى هي تحريف للفظة (خريف) . وأما الثانية ، فتحريف للفظة (دثا) ، أي الربيع[1].

وقد دخلت التسميتان بواسطة التجارة والتجار الى اليونان ، ولا شك . وهما تسميتان واضحتان صحيحتان .

وتؤدي لفظتا (دثا) و (خرفن) معنى الأمطار الموسمية في الغالب، أي أمطار الربيع وأمطار الخريف في بعض الكتابات[2] . وقد تؤديا معنى (الغلات) أي (فرع) ، التي تجمع في موسمي الربيع والخريف[3] .

ولدينا نص طريف يفيد أن أصحابه قد أذنبوا بعدم ايفائهم بما نذروه لآلهتهم وكان عليهم الوفاء به في (ذ موصبم) كما عاهدوا آلهتهم . ولمخالفتهم عهدهم هذا ، أرسلت الآلهة عليهم سيلاً جارفاً من أمطار شديدة سقطت في موسمي الربيع والخريف ، فأتلفت زرعهم وأصابتهم بضرر كبير ، واعترافاً منهم بتقصيرهم هذا وبذنبهم ، كتبوا النص المذكور ، وقدموا نذرهم كاملاً ، راجين من الآلهة الصفح عن ذنبهم والعفو عنهم ، وأن تبارك في زرعهم ، وأن تعوضهم عن خسارتهم التي أصابتهم بغلة وافرة وحاصل غزير[4] .

الشهور :

وتتألف السنة عند العرب الشماليين من اثني عشر شهراً ، وقد أشير الى ذلك في القرآن : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله . يوم خلق السماوات والأرض ، منها أربعة حرم »[5] . وهو التقسيم الشائع المعروف عند بقية الساميين واليونان وغيرهم . والمعمول به حتى اليوم . ولم ترد إشارة الى هذا التقسيم في نصوص المسند ، ولكن ورود ذكر السنين والشهور في كتابات

---

١ Pliny, Hist. Nat., XII, 60, Beesten, p. 19, CIH 540, 547.
٢ CIH 547, 540.
٣ CIH 2.
٤ CIH 547, Beeston, p. 20 f.
٥ التوبة ، رقم ٩ ، الاية ٣٧ ، ابن الاجدابي (٣٠) .

المسند ، واستعمال العرب الشماليين وغيرهم التقسيم الاثني عشري للسنة ، يحملنا على القول إن العرب الجنوبيين كانوا يقسمون السنة الى اثني عشر شهراً أيضاً ، وان لم ينص على ذلك في النصوص .

وقد لاحظ (رودوكناكس) أن المزارعين المحدثين في العربية الجنوبية يسيرون بموجب تقويم فلكي Sidereal Calender ، يقسم السنة الى ثمانية وعشرين شهراً ، مدة كل شهر ثلاثة عشر يوماً ، فاستنتج من ذلك احتمال كون هذا التقويم من بقايا تقويم عربي جنوبي كان العرب الجنوبيون يسيرون عليه قبل الإسلام . ولهذا رأى أن (ذ فرع) و (ذا جبي) (ذا جبو) ، لا يمثلان شهرين من شهور السنة ، وإنما يمثلان وقتاً من أوقات العمل والزرع ، بالمصطلح المستعمل الآن في العربية الجنوبية ، أي جزءين من (٢٨) جزءاً من أجزاء السنة[١] . وذهب (بيستن) الى احتمال تقسيم العرب الجنوبيين للشهر الى ثلاثة أقسام ، يتكون كل قسم منها من عشرة أيام[٢] .

ويرى (رودوكناكس) أن سنة العمل عند القبائل تبدأ باليوم الأول من شهر (ذ فرعم) (ذو فرعم) (ذو الفرع) ، وتمتد الى اليوم السادس من (ذ فقحو) ، ويرى أن السنة عند الفلاحين ، تتكون من (٣٦٠) يوماً ، أما الأيام الباقية وهي ما بين (٥) و (٦) ، فتضاف الى أحد الأشهر وتأخذ اسمه ، فتكون السنة بهذا العمل سنة شمسية كاملة . ويحتفل الفلاحون عند انتهاء تقويمهم الزراعي بانتهاء السنة ، حيث يعيدون عيداً يسمونه (مصب) ، (مصوب) ، ويعد شهر (فرعم) الشهر الأول من السنة الزراعية ، حيث تزهر الأشجار ، وتظهر الأوراق . وتختلف هذه السنة عن سني التقويم الرسمي الذي تسير عليه الحكومة في جباية استحقاقها من حاصل الزرع[٣] .

والإهلال هو المبدأ الذي سار عليه الجاهليون في تعيين أوائل الشهور[٤] . فإذا اختفى القمر في آخر الشهر ولم يظهر ، خرجوا لمراقبة الهلال وتثبيت مبدأ الشهر .

---

١ Beeston, p. 4, R.B. Serjeant, Star Calendero and an Almanac from South West Arabia, in Anthropos, Bd. 49, 1954, S. 433.

٢ Beeston, p. 5.

٣ Rhodokanakis, Katab. Texte II, S. 19 ff.

٤ صبح الاعشى (٣٦٩/٢) ، نهاية الارب (١٥٦/٣) .

وقد كانوا يعدون الرؤية من الحوادث المؤثرة في حياة الشخص . من حيث جلب النحس والسعادة للمستهل . ولهذا كانوا ينظرون الى المناظر الجميلة حين الاستهلال، لاعتقادهم أن ذلك يجلب لهم البركة والخير . والشهر كما جاء في الحديث : «مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين »[1] ، أي يوماً .

ويعبر عن الشهر بلفظة (ورخ) في العربيات الجنوبية . والجمع (اورخم) (اورخ) . ولفظة (ورخ) تعني القمر في عربية القرآن الكريم . وهي من الألفاظ السامية القديمة ، وتؤدي معنى (ارخ) وتأريخ أيضاً[2] . فكان العرب الجنوبيون إذا أرادوا التأريخ بالأشهر ، قالوا : « ورخ كذا ... » ، أي « شهر كذا ... » . والتوريخ بالشهور لا يعني أن العرب الجنوبيين أو غيرهم من العرب ، كانوا لا يؤرخون إلا بالتقويم القمري ، وأنهم لم يكونوا يستعملون غير هذا التقويم . فقد كان غيرهم يؤرخون بالشهور القمرية كذلك ، وكانوا مع ذلك يؤرخون بالتقويم الشمسي ، أو بالتقويمين .

ولا تعني لفظة (ورخ) التي هي (الشهر) أن العرب الجنوبيين كانوا يتبعون تقويماً قمرياً ، بسبب أن لفظة (ورخ) تعني (قمر) في الأصل ، فالانكليز يستعملون لفظة Month بمعنى الشهر ، وهي من أصل Moon أي القمر ، ومع ذلك فإن شهورهم شمسية ، ولفظة (الشهر) نستعملها في عربيتنا ، هي في معنى (ورخ) في الأصل . فالشهر : القمر ، والهلال[3] . أي مرادف (ورخ) تماماً . وقد سمي الشهر به ، لأنهم كانوا يوقتون به ، فالمدة التي تمضي بين هلال وهلال جديد ، هي شهر . نسي المعنى الأصلي للكلمة ، وبقي الاصطلاح ومن ذلك قولهم : أشهروا ، بمعنى أتى عليهم شهر ، وشاهره مشاهرة وشهاراً ، استأجره للشهر[4] .

ووردت لفظة (شهر) بمعنى هلال في العربيات الجنوبية ، وذلك كما في هذه الجملة : « بيوم شهرم ويوم ثنيم ذنم »[5] ، أي « بيوم الهلال ، وبيوم

---

١ ارشاد الساري (٣/٣٥٩) .

٢ نص ابنة Rhodokanakis, Stud. II, S. 48, Bruno Meissner Supplement nyu den Assyrischen Worterbüchern, Leiden, 1891, S. 16.

٣ تاج العروس (٣/٣٢١) ، (شهر) .

٤ تاج العروس (٣/٣٢١) ، (شهر) .

٥ Jamme 651, 19.

المطر الثاني » ، أو بعبارة أخرى « يوم الاهلال ، وزمان سقوط المطر الثاني » .

وقد وردت في كتابات المسند أسماء عدد من الأشهر ، يتبين من دراستها أن بعضها وارد في نصوص لهجتين مثل لهجة معين وسبأ ، ولهجة سبأ وقتبان ، مما يدل على أنها كانت مشتركة ومستعملة عند المعينيين والسبئيين ، أو عند السبئيين والقتبانيين . ولكن الأغلب انفراد كل لهجة بتسمية شهر ، بدليل ما نجده في كتابات كل لهجة من اللهجات التي نعرفها من أسماء أشهر لا ترد في الكتابات الأخرى . ومن الأشهر المشتركة التي ورد اسمها في كتابات سبئية ومعينية ، شهر (ذ دثا) وشهر (ذ سحر) ، وقد ورد اسمه في كتابات سبئية وقتبانية ، و (ذ ابهى) (ذ ابهو) ، وقد ورد في كتابات معينية وسبئية وقتبانية كذلك[1].

وعثر على أسماء هذه الشهور في النصوص المعينية : (ذ ابهى) (ذو أبهى)، و (ذ ابرهن) ، و (ذ اثرت) ، (ذو عشرة) ، و (دثا)، و (ذ حضر)، و (ذ طنفت) ، و (ذ نور) ، و (ذ سمع) ، و (ذ شمس)[2] .

ومن الشهور الواردة في كتابات السبئيين المتقدمة : (ورخ ذا بهي) ، أي شهر ذو أبهى ، و (ورخ ذ دنم)[3] ، و (ورخ دثا) ، (ذ دثا) ، و (ورخ ذ نيلم) ، و (ورخ ذ نسور) ، و (ورخ ذ سحر)، و(ورخ ذ فلسم) ، و (ورخ ذ قيضن) ، و (ورخ صربن) ، و (ورخ صر)، و (ورخ ذ الالت) ، و (ملت)[4] ، و (ذ عثتر) ، و (ذ موصبم)، و (ذ مخضدم)[5] . وشهور أخرى .

أما الشهور : (ورخن ذ الالت) ، و (ورخ ذ داون) و (ورخو ذ حجتن) و (ورخ ذ خرف) و (ورخو ذو مذران) و (ورخن ذ مهلتن) و (ورخن ذ محجتن) و (ورخ ذ معن) و (ورخ ذ صربن) و (ورخو

---

١ تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي (٥/٢٣٤ وما بعدها) ،
Rhodokanakis, Kataba. I, S. 133, Beeston, p. 10,
Rhodokanakis, Studi. II, S. 141, Sab. Denkm. 21, CIH 380.

٢ Beeston, p. 10.

٣ « بورخ ذ دونم » ، Rhodokanakis, Studi. II, S. 75 ZDMG. 29.

٤ Beeston, p. 12 f.

٥ CIH 547.

ذ قيضن) و (ورخ ذ ثبتن) ، فإنها من الشهور الواردة في الكتابات السبئية المتأخرة[1] .

ويظهر من اسم الشهر (ورخن ذ الالت) (ذ ا ل ا ل ت)[2] ، و (ورخن ذ حجتن) ، أن لها صلة بالحياة الدينية عندهم . فورخن ذ الالت معناه شهر الآلهة . فالظاهر أنه شهر خصص بالآلهة ، كانوا يتقربون فيه اليها بالنذور مثلاً أو العبادة . فهو شهر مقدس ، ربما يكون مثل شهر (رمضان) في الإسلام . وأما (ورخن ذ حجتن) ، فمعناه (شهر الحج) ، فهو شهر يحج فيه الى الأصنام ، على نحو (شهر ذي الحجة) في الإسلام .

أما الشهور القتبانية التي وردت أسماؤها في كتاباتهم ، فهي : (ورخس ذ ابهو) و (ورخس ذ برم) و (ورخس ذ بشمم) و (ورخس ذ مسلعت) و (ورخس ذ سحر) و (ورخس ذ عم) و (ورخس ذ تمنع) و(ورخس ذ فرعم) ، و (ورخ ذ فقهو)[3] . ويلاحظ أن اللهجة القتبانية تضع حرف (و) في نهاية (ابهى) (فقهى) ، فتقول : (ذ ابهو) ، و (ذ فقهو) بدلاً من (ذ ابهى) و (ذ فقهى) كما هو الحال في اللهجات الأخرى ، مما يدل على ان هذا الحرف ، هو من خصائص هذه اللهجة[4] .

وذكر (بيستن) أن الكتابات الحضرمية لم تذكر من أسماء الشهور إلا اسم شهر واحد ، هو (ورخس ذ صيد)[5] .

ويلاحظ ورود لفظي (قد من) و (اخرن) مع أسماء بعض الأشهر كما في هذه الجمل : (ورخ ذ نسور قد من) و (ورخ ذ نسور اخرن) ، و (ورخس ذ برم قد من) ، و (ذ برم اخرن)[6] . ومعناها : (شهر

---

١ Beeston, p. 13 f.

٢ Jamme 642, 6, Mahram, p. 141.

٣ Rhodokanakis, Katab. I, S. 96, II, S. 5, Glaser, 1396, 1310, Die inschri. an der Mauer von Kohlan — Tamna' 1924, S. 15, SE80, Beeston, p. 11 f.

٤ Beeston, p. 41, note : 4.

٥ Beeston, p. 15.

٦ Rhodokanakis, Die Inschri. an der Maner von Koblan — Timna' 1924, S. 52 ff., Glaser 1609, Beeston, pp. 11, 13, REP. EPIG. 3688, 3879.

ذو نسور الأول) و (شهر ذو نسور الثـاني) و (ذو نسور الآخـر) ، و (شهر ذو برم الأول) و (شهـر ذو برم الآخر) . وذلك أن لفظة : (قد من) تعني (الأقدم) و (الأول) . وأما (اخرن) ، فتعني «المتأخر والثـاني والآخر » . وذلك كما نفعل نحن اليوم إذ نقول (شهر ربيع الأول) و (شهر ربيع الآخر) و (جمادى الأولى) و (جمادى الآخـرة) في التقويم الهجري ، و (كانون الأول) و (كانون الثاني) في التقويم الميلادي .

ويتبين من استعمال اللفظتين المذكورتين أن بعض العرب الجنوبيين ، ويجـوز أن يكونوا كلهم ، كانوا كالعرب الشماليين ومثل بعض الساميين ، قد استعملوا اسماً واحداً لشهرين ، وللتفريق بينهما أطلقوا لفظة (قد من) بعـد اسم الشهر الأول ، لتمييزه عن سميّه الشهر التالي له ، ولفظة (اخرن) أي المتأخر والتالي أو الثاني بعد اسم الشهر الثاني لتمييزه عن الأول المتقدم عليه .

ويظن أن شهر (ذ برم اخرن) ، (ذ برم الآخر) (ذ برم التـالي) أو (الثاني) إنما هو من شهور (الكبس) ، ولهذا فهو لا يكون في كل سنة ، بل في السنين المكبوسة فقط[1] .

ويظهر من دراسة بعض الأسماء أن لبعضها معاني ذات علاقة بالجو ، ولبعض آخر علاقة بالحياة الدينية أو بالناحية الزراعية . ومن النوع الأول : (ذ دثا) ، (ذو دثا) وله معنى الربيع ، وهو مثل شهر (ربيع الأول) أو (ربيع الآخر) في التقويم الهجري . فـ (دثا) هو الربيع في المسند[2] . وأما شهر (ذ خرف) فإن له صلة بموسم الخريف ، وقد يكون من شهور هذا الموسم . و (خرف) بمعنى (الخريف) الموسم المعروف بلغتنا ، وبمعنى سنة[3] . وأما شهر (ذ قيضن) فإنـه من أشهر القيظ ، والقيظ هـو الحرّ ، فهو شهر من أشهر الصيف . و (القيض) ، بمعنى الصيف كذلك ، والموسم الذي تنضج ثمار الصيف فيه[4] .

ومن الشهور التي لها علاقة بالزراعة ، شهر (ذ مذرن) ، (ذ مذران)

---

١ Beeston, p. 12.

٢ Jamme 610, 615, 618, 623, 627, 628, 650, 661, 666, 704.

٣ Mahram, p. 437.

٤ Mahram, p. 447.

(ذو مذران) ، ومعناه شهر البذر ، ولعله دعي بذلك لأن الزرّاع كانوا يبذرون بذورهم للزرع فيه . وشهر (ذ صربن) ، (ذو صربن) . وهو من أشهر الخريف ، قد يكون في أوله وقد يكون في أواخره ، أي في ابتداء الشتاء، وهو يقابل شهر (صراب) من الأشهر المستعملة في العربية الجنوبية في أيامنا هذه . و (صربن) (صراب) ، بمعنى أثمار الخريف وحاصل الخريف ، أي غلة الخريف[1] .

ويرى بعض الباحثين أن لشهر (ذ ثبتن) علاقة بالزراعة كذلك ، وأنه يعني الشهر الذي تتهاطل فيه الأمطار ، وتجمع فيه السيول لخزنها في السدود ، وأن لشهر (ذ مهلتن) علاقة بالزراعة كذلك ، وأن في معناه (المهلة) أي التأخير في عمليات الزرع أو جمع الحاصل[2] .

ويظن أن للشهرين (ذ دونم) (ذ دنم)[3] و (ذ نيلم) علاقة بالزراعة كذلك . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن معنى (دونم) (دينم) الدين ، وأن المراد بها الشهر الذي تجمع فيه ديوان المعبد . أي ضرائب المعبد . وذهب بعض آخر الى أن اللفظة من أصل (دون) ، ومعناها الإرواء والإسقاء ، وأن لهذا الشهر علاقة اذن بشؤون الري . وأما (ذ نيلم) ، فإنه شهر حصاد الغلات وجمع الحبوب[4] .

ومن الشهور التي لها علاقة بالحياة الدينية ، (ذ عثتر) و (ذ الالت) و (ذ حجتن) و (ذ محجتن) و (ذ شمسى) وغيرها . وشهر (ذو عثتر) منسوب الى الإلـه (عثتر)[5] . وأما (ذ الالت) ، فبيّن الدلالة على المعنى الديني كذلك . فإنه يعني شهر الآلهة . وأما (ذ حجتن) و (ذ محجتن) ، فهو مثل شهر (ذي الحجة في التقويم الهجري وفي معناه . وأما (ذ شمسى) (ذو شمس) فيجوز أن يكون نسبة الى الآلهة الشمس من الناحية الدينية ، ويجوز أن يكون نسبة الى الشمس من ناحية تأثيرها في الجو ، أي من ناحية تأثير حرارة

---

١ Jamme 594, 617, 631, 651, 655, 719.

٢ Beeston, p. 17.

٣ Jamme 633, 16'. « ورخ ذ دنم »

٤ Beeston, p. 17.

٥ Jamme 611, 7-8, Mahram, p. 108.

أشعتها في الناس وفي المزروعات . وذلك بكونه من أشد الشهور حرّاً ، فيكون هذا الشهر بذلك من أشهر الصيف .

ويفهم من جملة : « ورخ ذ هبس وعثتر » ، أن هناك شهراً اسمه شهر (هوبس وعثتر) ، أو شهراً اسمه (هوبس) ، نسبة إلى الإلـه (هوبس) وشهراً آخر اسمه (عثتر) ، نسبة إلى الإلـه (عثتر)[1] . وورد اسم الشهر (ورخ ذ عثتر) في جملة نصوص[2] .

والأشهر التي لها صلة بالحياة الدينية ، هي : (شهر الآلهة) (ورخ ذ ال ا ت) (ذ الالت) ، و (شهر ذ حجتن) ، (ورخ ذ حجتن) ، و (شهر ذ محجتن) ، (ورخ دمحجتن) ، أي شهر المحجة . ويصعب في الوقت الحاضر علينا تثبيت أوقات هذه الأشهر المقدسة بالنسبة للمواسم ولترتيب الشهور ، لعدم وجود أدلة يمكن أن نستخرجها من النصوص لتثبيت زمن الحج عندهم مثلاً ، أو زمن الشهر المخصص للآلهة .

ونجد أسماء بعض الشهور مثل : (ذ سمع) ، تمثل صفة من صفات الآلهة . فـ (ذ سمع) يعني (ذو السمع) ، فالآلهة تسمع الناس وتجيب دعواتهم . كما نجد أسماء شهور أخرى تشير الى أمور دينية وطقوس . مثل شهر (ذ حضر)، فإنه شهر الأضاحي ، من (حضر) بمعنى ضحى ، أي ذبح ذبيحة للآلهة ، ومثل شهر (ابر) ، ومعناه (شهر حرق البخور) ، أو تقديم النذور ، أو النذور التي تقدم لمحارق الآلهة . وربما أدى اسم شهر (ذ نور) هذا المعنى أيضاً ، فـ (نور) بمعنى نار . فيكون المعنى شهر النيران .

وقد ورد اسم الشهر (ورخ ذ ملت) ، (ورخ ذ مليت) في عدد من النصوص[3] . وهو من الأشهر التي لها صلة بموسم الزرع والمواسم . وهذه الأشهر هي : (ذ دئسا) ، و (ذ ملت) (ذ مليت) ، و (ذ قيضن) ، و (ذ دنم) (ذ دونم) ، و (ذ نيلم) .

ومن الشهور الواردة في نصوص (هرم)،شهر (ذ سلام) (ورخ ذ س ل ا م).

---

١ راجع السطر ٧ ــ ٨ من النص : Jamme 611, MaMB 277.

٢ Jamme 567, 6-7, 607.

٣ Jamme 613, 10, 653, 10, 14.

وهناك احتمال بأن : (ذ موص ب م) ، و (ذ عثتر) ، و (ذ مخضدم) ، هي أسماء شهور كذلك . وقد ورد : (حين ذ مخضدم قد متن) ، مما يدل على أن اسم هذا الشهر هو مؤنث ، وهو الشهر الأول ، لوجود لفظة (قد متن) وأن هنالك شهراً آخر ، يمكن تسميته بـ (حين مخضدم الثاني)[1] .

ويظهر من أسماء هذه الشهور المتقدمة ، أن العرب الجنوبيين ، كانوا يسمون بعض أشهرهم بما يقع فيها من حوادث مهمة ، مثل موسم جمع الديون أو التعبد للآلهة أو لإلـه معين ، أو للحج إلى المعابد ، أو بالظواهر الطبيعية التي تمتاز بها مثل الحر أو البرد ، أو بموسم الصيد .

وقد حاول (بيستن) تثبيت بعض شهور العرب الجنوبيين بالنسبة إلى المواسم وإلى الأشهر المستعملة في الوقت الحاضر ، فذهب إلى أن شهر (ذ ثبتن) قد يكون هو شهر آذار أو شهر نيسان ، وأن شهر (ذ قيضن) ، أي شهر القيظ ، بمعنى الحر ، الذي يقابل (رمضان) قد يكون شهر (مايس) أو حزيران ، وأن شهري (ذ خرف) ، و (ذ مذرن) قد يكونا تموز إلى ايلول ، وأن شهر (ذ داون) ، قد يكون شهر (اكتوبر) (تشرين الأول) ، وأن شهر (ذ صربن) قد يكون شهر (نوفمبر) (تشرين الثاني) ، وأن شهر (ذ معن) قد يقابل شهر (دسمبر) ، أي (كانون الأول)[2] .

وليس في امكاننا في الزمن الحاضر وضع تقاويم ثابتة كاملة للشهور في العربية الجنوبية . نعم ، يمكننا تثبيت بعضها استناداً الى معاني أسمائها كما رأينا ذلك فيما تقدم ، وذلك بأن نجعل الشهر الفلاني في الفصل الفلاني من فصول السنة مثلاً . ولكننا عاجزون عن ترتيب كل الشهور الإثني عشر ترتيباً زمنياً صحيحاً لنقص في علمنا بالشهور . ومن أجل الوصول الى ذلك ، لا بد من أن نتريث حتى تتهيأ لنا نصوص كثيرة جديدة ، قد تكون من بينها نصوص فلكية ، أو نصوص أخرى ترد فيها أسماء شهور جديدة ، وأسماء شهور مرتبة ترتيباً زمنياً يساعدنا على ترتيبها وتنظيمها في تقاويم منتظمة لمختلف القبائل العربية الجنوبية ودويلاتها . ولا بد لي هنا من الإشارة الى وجوب الاستعانة بالتقاويم المستعملة عند بقية الساميين

---

١ Beeston, p. 12.

٢ Beeston, p. 24.

وعند القبائل العربية الشمالية وعند القبائل الإفريقية التي كانت لها صلات بالعرب الجنوبيين ، لمطابقة شهورها على شهور التقاويم العربية الجنوبية وتثبيتها عندئذ على هذا الأساس .

ولم ترد في كتابات المسند أسماء الشهور المستعملة عند الشعوب السامية الشمالية، وهي : نيسان ومايس وحزيران وتموز وآب وايلول وتشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني وشباط وآذار .

ويظهر أن سنة العرب الجنوبيين ، كانت تتكون من (٣٦٠) يوماً ، مقسمة على اثني عشر شهراً ، ولأجل جعل هـذه السنة سنة طبيعية كاملة ، متفقة مع الدورة السنوية الحقيقيـة للأرض ، كانوا يعالجون ذلك بالكبس . إما بكبس بقية الأيام على السنة نفسها ، ويتم ذلك في كل سنة ، وإما بإضافة شهر إضافي على التقويم في نهاية كل ثلاث سنين[1] .

وربما يدل اسم الشهر (ذ برم اخرن) ، (ذو برم الآخـر) ، وهو من شهور قتبان ، على انه شهر كبس ، يضاف إلى سنـة الكبس لتكون سنة شمسية تامة . وربما أدى اسم الشهر : (ذ نسور اخـرن) ، وهو من شهور السبئيين هذا المعنى كذلك . وهناك شهر اسمه (بين خرفنهن) أي (بين الشهرين) ، ربما يدل على الكبس ، واضافة شهر بين الشهرين ، لتكون السنـة كاملة ، أي كبس شهر على السنة الاعتيادية ، فتكون عدتها ثلاثة عشر شهراً ، وذلك بعـد السنين اللازمة ، لإصلاح التقويم ، حتى يكون مطابقاً لدورة الأرض حول الشمس[2] . وقد كان العبرانيون يضيفون شهراً عـلى تقويمهم بسبب أن الشهور الاثني عشر القمرية لم تكن إلا (٣٥٤) يوماً وست ساعات ، فنقصت بذلك السنة اليهودية أحد عشر يوماً عن الرومانية ، ولسبب ذلك أدخل اليهود شهراً ثالث عشر كل ثلاث سنوات ، سمّوه (فيادارا) ، أي (آذار الثاني) ، وهكذا جعلوا طول السنة القمرية يعادل الشمسية تقريباً[3] .

وقد ورد في النصوص اللحيانية اسم (منر) ، يظهر أنه اسم شهر ، يقـال

---

١ Beeston, p. 18.

٢ Beeston, p. 18.

٣ قاموس الكتاب المقدس (١/٦٣٩ وما بعدها) .

له (مـــنر) ، أي (منير)[1] . واسم آخر هو (سمر) ، يظهو انه اسم شهر كذلك .

أما النصوص العربية الشمالية ، فهي بخيلة كل البخل في ايراد أسماء الشهور ، فلم يرد في النصوص العربية الخمسة المدوّنة بعربية قريبة من عربية القرآن الكريم من أسماء الشهور ، إلا اسم شهر واحد ، هو (كسلول) . وقـد ورد اسمه في (نص النمارة) . ويقابل هذا الشهر ، كانون الأول . ويدل استعمال النص لهذه التسمية على أن العرب الشماليين ، كانوا يستعملون التقويم البابلي في التأريخ .

و (كسلول) ، هو الشهر التاسع من الشهور المتـــداولة في العراق وفي بلاد الشأم . وأصله (كسلو) ، وهو بابلي . وهذه الشهور هي : نيسان ، وزيو ، وسيوان ، وتموز ، وآب ، وايلول ، وايثانيم ، وبول ، وكسلو ، وطيبيت ، وشباط ، وآذار . وهي الشهور المقدسة عند العبرانيين[2] . ويقال لشهر نيسان شهر (أبيب) ، ولشهر (زيف) (أيارا) ، وأما (سيوان) فهو (سيوان) وتموز هو تموز ، وآب هو آب ، وأما أيلول فهـــو أيلول ، وأما ايثانيم فهو تشرى (تسرى) و (تشريتو) ، وأما (بول) فهو مرشوان ، وكسلو هو (كسلو) ، و (طيبت) هو (تبت) ، ويسمى بـ (تمطرو) أيضاً . وأما (شباط) فهو (سبت) (شبات) ، وأما (اذار) فهو آذار[3] .

وقد ذكر الأخباريون أسماء أشهر ترك استعمالها في الاسلام ، ذكروا انها كانت مستعملة عند قدماء الجاهلية ، وهم العرب العاربة ، كما ذكروا أسماء شهور قالوا انها كانت أسماء الشهور عند ثمود ، وأسماء شهور قالوا انهـــا الشهور التي كان يستعملها العرب عند ظهور الاسلام .

أما الشهور التي زعموا انها كانت شهور العرب العاربة ، فهي : المؤتمر ، وقد زعموا انه في مقابل المحرم ، وناجر ، وهو في موضع صفر ، وخوّان (وروي حوّان) ويقابل ربيعاً الأول ، ووبصان (ويقـال صوان وبصان) ، وهـو في مقابل ربيع الآخر ، والحنين أو شيبان ، وهو جمادى الأولى ، وملحـــان وهو

---

١ Caskel, Lihyan, S. 129, 127.

٢ قاموس الكتاب المقدس (١/٦٣٩) ، (شهر) ، Hastings, p. 936.

٣ The Bible Dictionary, vol. II, p. 182.

جمادى الآخرة ، والأصم ، وهو شهر رجب ، وعاذل (عادل) ، وهو شعبان ، وناتق ، وهو شهر رمضان ، ووعل وهو شوّال ، ورنة ، وهو ذو القعدة ، وبرك وهو ذو الحجة . وذكر بعضهم أن خوّاناً اسم يوم من أيام الأسبوع ، وأن شيبان اسم كانون الأول ، وأن ملحاناً هو كانون الثاني . وهذا الترتيب الذي ذكرته هو كما جاء في رواية ابن سيدة [1] .

وذكر الفرّاء أن من العرب من سمّى المحرم المؤتمر ، وصفر ناجراً ، وربيع الأول خواناً ، وربيع الآخر بصان أو وبصان أو بوصان، وجمادى الأولى الحنين [2]، وجمادى الآخرة ورنة (ورنى) ، ورجب الأصم ، وشعبان وعلاً ، ورمضان ناتقاً ، وشوّال عاذلاً ، وذو القعدة هُواعاً ، وذ الحجة بركاً [3] . وذكرها غيره على هذا النحو : المؤتمر وهو المحرم ، وناجر وهو صفر . وخوّان ، وهو ربيع الأول ، ووبصان وهو ربيع الآخر ، وحنين وهو جمادى الأولى . وربي وربة لجمادى الآخرة . والأصم وهو رجب . وعادل وهو شعبان وناتق وهو رمضان . ووعل وهو شوال ، وورنة وهو ذو القعدة ، وبرك وهو ذو الحجة [4] .

ورتب المسعودي أسماء الشهور الجاهلية على هذا النحو : ناتق ، وثقيل ، وطليق ، وناجر ، وسماح (أسلخ) ، وأمنح (أميح) ، وأحلك ، وكسع ، وزاهر ، وبرط ، وحرف ، ونعس . وجعلها في مقابل المحرم ، وصفر ، فبقية الشهور . وذكر أن (نعساً) هو ذو الحجة [5] .

ورتبها البيروني على هذا النحو : المؤتمر ، وناجر ، وخوّان (حوّان) ، وصوان ، وحنتم أو حنين ، وزبّاء ، والأصم ، وعادل ، ونافق ، وواغل ، وهواع أو رنة ، وبُرَك [6] .

---

١ المخصص (٩/٤٣) ، الايام والليالي والشهور ، للفراء ، القاهرة ، ١٩٥٦ م (ص ١٨) ، المزهر (١/٢١٩) .

٢ بالفتح وبالضم ، المرزوقي (١/٢٧٩ وما بعدها) ، المزهر (١/٢٢٠) ، نزهة الجليس (١/٢١٨) .

٣ الايام والليالي والشهور ، للفراء ، (ص ١٧ وما بعدها) .

٤ صبح الاعشى (٢/٣٧٨ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٢٠) ، (أمر) .

٥ مروج الذهب (٢/١١٠) ، (٢/١٩١) ، (دار الاندلس) .

٦ الاثار الباقية (١/٦٠) « طبعة سخاو » ، « لايبزك ١٨٧٦ م » ، التقاويم (ص ١٦٧) .

ورتبها آخرون على هذا النحو : مؤتمر ، وناجر ، وحوّان (بالحاء المهملة والخاء المعجمة) ، وصوان ويقال فيه وبصان ، ورُبى ، وأيدة ، والأصم ، وعادل ، وناطل ، وواغل ، وورنة ، وبرك[1] . أو على هذا النحو : ناتق ، ونقيل ، وطليق ، واسنح ، وانخ ، وحلك ، وكسح ، وزاهـــر ، ونوط ، وحرف ، ويغش .

وذكرها بعض آخر على هذا النحو : مؤتمر ، وناجر ، وخوّان ، وصوان، أو (وبصان) ، و (حنين) ورُبيّ ، وأيدة ، والأصم ، وعادل ، وناطل، وواغل ، وورنـــة ، وبرك . أو هي : ناتق ، ونقيل ، وطليق ، وأسنح ، وأنخ ، وحلك ، وكسح ، وزاهر ، ونوط ، وحرف ، ويغش . وهناك من يقول : مؤتمر ، وناجر ، وخـــوان ، وصوان ، وحتم ، وزبا ، والأصم ، وعادل ، وناقق ، وواغل ، وهواع ، وبرك ، وما شاكل ذلك . وهناك آراء أخرى في ترتيب هذه الشهور وفي ضبط هذه الأسماء[2] .

وذكر علماء اللغة أن الخالص من الشتاء عند العرب شهران ، يطلقـون عليها (قماحاً) ، ويقال للشهرين : ملحان وشيبان[3] .

ويسمّون شهري القيظ الذي يخلص فيهما حرّه، شهري ناجر ، وذكر أنهما: وقدة وعكّان . وهذان الشهران هما بيضة الصيف[4] .

وذكر علماء اللغـــة كذلك ، أن شهرا (قماح) شهرا الكانون لأنهما يكره فيهما شرب الماء الا على ثفل . قال مالك بن خالد الهذلي :

فتى ما ابن الأغرّ إذا شتونا وحب الزاد في شهري قماح[5]

و (ملحان) اسم شهر جمادى الآخرة ، سمي بذلك لابيضاضه ، قال الكميت:

---

١ نهاية الارب (١٥٧/١) .

٢ وسيان وبصان اذا ما عددته وبرك لعمري في الحساب سواء
صبـــح الاعشى (٣٦٨/٢ وما بعدها) ، تـــاج العروس (٤٤٤/٤) ، اللســـان (٣٧٤/٨) .

٣ الانواء (ص ١٠٥ وما بعدها) ، المزوقي (٢٧٩/١) .

٤ الانواء (ص ١٠٦ وما بعدها) .

٥ تاج العروس (٢٠٩/٢) .

إذا أمست الآفاق حمراً جنوبها لشيبان أو ملحان واليوم أشهب

شيبان جمادى الأولى ، وقيل كانون الأول ، وملحان كانون الثاني[1] . وورد أن (شيبان) ، شهر فيه برد وغيم وصراد ، و (قماح) أشد الشهور برداً . وهما اللذان يقول من لا يعرفها كانون الأول وكانون الثاني[2] .

ويتبين من البيت المنسوب الى (الكميت) انهما كانا معروفين في أيامه .

وأما شهور ثمود على حد زعم الأخباريين ، فهي : موجب ، وموجر ، ومور (مورد) ، وملزم ، ومصدر ، وهوبر ، وهوبل ، وموها ، وذيمر (ديمر) ، ودابر (دابل) ، وحيقل ، ومسيل (مسل)[3] . وضبطها بعض آخر على هذا النحو : موجب ، وموجز ، ومورد ، وملزج ، ومصدر ، وهوبر ، وميل ، وموهب ، وذيمر ، وجيقل ، ومحلس ، ومسبل[4] . وموجب هو المحرم ، وموجر هو صفر . ويذكرون انهم كانوا يبدأون في تقويمهم بذيمر ، وهو شهر رمضان ، فيكون أول شهور السنة عندهم[5] .

وذكر أن (مُصْدِر) من أسماء جمادى الأولى[6] .

ونحن لا نستطيع في الوقت الحاضر التأكيد على أن هذه الشهور ، هي شهور (ثمود) ، كما لا نريد أن نقف منها موقفاً سلبياً ، فنقول إنها من مخترعات أهل الأخبار ، وضعوها على لسانهم وضعاً . وعندي أن من الخير لنا في الوقت الحاضر وجوب البحث عن كتابات ثمودية علنا نجد فيها أسماء أشهرهم .

أما الشهور التي ذكر الأخباريون أنها كانت مستعملة عند العرب حين ظهور الإسلام ، فهي : المحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وربيع الثاني ، وجمادى

---

١ تاج العروس (٢/٢٣٠) ، (ملح) .
٢ وقد أعاد ذكر بيت الكميت ولكن على هذه الصورة :
إذا أمست الافاق غبرا جنوبها بشيبان أو ملحان واليوم أشيب
تاج العروس (١/٣٢٨) ، (شاب) .
٣ بلوغ الارب (٣/٧٦ وما بعدها) ، الاثار الباقية (١/٦٣) ، صبح الاعشى (٢/٣٦٨) .
٤ المزوقي (١/٢٨٣) .
٥ بلوغ الارب (٣/٧٦ وما بعدها) .
٦ اللسان (٤/٤٥٠) ، (صدر) .

الأولى،وجمادى الآخرة ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة، وذو الحجة . زعموا أن أسماءها وضعت على هذه الصورة باتفاق حال وقعت في كل شهر منها ، فسمي الشهر بها عند ابتداء الوضع . وذكروا التعليل الذي رووه عن كل تسمية . وذكروا أيضاً أن أول من سماها بهـذه الأسماء هو كلاب بن مرّة . ومن هذه الشهور أربعة حرم لا يجوز فيها غزو ولا قتال[1] . وقال (الطبري) : « وكان المشركون يسمون الأشهر : ذو الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع ، وربيع ، وجمادى ، وجمادى ، ورجب ، وشعبـان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة[2] .

ويذكر الأخباريون ان الاسم القديم للمحرم هو صفر،وانه كان يعرف عندهم بـ (صفر الأول) ، ثم قيل له (المحـرم) . وقد عرف الشهران : المحرم وصفر لذلك بـ (الصفرين)[3] . ويظن ان هذه التسمية الجديدة : أي المحـرم لصفر الأول انما ظهرت في الاسلام[4] . وذهب بعض علماء اللغة إلى أن لفظـة (موجب) هي الاسم العادي للمحرم . أي التسمية القديمة لهذا الشهر عند قدماء العرب[5] . فلفظة (محرم) اذن ، لم تكن تسمية لذلك الشهر ، وانما كانت صفة له ، لحرمته ، ثم غلبت عليه ، فصارت بمنزلة الاسم العلم عليه . وأما اسمه عند الجاهليين ، فهو : صفر ، أي صفر الأول ، تمييزاً له عن صفر الثاني ، الذي اختص بهذه التسمية أي (صفر) بعد تغلب لفظة (المحرم) على صفر الأول . بحيث صار لا يعرف إلا به ، فصار صفر لا يعرف بعد ذلك إلا بـ (صفر) . وقد تغلبت لفظة (محرم) عليه ، لأنه شهر من الأشهر الحرم ، فهو (صفر)

---

١ بلوغ الارب (٣/٧٨) ، صبح الاعشى (٢/٣٦٤ وما بعدهـا) ، نهايـة الارب (١/١٥٨) .

٢ تفسير الطبري (١٠/٩٢) ، صبح الاعشى (٢/٣٧٤ وما بعدها) .

٣ « اللهم اني قد أحللت لهم أحد الصفرين . الصفر الاول ، ونسأت الاخر العـام المقبل » ابن هشام (١/٤٥) ، « أول من نسأ الشهور » ، اللسان (٦/١٣٣) ، البخاري (٢/٢٥٧) ، تاج العروس (٣/٣٣٦) .

٤ تاج العروس (٣/٣٣٦) .

Reste, S. Raccolta, vol. V, p. 169, Winckler, Zur Altarabischen Zeitrechnaung, in Altorientalische Farschungen, II, Reihe, Bd. 2, S. 324, 1900, Arabisch — Orientalish, Berlin, 1901, S. 81, in MVG., VI, 4-5, 1901.

٥ تاج العروس (١/٥٠٢) .

المحرم ، تمييزاً له عن (صفر) الثاني ، الذي لم يكن من الأشهر الحرم . ثم غلب المحرم عليه ، وماتت لفظة صفر منه . قال (السخاوي) : « إن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً ، وعندي انه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه ، لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاماً وتحرمه عاماً »[1] .

وذكر أن المحرم لم يكن معروفاً في الجاهلية ، « وإنما كان يقال له ولصفر الصفرين ، وكان أول الصفرين من أشهر الحرم ، فكانت العربُ تارة تحرّمه ، وتارة تقاتل فيه ، وتحرم صفر الثاني مكانه » ، « فلما جاء الإسلام ، وأبطل ما كانوا يفعلونه من النسيء ، سماه النبي صلى الله عليه وسلم ، شهر الله المحرم»[2].

ويتبين من دراسة أسماء هذه الشهور أن منها ما هو تكرار للاسم الواحد،وهي ربيع الأول وربيع الثاني وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ، ومجموعها أربعة أشهر، فهي ثلث السنة إذن . وتقع في النصف الأول من السنة وعلى التوالي ، تليها أشهر مفردة ، ثم شهران يبتدىء اسماها المركبان بكلمة (ذو) ، وهما : ذو العقدة وذو الحجة ، وهما آخر شهور السنة . وإذا صحت رواية من قال ان الاسم القديم للمحرم هو صفر الأول ، كانت الأشهر المكونة للنصف الأول من السنة أشهراً مزدوجة تتألف من ثلاثة أزواج ، هي : صَفَران ورَبيعان وجماديان[3] .

وإذا درسنا أسماء هذه الشهور الجاهلية التي ذكرها أهل الأخبار ، وجدنا أنها لا تشبه أسماء الشهور البابلية ولا الشهور السريانية والعبرانية . وهي لا تشبه كذلك أسماء الشهور الواردة في المسند. فليس في الذي بين أيدينا من أسماء للشهور العربية الجنوبية على اختلافها ما يشبه هذه الشهور .

وقد انتبه علماء العربية الى أن أسماء بعض الأشهر التي استعملت في الاسلام ، مثل رمضان ، لا تنطبق مع المعاني التي يفهم منها ، فرمضان من الرمض، وهو الحر الشديد ، مما يدل على انه من أشهر الصيف ، بينما هو شهر متنقل ، يأتي في كل المواسم ، فلجأوا الى تعليل مصطنع ، على عادتهم عند وقوفهم على اسم لا يعرفون عن أصله شيئاً ، فقالوا : « يقال انهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة

---

١ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .
٢ المزهر (١/٣٠٠) .
٣ Reste, S. 95, Shorter, p. 409.

القديمة سمّوها بالأزمنة التي وقعت فيها ، فوافق شهر رمضان أيام رمض الحر ، فسمي بذلك »[1] ، ولم يعرفوا أن ذلك بسبب اتباع الاسلام التقويم القمري ، مما دعا الى تحرك الشهور وتنقلها في الفصول ، لكون الشهور القمرية غير ثابتة على نمط الشهور الشمسية .

ويبدأ الجاهليون بالمحرم ، فهو أول السنة عندهم[2] ، وهو أيضاً الشهر الأول من شهور السنة الهجرية في الاسلام . وأرى ان اتخاذ المسلمين للمحـرم ، مبدءاً للسنة الأولى من الهجرة ، وجعله الشهر الأول من التقويم الهجري ، هو من الأمور التي أبقاها الاسلام من أمور الجاهلية ، لأن هجرة الرسول الى المدينة لم تكن في شهر (محرم) حتى نقول إن المسلمين جعلوا (المحرم) الشهر الأول من السنة الهجرية ، لهذه المناسبة ، إذ كانت الهجرة في شهر ربيع الاول ، وأرخ بها[3] ، لذلك يكون الابتداء بشهر محرم ، هو اقرار لما كان عليه الجاهليون من ابتدائهم بـ (محرم) ، مبدءاً لشهور السنة . وقد قيل إن وصوله المدينة كان يوم الاثنين الثامن من ربيع الاول ؛ وقيل لثنتي عشرة منه ، وقيل دخل هلال ربيع الاول ، وقيل غير ذلك[4] .

وقد أورد العلماء شروحاً وتفسيرات لمعاني الشهور المتقدمة الجاهلية ، والشهور التي استعملت في الإسلام واقترنت بالتقويم الهجري . فذكروا مثـلاً أن المؤتمر معناه أن يأتمر بكل شيء مما تأتي به السنة من أقضيتها . وناجر من النجر ، وهو شدة الحر ، وخوان من الخيانة ، وصوان من الصيانة ، والزباء بمعنى الداهيـة العظيمة المتكاثفة سمّي بذلك لكثرة القتال فيه وتكاثفه ، والبائـد سُمي لأنه كان يبيد فيه كثير من الناس ، وكانوا يستعجلون فيه ويتوخون بلوغ ما كان لهم من الثأر والغارات قبل دخول شهر رجب وهو شهر حرام ، والأصم لأنهم كانـوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح . والواغل الداخل على شراب ولم يدعوه ، وذلك لهجومه على شهر رمضان ، وكان يكثر في رمضـان شربهم

---

١ المزهر (١/٢٢٠) .
٢ مروج الذهب (٢/١٨٨) ، (ذكر سني العرب وشهورها وتسمية أيامها ولياليها) .
٣ تاريخ الطبري (٤/٣٨) ، اليعقوبي (١/١٣٥) ، « أيام عمر بن الخطاب » ، ابن هشام ، سيرة (٢/١٥) ، (حاشية على الروض) .
٤ امتاع الاسماع (١/٤٤) .

للخمر ، لأن ما يتلوه شهور الحج ، وناطل مكيال للخمر ، سمي لإفراطهم في الشرب وكثرة استعمالهم لذلك المكيال ، والعادل من العدل ، لأنه من أشهر الحج، وكانوا يشتغلون فيه عن الناطل ، والرنة كانت الأنعام ترن فيه لقرب النحر ، وبرك سمي لبروك الإبل إذا أحضرت المنحر[1] .

وعللوا تسمية المحرم بهذا الاسم ، لكونه من جملة الحرم ، وصفر بالأسواق التي كانت باليمن تسمى الصفرية ، وشهري الربيع للزهر والأنوار وتواتر الأندية والأمطار ، وهو نسبة الى طبع الفصل الذي نسميه نحن الخريف ، وكانوا يسمونه ربيعاً ، وشهري جمادى لجمود الماء فيها ، ورجب لاعتمادهم الحركة فيه ، لا من جهة القتال ، أو لخوفهم إياه ، يقال : رجبت الشيء ، اذا خفته ، وشعبان لتشعب القبائل فيه ، ورمضان للحجارة ترمض فيه من شدة الحرّ ، وشوّال لارتفاع الحرّ وادباره ، وذي القعدة للزومهم منازلهم ، وذي الحجة لحجهم فيه[2] .

وعلل بعضهم تسمية الاشهر بقوله : سمي المحرم محرماً تأكيداً لتحريمه ، لأن العرب كانت تتقلب به ، فتحله عاماً وتحرمه عاماً ، وسمي صفر بذلك ، لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار . وشهر ربيع الاول ، سمي بذلك ، لارتباعهم فيه ، والارتباع الاقامة في عمارة الربيع ، وربيع الآخر كالاول . وجمادى : سمي بذلك لجمود الماء فيه . ورجب من الترجيب ، وهو التعظيم . وشعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة . ورمضان من شدة الرمضاء ، وهو الحر . وشوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق ، وذو القعدة ، لقعودهم فيه عن القتال والترحال ، وذو الحجة : لايقاعهم الحج فيه[3] .

ويظهر من تفسير أسماء بعض الاشهر وتعليلها أن لتسمياتها علاقة بالمواسم وبالعوارض الطبيعية الجوية مثل البرد والحر والاعتدال في الجو ، وأن مسمياتها ، أي الشهور المسماة بها ، كانت شهوراً ثابتة في الاصل ، وإلا فلا يعقل تفسيرها

---

١ الاثار الباقية (١/٦١) ، المرزوقي (١/٢٧٥ وما بعدها) .

٢ الاثار الباقية (١/٦٠) ، الفراء (ص ٩ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٧٨) ، المسعودي ، مروج (٢/١٨٨ وما بعدها) ، (ذكر سنى العرب وشهورها وتسمية أيامها ولياليها) ، وتجد تفسيرات عديدة أخرى في تعليل تسمية هذه الاشهر، تدل على أنها مما وضعه الرواة فيما بعد ، حينما احتاج الناس الى التعرف على سبب التسميات ، صبح الاعشى (٢/٣٧٥ وما بعدها) .

٣ ابن كثير (٢/٣٥٤) ، المسعودي ، مروج الذهب (٢/١٨٨ وما بعدها) .

بغير هذا التفسير . فكيف يسمى رمضان رمضان مثلاً لرمض الحجارة من شدة الحر فيه ، إن لم يكن ثابتاً وشهراً من أشهـــر الصيف الحارة ؟ وكيف يسمى جمادى بجمادى لجمود الماء فيه ، إن لم يكن هو والشهر التالي له والمسمى بجمادى الآخرة ثابتين ، ومن أشهر الشتاء ؟ وهكذا يجب أن يقال عن بقية الشهور ، وإلا لم يصح ما قيل فيها من التفاسير[1] . وقد فطن (المسعودي) إلى ذلك فقال: « وجمادى ، لجمود الماء فيها في الزمان الذي سميت بـه هذه الشهور ، لأنهم لم يعلموا أن الحر والبرد يدوران فتنتقل أوقات ذلك »[2] . فأدرك ان شهور العرب في الجاهلية كانت أشهراً تمثل ظواهر طبيعية مثل الحـرارة والبرودة في الاصل ، لكنه لما وجد — كما وجد غيره أيضاً — أن أوقات الشهور هي متغيرة ، بحيث لا تستقر على قرار في المواسم ، ذهب إلى أن الجاهليين لم يكن لهم علم بأن الحر والبرد يدوران ، مع انهم كانوا على علم تام بذلك ، فكانت أشهرهم ثابتة ، ولم يفطن المسعودي إلى ذلك ، لأنه أخذ حكمه من الوضع الذي كانت عليه الاشهر في الاسلام ، ولم يفطن إلى أن إبطال النسيء في الاسلام ، هو الذي أطلق هذه الحرية للأشهر فصارت تدور بحرية وتدخل في كـــل المواسم ، ولم تتقيد بالوقت الذي خصصت به . ولما تكـلم (المسعودي) عن الشهور قال : « شهور الروم مرسومة على فصول السنة دون شهور العرب : وشهور العرب ليست مرتبـة على فصول السنة ولا على حساب سنة الشمس ، بل المحرم وغيره من الشهور العربية قد يقع تارة في الربيع وتارة في غيره من فصول السنة »[3] .

ويعد شهر شوال أول شهر من أشهر الحج ، وكانت العرب تتطير من عقد المناكح فيه ، وتقول : إن المنكوحة تمتنع من ناكحها ، ولذلك كانت الجاهليـة تكره التزويج فيه لما فيه من معنى الاشالة والرفع الى أن جاء الاسلام بهدم ذلك[4] .

الاسبوع :

ويقسم الشهر الى أربعـــة أقسام ، كل قسم منها هو اسبوع ، ويتكون من

---

١ الاثار الباقية (٦٢/١) .
٢ المسعودي ، مروج (١٨٩/٢) ، تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢ وما بعدها) .
٣ مروج (١٩٢/٢) .
٤ تاج العروس (٤٠١/٧) ، (شول) ، صبح الاعشى (٣٧٦/٢) .

سبعة أيام . وتعزى فكرة هذا التقسيم الى البابليين . ولكن ضبط الأسابيع وتتابعها على النحو المعروف حتى اليوم هو نظام ظهر بعدهم بأمد[1] . وقد ذكر الاسبوع (شبوعة) Shabu'a في التوراة ، في سفر التكوين[2] . وعلى أساس الجمع بين السبت اليهودي وقصة الخلق ، نظم الاسبوع بحسب العرف الشائع اليوم[3].

ولا أعرف للاسبوع اسماً في المسند ، إذ لم ترد لفظة (اسبوع) أو أية لفظة أخرى مرادفة لها في تلك النصوص[4] . غير أن هناك نصاً من نصوص قوانين البيع والشراء ، ذكر أن إنساناً إذا اشترى حيواناً ، ثم مات ذلك الحيوان بعد سبعة أيام من يوم البيع ، فلا يكون البائع مسؤولاً عن وفاته ، ولا يتحمل أي ضرر عنها[5] . فلعل النص على هذه الأيام السبعة ، يشير الى وجود فكرة الاسبوع عند العرب الجنوبيين .

وقسم الجاهليون الشهر الى عشرة أقسام . يتألف كل قسم منها من ثلاث ليال . هي : غرر . والغُرر : ثلاث ليال من أول كل شهر . وغرة الشهر ليلة استلال القمر[6] . ونفل أو شهب وتسع أو بهر . وهي الليلة السابعة والثامنة والتاسعة[7] وعشر وبيض ودرع وظلم وحنادس أودهم ودادىء (داداً) ومحاق[8] . ويذكر أهل الأخبار « أن العرب في الجاهلية إذا كان يوم المحاق من الشهر بدر الرجل الى ماء الرجل اذا غاب عنه فينزل عليه ويسقي به ما له ، فلا يزال قيم الماء ذلك الشهر وربه حتى ينسلخ ، فإذا انسلخ كان ربه الاول أحق به . وكانت العرب تدعو ذلك المحيق »[9] .

---

١ Universal Jewish Encyclopaedia, vol. 10, p. 482.

٢ التكوين الاصحاح السابع ، الاية ٤ وما بعدها ، والاصحاح الثامن الاية ١٠ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١/٧٩) .

٣ Universal Jewish Encylopaedia, 10, p. 482.

٤ Beeston, p. 3.

٥ Rep. Epigr. 3910.

٦ اللسان (٥/١٥) ، (غرر) .

٧ اللسان (٤/٨١) ، (بهر) .

٨ اللسان (٦/٥٨) ، (حندس) ، اللسان (١٠/٣٣٩) ، (محق) ، (أسماء أيام الاسبوع وأسماء العدد وتفسير معانيها) ، لانيس فريحة ، الابحاث ، السنة (١١) الجزء الاول (١٩٥٨ م) (ص ٣٢) .

٩ اللسان (١٠/٣٣٩) ، (محق) .

وذكر بعض أهل الاخبار ، أن العرب كانت « تسمي الثلاث الاولى من ليالي الشهر ، فتقول : ثلاث غرر ، والثلاث التي تليها ثلاث سمَر ، والثلاث التي تليها ثلاث زهر ، والثلاث التي تليها ثلاث درر ، والثلاث التي تليها ثلاث قمر ، وثلاث بيض ، وتقول في النصف الثاني من الشهر في الثلاث الأول ثلاث درع، وفي الثلاث التي تليها ثلاث ظلم ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث حناديس ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث دواري ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث محاق . وقيل انه يقال لليالي الشهر : ثلاث هلل ، وثلاث قمر ، وست نقل ، وثلاث بيض ، وثلاث درع ، وثلاث بهم ، وست حناديس ، وليلتان داريتان ، وليلة محاق[1] .

الأيام :

واليوم في عرف علماء اللغة من طلوع الشمس الى غروبها[2] . ولكنهم يتوسعون في معناه أيضاً ، فيقصدون به معاني أخرى ، مثل الدهر . أما في الاصطلاح فإنه جزء من أيام الاسبوع والشهر والسنة . وهو ليل ونهار ،وهما مجتمعان يكونان اليوم . فاستعمل اليوم على وجهين : أحدهما أن يجعل اسماً للنهار خاصة . والوجه الآخر أن يكون اليوم اسماً للمدة الجامعة للزمانين جميعاً ، أعني الليل والنهار[3] .

واعتبر الجاهليون مبدأ اليوم من وقت غروب الشمس . وأما انتهاؤه فبابتداء الغروب التالي له . فصار اليوم عندهم بليلته من لدن غروب الشمس عن الأفق الى غروبها من الغد ، فصارت الليلة عندهم قبل النهار[4] .

ولهذا السبب غلبت العرب الليالي على الايام في التأريخ ؛ « لأن ليلة الشهر سبقت يومه ، ولم يلدها ، وولدته ، ولأن الاهلة لليالي دون الايام ، وفيها دخول الشهر »[5] . والعرب تستعمل الليل في الاشياء التي يشاركه فيها النهار ، فيقولون :

---

١ مروج (٢/١٩٥) ، وتختلف هذه التسميات باختلاف روايات أهل الاخبار ، صبح الاعشى (٢/٣٧٠ وما بعدها) .
٢ اللسان (١٢/٦٤٩) « صادر » « يوم » ، صبح الاعشى (٢/٣٣٩) .
٣ الازمنة والانواء ، لابن الاجدابي (ص ٢٨) ، (الدكتور عزة حسن) ، (دمشق ١٩٦٤ م) .
٤ الاثار الباقية (١/٥ وما بعدها) ، ابن الاجدابي (٢٨) .
٥ بلوغ الارب (٣/٢١٦) .

أدركني الليل بموضع كذا ، وصمنا عشراً من شهر رمضان ، وإنما الصوم للأيام، ولكنهم أجازوه إذ كان الليل أول شهر رمضان[1] .

أما اليونان ، فقد عدّوا مبدأ اليوم عند شروق الشمس ، وأما منتهاه فابتداء شروق آخر ، وذلك بخلاف الرومان الذين عدّوا منتصف الليل هو ابتداء اليوم. ومنتهاه عند منتصف ليل تال له[2] . وقد عدّ التقويم العبراني (لوح) ، مبدأ اليوم من وقت غروب الشمس . وأما انتهاؤه فابتداء الغروب التالي له[3] .

وذكر أن العرب خصصوا من الشهر ليالي بأسماء مفردة كآخر ليلة منه ، فإنها تسمى (السرار) لاستسرار القمر فيها ، وتسمى (الفحمة) أيضاً لعدم الضوء فيها ، ويقال لها البراء ، وكآخر يوم من الشهر ، فإنهم يسمونه النحير ، وكالليلة الثالثة عشرة ، فإنها تسمى السواء ، والرابعة عشرة ليلة البدر[4] .

وقد عرف اليوم بـ (يوم) في نصوص المسند كذلك. كما وردت فيها لفظة (ليلم) ، أي (ليل) للتعبير عن الليل ، أي اللفظة ذاتها التي تستعملها عربية القرآن الكريم . ووردت فيها لفظة (صبحم) بمعنى صبح وصباح . ولا بد أن تكون في لهجات العرب الجنوبيين مسميات لأقسام الليل والنهار على نحو ما نجده في عربية القرآن الكريم . ولا يستبعد أن يظفر بها الباحثون بعد قيام العلماء بحفريات علمية منظمة في العربية الجنوبية .

وقد أوردت كتب اللغة والاخبار أسماء الايام التي كان يستعملها بعض الجاهليين، ويتبين منها أن الجاهليين كانوا يسمون الأيام بأسماء مختلفة متباينة بحسب تباين الأماكن والقبائل . وقد ماتت تلك الاسماء الجاهلية ، وحلت محلها أسماء متأخرة لم تكن معروفة عند قدماء الجاهليين . فأسماء الايام عند بعض الجاهليين ممن أخذ علماء اللغة عنهم ، هي كما زعموا : (شيار) ويراد به السبت ، وأول ويراد به الاحد ، وأهون ، وأوهد ويراد بها يوم الاثنين ، وجُبار ويراد بـه الثلاثاء ، ودبار ويراد به الأربعاء ، ومؤنس ويراد به الخميس ، وعَرُوبة أو العَرُوبـة

---

١ بلوغ الارب (٣/٢١٦) .

٢ Dictionary of Classical Antiquities, p. 110.

٣ The Jewish Encyclopaedia, III, p. 501.

٤ الاثار الباقية (١/٦٤) .

أي بالتعريف ويراد به الجمعة[1] .

وقد جمعت أسماء الايام القديمة المذكورة في هذين البيتين :

أؤمل أن أعيش ، وأن يومي بأول أو بأهون أو جبار
أو التالي دبار ، فإن أفتـــه فمؤنس فالعروبة أو شيار

وهي أبيات ، يرى بعض علماء اللغة انها موضوعة[2] . وقد زعم (ابن كثير) أن البيتين المذكورين من شعر العرب العرباء المتقدمين[3] .

وقد نسب بعض هذه الأخبار هذه الأيام إلى العرب العاربـــة من بني قحطان وجرهم الأول[4] .

ويذكر علماء اللغة أن أيام الاسبوع المعروفة والمتداولة عندنا في الزمن الحاضر ، وهي : الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة والسبت ، هي أسماء إنما عرفت وظهرت في الإسلام[5] . ولكنهم لم يذكروا ، ويا للأسف ، متى كان ظهورها ولا في أية سنة كان ذلك ، أكان ذلك في مكة أي قبل الهجرة أم بعد الهجرة الى المدينة ؟ وقد ذكر (المسعودي) هذه الايام ، ثم قال : « وكانت العرب تسميها في الجاهلية : الاحـــد أول ، والاثنين أهون ، والثلاثاء جبار ، والاربعاء دبار ، والخميس مؤنس ، والجمعة عروبة ، والسبت شيار »[6] .

---

١ المخصص (٤٢/٩) ، « أسماء الايام في الجاهلية » ، نهايـــة الارب ، للنويـــري (١٤٢/١) ، مروج الذهب (١١٠/٢) ، الاثار الباقية (٦٤/١) ، الايام والليالي والشهور للفراء (ص ٦) ، شرح القاموس (٥٤٩/٢) ، (٣٠٦/٥) ، صبـــح الاعشى (٣٥٤/٢) ، نهاية الارب (١٤٨/١) ، بلوغ الارب (٢٧٣/١) ، المزهر (٢١٩/١) ، Ency. IV, p. 1210.

٢ اللسان (٥٩٣/١) ، (عرب) ، المسعودي ، مروج (١٩١/٢) ، تفسير ابن كثير (٣٥٥/٢) ، صبح الاعشى (٣٦٥/٢) ، اللسان (٢٧٥/٤) ، (دبر) ، نزهة الجليس (٢٩١/١) ، وتجد بعض الاختلاف في النص .

٣ تفسير ابن كثير (٣٥٥/٢) .

٤ صبح الاعشى (٣٦٤/٢) .

٥ الاثار الباقية (٦٣/١ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢٧٣/١ وما بعدها) ، الابحاث (١٩٥٨ م) (حـ ١ ص ٣٣) ، نهاية الارب ، للنويري (١٤٢/١) .

٦ المسعودي ، مروج (١٩١/٢) .

وهناك من اللغويين والأخباريين من يرى أن هذه الأسماء المتداولة مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن العرب العاربة لم تكن تعرف هذه الأسماء[1] .

وذكر بعض أهل الأخبار ، أن الايام المذكورة ، هي ما نطقت بـه العرب المستعربة من ولد اسماعيل ، وهي مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرفون إلا الأسماء التي وضعتها العرب العاربة ، وهي أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت[2] .

ولا يملك الاخباريون دليلاً مقنعاً يثبت لنا بجلاء أن أيام الاسبوع المعروفة اليوم إنما وضعت في الاسلام . وفي رواياتهم عن يوم الجمعة ما يخالف زعمهم هـذا . ثم إن كلمة (السبت) وردت في آية مكيّة[3] . ووروودها في آية مكية دليل على وقوف أهل مكة عليهـا ومعرفتهم بها . أما لفظة (الجمعة) ، فقد وردت في سورة مدنية ، أي أنها نزلت بعد الهجرة[4] .

وعنـدي أن أسماء أيام الاسبوع المستعملة عندنا كانت معروفة في يثرب وفي مكة قبل الاسلام . وقد تعلمها أهل يثرب من اليهود ، من اختلاطهم بهم . فإن هذا الترتيب للأسبوع مبني عـلى قصة الخلق الواردة في التوراة . ولا بد لذلك لمستعملي هذا الترتيب من أن يكونوا قد تعلّموه من مصدر يهودي أو من مصدر له صلة باليهـود ، أو من النصارى الساكنين بيثرب أو بمكة . فإننا نعرف أن العبرانيين كانوا لا يسمون أيام الاسبوع بأسماء خصوصية ، ولكنهم كانوا يعدّونها بحسب ترتيبهـا ، فيقولون اليوم الأول والثاني والثالث كما هو في العربية ، إلا يوم الجمعة والسبت،فقد كانوا يسمون الجمعة (عريب شبات) Ereb Shabat ، ومعنـاه (مساء السبت) و (عشية السبت) . وأما السبت ، فهو (شبت) (شبات) ومعناه الراحة Rest ، وذلك لاعتقادهم ولما ورد في سفر التكوين: أن الله خلق العالم في ستة أيام ، واستراح في اليوم السابع . فسموا هذا اليوم :

---

١ بلوغ الارب (١/٢٧٥) .
٢ صبح الاعشى (٢/٣٦٥) .
٣ النحل : الاية ١٢٤ .
٤ الجمعة : الاية ٩ .

(يوم الراحـة) (يوم ها ـ شبـات) yom ha-shabbat . واختصرت بـ (شبات) أي السبت[1] .

ولست أعرف نصاً من نصوص المسند ، ورد فيه اسم معين ليـوم من أيام الاسبوع،مثل الجمعة أو السبت أو الاحد وغير ذلك . وكل ما نعرفه من النصوص أن العرب الجنوبيين كانوا يذكرون موقع اليوم من الشهر ، فيكتبون في اليـوم السابع من الشهر الفلاني ، أو في اليوم الخامس عشر منه ، أو في اليوم العشرين منه ، وهكذا . وذلك لتعيين مكان اليوم من الشهر . وطريقتهم هـذه طريقة معروفة عند الساميين وعند غيرهم ، وهي لا تزال مستعملة حتى في هـذه الأيام كتابة وفي الاستعمال الاعتيادي وفي التوريخ ، وذلك للسهولة والاختصار .

ولا نستطيع أن نتحدث عن اليوم المهم في الاسبوع مثل يوم السبت عند اليهود أو يوم الأحد عند النصارى وعند الوثنيين ، وإن كـان في بعض الروايات مـا يفيد أن يوم الجمعة كان من الايام المعظمة في نظر قريش ، وقـد عرف عندها بـ (يوم العروبة) ، وكانت تجتمع في كل جمعة الى كعب بن لؤي بن غالب فيخطب فيها ، وأنه هو الذي سمى يوم العروبة يوم الجمعة ، وذلك لتجمع الناس حوله في ذلك اليوم[2] .

وقيل : إن يوم الجمعة لم يعرف بهذا الاسم إلاّ في الاسلام[3] . وأن الانصار هم الذين بدلوا اسم (يوم العروبة) فجعلوه (الجمعـة) ، ذلك أنهم نظروا فإذا لليهود يوم في الاسبوع يجتمعون فيه ،وللنصارى يوم يجتمعون فيه هو الاحد، فقالوا : مالنا لا يكون لنا يوم كيوم اليهود أو النصارى ، فاجتمعوا الى سعـد ابن زُرارة ، فصلى بهم ركعتين وذكرهم،فسموا ذلك اليوم يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، وأنزل الله سورة الجمعة ، فهي على حد قول أصحاب هـذه الرواية أول جمعة في الإسلام[4] . وقد انتبـه بعضهم الى خطل رأي من ذهب الى أن يوم الجمعة انما سمي بهذه التسمية في الاسلام ، فقال إن يوم الجمعة كان يسمى بهذا

---

١ The Jewish Encyclopedia, Vol., III, p. 502, Art : Calender.

٢ تاج العروس (٣٠٦/٥) ، بلوغ الارب (٢٧٣/١) .

٣ الايام والليالي (ص ٦) .

٤ صبح الاعشى (٣٦٣/٢) ، بلوغ الارب (٢٧٤/١) .

الاسم قبل أن يصلي الأنصار الجمعة[1] .

وقد انتبه علماء العربية الى اسم (يوم عروبة) ، فقالوا : هو اسم قديم للجمعة. (وكأنه ليس بعربي)[2] . و (عروبة) بمعنى غروب في السريانية وفي العبرانية، وقد سمي اليوم السابق للسبت (عروبة) ، لأنه غروب ، أي مساء نهار مقدس[3] .

وذكر أهل الأخبار ، أن كل أربعاء يوافق أربعاً من الشهر ، مثل أربع خلون ، وأربع عشرة خلت ، وأربع عشرة بقيت ، وأربع وعشرين ، وأربع بقين ، فهي : (أيام نحسات)[4] . ونظراً لورود الاشارة الى هذه الأيام في كتب أهل الأخبار ، ولاعتقاد الجاهليين بالنحس ، وبوجود نجمين للسعد وللنحس، كما في قول الشاعر :

يومين غيمين ويوماً شمسا نجمين بالسعد ونجماً نحسا[5]

فإن في استطاعتنا القول بوجود الأيام النحسات عند الجاهليين .

ويقسم النهار والليل الى اثني عشر قسماً ، كل قسم منها ساعة ، فيكون مجموع ساعات اليوم أربعاً وعشرين ساعة . وساعتنا المعروفة مأخوذة من الساعة السومرية البابلية ، فقد قسّم البابليون الليل والنهار الى ساعات متساوية هي اثنتا عشرة ساعة لكل من الليل والنهار ، وجرى الناس على هذا التقسيم حتى اليوم[6] .

وذكر بعض علماء اللغة أن (الآناء) الساعات . وكان الجاهليون اذا شغلوا انساناً بالساعات ، قالوا لذلك (المساوعة)[7] .

ويروي الأخباريون أن العرب وضعت لساعات النهار والليل أسماء غير مستعملة عندنا ، فأما ساعات النهار ، فهي : (الدرور) (الدرور) ثم البزوع (البزاغ) ، ثم الضحى ، ثم الغزالة ، ثم الهاجرة ، ثم الزوال ، ثم الدلوك ، ثم العصر ، ثم الأصيل ، ثم الصبوب ، ثم الحدود ، ثم الغروب . ويقال فيها أيضاً : البكور

---

١ صبح الاعشى (٢/٣٦٣) .
٢ اللسان (١/٥٩٣) ، (عرب) .
٣ الابحاث ، السنة (١٩٥٨م) ، (حـ ١ ص ٤٨) .
٤ المسعودي ، مروج (٢/١٩١) .
٥ تفسير الطبري (٤/٦٧).
٦ Alfred Jeremias, Handbuch der Altorientalischen Geisteshultur, Leipzig, 1929, S. 29.
٧ المخصص (٩/٤٤) .

ثم الشروق ، ثم الاشراق ، ثم الرأد ، ثم الضحى ، ثم المتوع ، ثم الهاجرة ، ثم الأصيل ، ثم العصر ، ثم الطفل ، ثم العشي ، ثم الغروب[1] .

وأما ساعات الليل ، فهي على حد قولهم : الشاهد[2] ، ثم الغسق ، ثم العتمة ، ثم الفحمة ، ثم الموهن ، ثم القطع ، ثم الجوسر (الجوس) (الجوشن) ، ثم العبكة ، ثم التباشير ، ثم الفجر الأول ، ثم المعترض ، ثم الإسفار . وأسماء أخرى يذكرها اللغويون[3] ، حيث يروون أن الجاهليين كانوا يقسمون اليوم الى أربع وعشرين ساعة . غير ان من الصعب العثور على دليل يفيد وجود هذا التقسيم عندهم[4] .

ويقول أهل مكة بوجود فجرين ، أحدهما قبل الآخر . فالفجر الأول هو الفجر الكاذب ، ويسمى (ذنب السرحان) لدقته . والفجر الثاني هو الفجر الصادق ، ويقال له (المستطير) ، ومنه الحديث : « ليس بالمستطيل ، يعني الفجر الأول ، ولكن المستطير » ، يريد المنتشر الضوء . ومع طلوعه يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود[5] .

وهناك شفقان ، أحدهما قبل الآخر : الشفق الأحمر ، والشفق الأبيض . وهو يغرب في نصف الليل[6] .

ويقال لليوم الذي يسبق اليوم الذي نحن فيه . يوم أمس ، أو الأمس ، ونهار أمس . أما البارحة ، فيراد بها أقرب ليلة مضت ، أي الليلة الماضية . وأما اليوم الذي يلي اليوم الذي نحن فيه ، فهو نهار الغد ، والغد ، وبكرة .

---

١ بلوغ الارب (١/٢٧٤) ، صبح الاعشى (٢/٣٤٨) ، نهاية الارب (١/١٤٧) .

٢ « الشاهد يوم الجمعة ... وصلاة الشاهد صلاة المغرب ... » ، تاج العروس (٢/٣٩٢) .

٣ بلوغ الارب (١/٢٧٤) ، « الهتكة » ، صبح الاعشى (٢/٣٤٨) .

٤ Ency., IV, p. 1210.

٥ الانواء (ص ١٤٣) .

٦ الانواء (ص ١٤٣ وما بعدها) .

الفصل الثاني والثلاثون بعد المئة

الاشهر الحرم

قسّم الجاهليون شهور السنة الى قسمين : أشهر اعتيادية هي ثمانيـــة شهور . وأشهر أربعة حرم مقدسة خصت بآلهتهم ، لا يجوز فيها قتال ولا بغي ولا انتهاك لحرمات . وكانوا يقاتلون في الشهور الثمانية يغزون بعضهم بعضاً ، ويغيرون بعضهم على بعض . ثم يتوقفون عن القتال في الشهر الحرم الباقية .

والأشهر الحرم هي أربعة : ثلاث متواليات سرد ، وهي : ذو القعـدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر منفرد هو شهـــر (رجب)[1] . فهي ثلث السنة اذن . وكان الجاهليون يعظمونها ، ولا يستبيحون القتال فيها ، حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه ، استعظاماً لحرمة هذه الأشهر التي هي هدنة تستريح فيها القبائل فتنصرف الى الكيل والامتيار والذهاب الى الأسواق،وهي آمنة مستقرة لا تخشى اعتداءً ولا هجوماً مفاجئاً . وتحريم هذه الأشهر ضرورة من الضرورات استوجبتها طبيعة الحياة في البادية ، فأهل البادية بما هم فيه من فقر وضنك عيش يتنافسون فيما بينهم ويتقاتلون على الكلأ والماء وعلى أخذ حق المرور من القوافـــل وعلى الغزو والغارات يعيشون . وحياة عاصفة هذا شأنها لا بد لها من فترة تستريح

---

١ بلوغ الارب (٣/٨٢) ، روح المعاني (١٠/٩٠) ، كتاب الازمنة والامكنة للمرزوقي (١/٢٢١ وما بعدها) ، (طبع حيدرآباد الـدكن ١٣٣٢ هـ) ، تفسير الطبـــري (١٠/٨٨) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥) .

فيها ، وتمتار فيها ، وتصفّي فيها حسابها بدفع أثمان الديات بهدوء وبتسوية المشكلات بالمساومة والمفاوضة ، وتلك الفترة هي الأشهر الحرم .

هذا ما يذكره ويرويه العلماء عن الشهور بصورة عامة . ويجب حمل كلامهم هذا على قريش ومن والاها،وعلى القبائل التي كان للعلماء اتصال بها وعلم بأخبارها أما القبائل البعيدة عنهم ، والقبائل التي لم يتصلوا بها اتصالاً وثيقاً ، فنحن لا نستطيع أن ندخلهم في هذا الكلام فنقول انهم كانوا يحرمون أشهراً ويحرمون أخرى ، لعدم وجود دليل لدينا يثبت ذلك ، وسنبقى على رأينا هذا حتى يظهر لنا دليل يؤيده أو ينفيه .

والمذكورون قوم يحرمون إذن شهوراً ويحلّون أخرى ، لا يقاتلون ولا يغزون في شهور ، حرمة وتقديساً لها ، إلا عن ضرورة ولحاجة ، ويقاتلون ويغزون في الأشهر الأخرى المتبقية من السنة ، فيقصرون نشاطهم في الغزو وفي الأخذ بالثأر على أشهر الحل فقط .

قال (الطبري) في تفسيره الآية : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد »[1] : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم ، وهي الأربعة التي عددت لك ، يعني عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيعاً الاول ، وعشراً من شهر ربيع الآخر . وقال قائلو هذه المقالة : قيل لهذه الأشهر الحرم ، لأن الله عزّ وجل حرم على المؤمنين فيها دماء المشركين والعرض لهم إلا بسبيل خير »[2] . وقال (النيسابوري) في تفسيرها : « واختلفوا في الأشهر الأربعة ، فعن الزهري أن براءة نزلت في شوال ، والمراد : شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وقيل : هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر . وكانت حرماً لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم ، أو سميت حرماً على التغليب لأن ذا الحجة والمحرم منها . وقيل : ابتداء المدة من عشر ذي القعدة الى عشر من ربيع الأول ، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسيء الذي كان .

---

١ التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٥ .

٢ تفسير الطبري (١٠/٥٦) .

ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة »[1]. فدخل صفر وربيع الأول وربيع الآخر في الأشهر الحرم،حسب هذه الروايات . مع أنها ليست من الأشهر الحرم المقررة المعروفة عند الجاهليين . وقد رأيت تعليل ذلك في تفسير (النيسابوري) لها، وهو فعل عامل النسيء .

ولما وصل (الطبري) الى الآية : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض . منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم »[2] ، قال : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم متواليات : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . وهو قول عامة أهل التأويل »[3]. وقال (النيسابوري) : « منها أربعة حرم : ثلاثة سرد ، أي مسرودة : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، وواحد فرد هو رجب »[4] . وورد في خطبة الوداع : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان »[5] . فهذه هي الشهور الحرم . أما ما تقدم ، فقد كانت محرمة بموجب ما كان قد وقع عليها بفعل النسيء . فقد كانت العرب قد نسأت النسيء، فكانوا يحجون في كثير من السنين ، بل أكثرها في غير ذي الحجة[6] .

وعرف المحرمون للأشهر الحرم بـ (المحرمين) ، وبـ (البسل) أيضاً . ذكر ان من معاني (البسل) : الحرام والشجاعة ، وهي معاني نجدها في لفظتي (حمس) و (حرم) . وذكر علماء اللغة ، أن « البسل ثمانية أشهر حرم كانت لقوم لهم صيت . وذكر انهم من غطفان وقيس . يقال لهم : الهباآت »[7] . وذكر أن البسل : (بني عامر بن لؤي)[8] ، أو (عوف بن لؤي) ، أو (مرة بن

---

١ تفسير النيسابوري (١٠/٣٧) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٢ التوبة ، رقم ٩ ، الاية ٣٦ .
٣ تفسير الطبري (١٠/٨٨) .
٤ تفسير النيسابوري (١٠/٧٩) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٥ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٣) .
٦ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .
٧ تاج العروس (٧/٢٢٧) ، (بسل) .
٨ تاج العروس (٧/٢٢٧) ، (بسل) .

عوف بن لوى) . وكانوا يحرمون ثمانية أشهر من السنة . وقد امتنعت بعض القبائل من الاغارة عليهم في هذه الأشهر[1] . فالبسل اذن جماعة تعظم ثمانية أشهر من السنة ، وتحرمها فلا تقاتل فيها . فهم يختلفون اذن عن (المحرمين) من قريش ومن دان بدينهم في انهم يحرمون ثمانية أشهر من أشهر السنة ويحلون الأربعة الباقية ، أي على العكس منهم ، يفعلون ذلك تعمقاً وتشديداً[2] .

والبسل كما يتبين من تفسير علماء اللغة لها : الحرام . ولهذا قالوا : الإبسال : التحريم . ومن ذلك قيل للأشهر الحرم (البسل) . وهي الأشهر الثمانية التي حرمها قوم من (غطفان) و (قيس) . وبهذا المعنى وردت في قول الأعشى :

أجارتكم بسل علينا محرم وجارتنا حلّ لكم وحليلها[3]

وذكر أنها تعني الحرام وأيضاً الحلال . وهي من الأضداد[4]

فنحن اذن أمام طائفتين من العرب المحرمين للشهور . طائفة اقتصرت على تحريم أربعة أشهر من السنة ، جعلتها أشهراً حرماً . وطائفة جعلت عدة الشهور الحرم ثمانية ، وعدة الشهور الحل أربعة ، وهم أقل عدداً من الطائفة الأولى .

ولكننا نجد طائفة أخرى من الجاهليين ، استهترت بحرمة كل الأشهر ، فلم تحرم أي شهر من شهور السنة ، ولم تعترف لها بقدسيته ، وساوت بين جميع أشهر السنة ، بأن أحلتها كلها ، فعرفوا بالمحلين وهم عكس (المحرمين) . فقد نص أهل الأخبار على وجود قوم من العرب هم : خثعم وطيء ، ذكروا أنهم كانوا يستحلون الأشهر الحرم فيقاتلون فيها ، ولا يقدسونها ولا يرعون للحرم ولا للأشهر الحرام حرمة . وذكر بعضهم أن أحياء من قضاعة ويشكر والحارث بن كعب كانوا على مذهب هؤلاء[5] . فهم لا يفرقون بين الأشهر ، ولا يميزون

---

١ أبو ذر ، شرح السيرة (١/٧٨) ، ابن كثير ، البداية (٢/٢٠٤) ، القلاعي ، الاكتفاء (١/٧٨) ، Kister, p. 141.

٢ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥) .

٣ تاج العروس (٧/٢٢٧) ، (بسل) .

٤ المصدر نفسه .

٥ تاج العروس (٨/٢٤١) ، (حرم) ، الجاحظ ، الحيوان (٧/٢١٦ وما بعدها) ، النجيرمي (١٢) ، المحبر (٣١٩) ، الازرقي (١/٣٤١) .

بينها ، وهي كلها في نظرهم سواء . فلا يؤمنون بوجود أشهر حرم مقدسة ، ولا بوجود أشهر حل ، بل الأشهر عندهم كلها حلال . ولا يمتنعون من القتال في أي يوم أو شهر من السنة . فهم اذن على نقيض (المحرمين) للأشهر المعظمين للحرم وللأشهر الحرم ، قوم لا عهد لهم ولا ذمة بالنسبة الى شهور السنة .

والظاهر ان (المحلّين) كانوا يتحارشون بالمحرمين وبغيرهم في الأشهر الحرم ، ولما كان من شرع (المحرمين) الامتناع عن القتال في تلك الأشهر ، فللدفاع عن النفس أباح النسأة لمقلديهم المحرمين مقاتلة المحلّين اذا تعرضوا لهم . إذ جاء: « كان الذين ينسأون الشهور أيام الموسم يقولون : حرمنا عليكم القتال في هذه الشهور إلا دماء المحلين . فكانت العرب تستحل دماءهم في هذه الشهور »[1] . وجاء : « وإني قد أحللتُ دماء المحلين من طيء وخثعم ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم اذا عرضوا لكم »[2] .

ويجب أن نضيف على هؤلاء طائفة من العرب من ذي البانة والصعاليك وأصحاب التطاول ، وأمثالهم ممن كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للأشهر الحرام قدراً[3] . فكانوا يغيرون في هذه الأشهر ويحلون القتال فيها وفي كل وقت ، كما كانوا لا يؤمنون على الحرم . فإذا وجدوا فرصة سرقوا في الحرم وأخذوا ما يقع في أيديهم دون استحياء ولا مبالاة بحرام وحلال ، نظراً لما هم فيه من جوع وفاقة وحاجة ، دفعتهم إلى الكفر بكل قانون وعقيدة وعرف .

ويجب أن نضيف الى المحلين العرب الذين لم يكونوا على دين أهل الشرك ، مثل النصارى واليهود . فقد كانت النصرانية قد وجدت سبيلها بين تغلب،وشيبان، وعبد القيس ، وقضاعة ، وغسان ، وسليح ، والعباد ، وتنوخ ، وعاملة ، ولخم ، وجُذام . وكثير من بلحارث بن كعب[4] ، وبعض طيء وتميم . فهؤلاء لم يكونوا على شرك ، لذلك لم يراعوا حرمة تلك الأشهر ، ولم يحجوا الى محجات المشركين ، وإنما كانوا يتقربون الى قبور شهداء الكنيسة والى أضرحة القديسين ،

---

١ تاج العروس (٨/٢٤٤) ، (حرم) .
٢ نقلا عن مخطوطة أنساب الاشراف على رواية : Kister, p. 142.
٣ ثمار القلوب (٨٨) ، Kister, p. 143.
٤ الحيوان (٧/٢١٦) ،

ولهم أعيادهم الخاصة بهم لا يقاتلون فيها إلا دفاعاً عن نفس ، ولم يقم اليهود كذلك لتلك الأشهر المقدسة حرمة ، إذ كان السبت ، يوم راحة بالنسبة لهم ، لا يحل فيه قتال ، وكذلك كانت أعيادهم أيام حرمة ، لا يجيزون فيها قتال ، أي مهاجمة أحد ، إلا إذا هوجموا ، فيحل عندئذ لهم القتال دفاعاً عن نفس ، ولما وقعت المناوشات بينهم وبين المسلمين كانوا يتجنبون فيها القتال أيام السبت والأعياد .

وذكر أن قريشاً، كانت لا تتاجر إلا من ورد اليها في مكة في الأشهر الحرم . لا تبرح دارها ولا تتجاوز حرمها . وذلك لتحمسها في دينها والحب لحرمها . وكانت تخاف على تجارتها من لصوص الطرق وصعاليك الأعراب وطلاب الطلائب وذؤبان العرب ، لأنهم كانوا يرون للشهور الحرم حرمة،ولا للشهر الحرم قدراً ، ولا للحرم حرمة ، فأعطت الإيلاف ، والفت القبائل ، وقاومت بذلك المحلين .

وقد قسّم (المرزوقي) العرب الى ثلاثة أهواء بالنسبة الى أشهر الحج . منهم المحلّون ، الذين كانوا يستحلون الكعبة والأشهر الحرم ويسرقون ويقتلون في (الحرم) ، ومنهم من يحرم الشهور الحرم ، ومنهم (أهل هوى) على شرع (صلصل) . وهو (صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف) من بني عمرو بن تميم)[1] . وهو الذي أحلّ للعرب قتال المحلين في الأشهر الحرم[2] . وكان من حكام العرب ومفتوهم وممن اجتمع له الموسم والقضاء في عكاظ .

والمحرمون هم : الحمس والحلة . أما (المحلّون) ، فالقبائل التي لم تحترم حرمة الكعبة ولا الاشهر الحرم ، أي أولئك الذين أباح النسأة دمهم ، وجوّزوا قتالهم في الأشهر الحرم . وأما اولئك الدين كانوا على شرع (صلصل) ، فلا ندري مذهبهم وهواهم ، فلم يتحدث (المرزوقي) عنهم[3] . وقد كان (صلصل) ممن اجتمع له الموسم وقضاء عكاظ من بني تميم[4] . ولم يذكر (ابن حبيب) الأمور التي أوجدها وأحدثها ، حتى كوّن له طائفة خاصة لها رأي في الحرم وفي الأشهر الحرم .

---

١ المرزوقي ، الامكنة (٢/١٦٦) ، المحبر (١٨٢ وما بعدها) ، Kister, p. 143.

٢ Kister, p. 143.

٣ Kister, p. 144.

٤ المحبر (١٨٢ وما بعدها) .

وتجويز مقاتلة (المحلين) في الأشهر الحرم ، هو دفاع عن النفس ، وضرورة واجبة . لذلك نص عليه النسأة في أمرهم السنوي الذي يعينون فيه (النسيء) في الموسم ، ليقف الناس على موعد الأشهر الحرم ومكانها من السنة في السنة المقبلة . إذ لا يعقل بالنسبة للمحرمين الامتناع من قتال مقاتل في الأشهر المذكورة ، لأنها أشهر حرم مقدسة . وإلا عرّضوا أنفسهم وأهلهم وأموالهم الى التهلكة ، خاصة وان المقاتلين هم من أهل عقيدة مخالفة لعقيدتهم تمام المخالفة ، فشرعة الدفاع عن النفس أباحت لهم حق قتال المحلين .

ويلاحظ ان شهري ذي القعدة وذي الحجة هما الشهران الأخيران من السنة ، يليهما في الحرمة الشهر الأول من السنة الجديدة وهو المحرم ، فهذه الأشهر الثلاثة هي في الواقع زمن واحد متصل . أما (رجب) ، فهو الشهر الوحيد المنفرد بالحرمة . ولذلك عرف بـ (رجب الفرد) ، و (بالفرد) . وقد علل أهل الأخبار سبب ذلك بقولهم : « وانما كانت الأشهر المحرمة : أربعة . ثلاثة سرد وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة ، فحرم قبل أشهر الحج شهراً ، وهو ذو القعدة ، لأنهم يقعدون فيه عن القتال . وحرم شهر ذي الحجة ، لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك . وحرم بعده شهراً آخر ، وهو المحرم ، ليرجعوا فيه الى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب في وسط الحول ، لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم اليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ، ثم يعود الى وطنه فيه آمناً »[1] .

ولكن تعليل أهل الأخبار لحرمة (رجب) التعليل المذكور لا يتناسب مع تعليلهم لحرمة الأشهر الثلاثة المحرمة ، فإذا كانوا قد حرموا ذا القعدة والمحرم بسبب الاستعداد للحج ، وبسبب العودة منه الى ديارهم كما زعموا ، فإن تحريم (رجب) بسبب مجيء العرب فيه من أقصى جزيرة العرب للعمرة فيه ، يستوجب أيضاً اعطاء المعتمرين مدة مناسبة قبله وبعده للاعتمار فيه ، حتى يضمنوا ذهابهم الى مكة وعودتهم منها بأمان ، فالسفر سفر واحد لا يتغير من حيث الطول أو القصر في موسم الحج أو في موسم العمرة ، لأن المسافات لا تتبدل بتبدل الطقوس الدينية ، ولو علمنا سبب اطالة تحريم الأشهر الثلاثة بسبب الحج ووجود الأسواق ،

---

١ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥) .

أي لعوامل اقتصادية ومنافع مادية ، جاز قبول هذا التعليل ، ولكن لِمَ لم يفعلوا هذا الفعل بالنسبة لرجب ، الذي تحتاج العمرة فيه الى مدة أطول من الشهر للوصول في خلالها من أقصى مكان في جزيرة العرب الى مكة ، وللعودة منها الى مواطنهم ، إذ لا يعقل أبداً بلوغ مكة والعودة اليها سالمين الى مواطنهم في العربية الجنوبية أو الخليج أو العراق في خلال شهر واحد ، بل هو في نظري زعم من مزاعم أهل الأخبار . وما كان الحج الى مكة إلا من القبائل القريبة منها ، وإنما صار الحج اليها عاماً ومن كل مكان في الاسلام وبفضله وحده . وعندي أن شهر رجب ، كان شهراً مقدساً محرماً ، تعتر فيه العتائر ، عند قبائل مضر وقبائل ربيعة ، وهما حلفان في الأصل ، وقد تناول قبائل متجاورة ، ثم انفصل،فصار ربيعة ومضر . وفي هذا الشهر كانوا يتقربون الى (الله) بالعتائر ، ومنهم من يعتمر ، فيبقى بمكة ما يشاء ، ولم تكن العمرة على شاكلة الحج من حيث العدد والكثرة ، بل كانت قاصرة على المتمكنين الذين لهم عهود ومواثيق مع أهل مكة وغيرها من سادات قبائل مضر وربيعة ، فلا خوف على أمثال هؤلاء من الرجوع الى وطنهم في أي وقت شاؤوا ، إذ لا يطمع فيهم طامع بسبب ما كانوا يحملونه من تجارة ، كالذي كان يفعله التجار الذين يذهبون الى الاتجار بالأسواق وفي جملتها سوق مكة في موسم الحج الذي هو تجارة وحج ، لأنهم كانوا من عامة القبائل ومعهم تجارة ، فكان من الضروري تطويل الموسم ليكون أمناً لهم يحميهم من الأذى الى عودتهم الى مواطنهم .

وفي هذه الأشهر الحرم تعقد الأسواق مثل سوق عكاظ وذي المجاز وذي المجنة ودومة الجندل وغيرها ، فيقصدها الناس من مواضع بعيدة،وتكتظ أرضها بجموع غفيرة لم تكن تقصدها في غير هذه (المواسم) .

وقد عرف شهر (ذو القعدة) بهذا الاسم ، لأن الناس – كما يقول علماء اللغة – كانوا يقعدون فيه عن الأسفار والغزو والميرة وطلب الكلأ ويحجون في ذي الحجة [1] . وهو تفسير أخذ من ظاهر التسمية ، ودليل ذلك قولهم : « لقعودهم فيه عن القتال والترحال »[2] . فالقعود فيه عن القتال جائز بالنسبة للمحرمين ،

---

١ تاج العروس (٢/٤٦٩) ، (قعد) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .
٢ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .

ولكن قعودهم عن الترحال خطأ ، إذ كانوا على العكس يتهيأون فيه للأسفار الى الاتجار والحج ، فهو شهر ترحال لا شهر قعود وجلوس .

وأما (ذو الحجة) ، فقد عرف بذلك لايقاعهم الحج فيه . وقد رأينا ان في نصوص المسند اسم شهر عرف بـ (ذ حجتن) ، أي (ذي الحجـة) ، وبـ (ذ محجتن) ، أي (ذي المحجة) ، مما يدل على أن له صلة بالحج[1] . ولم تعين نصوص المسند موسم حج العرب الجنوبيين ، ولم تذكر اسم محجتهم ، ولكننا نستطيع أن نقول انها كانت الى محجات آلهتهم المعروفة المنصوص عليها في نصوصهم ، وهي غير آلهة أهل مكة من غير شك .

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن العرب كانت تسمي شهر رجب (رجب الأصم) و (المحرم) ، وذكر بعض آخر أن المحرم لم يكن يعرف بهـذا الاسم إلا في الاسلام ، فقد كان الجاهليون يسمونه صفراً . ولذلك كان في تقويمهم صفران ، كما كان عندهم شهران باسم ربيع الأول وربيع الآخر ، وشهران باسم جـمادى الاولى وجمادى الآخرة . وصفر الأول هو المحرم في عرفنا ، وصفر الآخر هو صفر في اصطلاحنـا اليوم . وقد كان الجاهليون يؤخرون المحرم الى صفر في تحريمه ، فيكون شهراً حراماً[2] .

ويظهر أن لدخول (ال) أداة التعريف على (المحرم) أهمية في تثبيت هـذا الشهر ، فإن للفظة (محرم) دلالة دينية ، يراد بها كل شهر من الأشهر الحرم . فكل شهر من هذه الشهور الحرم هي محرم وحرام ، ومن ضمنهـا (المحرم) . وقد دخلت (ال) على هذه اللفظة لتخصيصها وجعلها علمية خاصة بهذا الشهر . وإلا دخلت على الشهور الأخرى العلمية ، مثل رجب وشعبان ورمضان وصفر ، فلا يقال فيها الرجب والشعبان والرمضان والصفر ، بل يقال قدم شهر رجب . وقدم شعبان وشهر رمضان وصفر . وهذا يفسر قول (ابن كثير) : «وعندي

---

١ REP. EPIG. 4176/7.

٢ تاج العروس (٣/٢٣٦) ، (٨/٢٤٠ وما بعدها) ، (حرم) ، قال حميد بن ثور :

رعين المرار الجون من كل مذنب شـــهور جمـادى كلها والمحـرما

وقال آخر :

أقمنا بها شهـري ربيع كـلاهما وشهري جمادى واستحلوا المحرما

تاج العروس (٨/٢٤١) (حرم) .

أنه سُمي بذلك ، تأكيداً لتحريمه،لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاماً وتح عاماً »[1] أي انه كان قلقاً متنقلاً ، ولم يكن ثابتاً ، ثم ثبت في الإسلام .

وقد ورد في كتب الحديث أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء ، كما اليهود يصومون ذلك اليوم . ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من المحـــرم . الرسول حين قدم المدينة وجـــد اليهود يصومونه . وأن الرسول كان يصومه الجاهلية أيضاً . ولما قدم المدينـة ، كان يصومه ، وأمـــر بصيامه . فلما فر رمضان ، ترك عاشوراء ، فمن شاء صامه ، ومن شاء تركه[2] . وورد «أن قر كانت تعظم هذا اليوم ، وكانوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيم ولكن انما كانوا يعدّون بالأهلة ، فكان عندهم عاش المحرم . فلما قدم المدين وجدهم يعظمون ذلك اليوم ويصومونه ، فسألهم عنه ، فقالوا : هو اليوم ا نجّى الله فيه موسى وقومه من فرعون »[3] .

وذكر أيضاً : أن رسول الله ، كان يتحرى يوم عاشوراء على سائر الأيا وكان يصومه قبل فرض رمضان . فلما فرض رمضان ، قال : من شاء صام ومن شاء تركه ، وبقي هو يصومه تطوعاً ، فقيل له : « يا رسول الله انه تعظمه اليهود والنصارى ، فقال ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان العام المقبل شاء الله صمنا اليوم التاسع ، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله »[4] .

ويرجع حديث صيـام قريش يوم عاشوراء الى (عائشة) ، وقد رواه (عروة بن الزبير بن العوّام) . فقد روى انهـا « قالت : كان يوم عاشو تصومه قريش في الجاهلية ، وكان رسول الله يصومه . فلما قدم المدينة صامه و الناس بصيامه ، فلما فرض رمضان ، ترك يوم عاشوراء ، فمـن شاء صامه و شاء تركه »[5] . ويروى أيضاً عن معاوية ، فقد ورد عن (حميد بن عبد الر ابن عوف انه سمع معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنهـا ، يوم عاشوراء

---

١ ابن كثير ، تفسير (٢/٣٥٤) .
٢ جامع الاصول (٧/١٩٩ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٤٠٠) ، الازمنة والامكـ للمرزوقي (١/٧٢٦ وما بعدها) .
٣ زاد المعاد (١/١٦٤ وما بعدها) .
٤ الطبري (٢/٤١٧ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (١/٦٠) ، زاد المعاد (١/١٦٤
٥ ارشاد الساري (٣/٤٢١) .

عام حج على المنبر ، يقول : يا أهل المدينة أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : هذا يوم عاشوراء ولم يكتب عليكم صيامه ، وأنا صائم فمن شاء فليصم ، ومن شاء فليفطر »[1] .

وقد حاول شراح حديث (عائشة) إيجاد مخرج له ، فقالوا في شرح: « كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية » ، « يحتمل أنهم اقتدوا في صيامه بشرع سالف ، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه » . وقد وضع بعضهم بعد « وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يصومه » جملة (في الجاهلية). وحاولوا إيجاد مخرج آخر لحديث (معاوية) ، بقولهم : « والظاهر أن معاوية قاله لما سمع من يوجبه أو يحرمه ، أو يكرهه ، فأراد إعلامهم بنفي الثلاثة ، فاستدعاؤه لهم تنبيهاً لهم على الحكم أو استعانة بما عندهم على ما عنده ». وقالوا: « ان معاوية من مسلمة الفتح ، فإن كان سمع هذا بعد اسلامه ، فإنما يكون سمعه سنة تسع أو عشر ، فيكون ذلك بعد نسخه بإيجاب رمضان ، ويكون المعنى لم يفرض بعد ايجاب رمضان ، جمعاً بينه وبين الأدلة الصريحة في وجوبه ، وان كان سمعه قبله فيجوز كونه قبل افتراضه »[2] . ثم ذكروا بعد هذين الحديثين ، حديثاً يناقضهما تماماً، وهو أن النبي حين قدم المدينة فرأى اليهود تصوم ، فقال: ما هذا الصوم ، قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجّى الله بني اسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى . قال النبي : فأنا أحق بموسى منكم فصامه ، وأمر بصيامه »[3] . وهو حديث للعلماء عليه كلام .

وحديث معاوية لا يدل على صوم قريش ليوم عاشوراء في الجاهلية ، وقد استدل به (ابن الجوزي) على أن صوم عاشوراء لم يكن واجباً ، ولا يفهم منه أبداً أن قريشاً كانوا يصومونه قبل الاسلام . ولو كان معروفاً لما خفي أمره عليه وعلى غيره من قريش ، وحديث (عائشة) حديث مفرد ، ويجوز أن يكون قد وضع على لسانها ، ولا يعقل انفرادها به وعلمها وحدها بصيام قريش في ذلك اليوم ، وخفاء أمره على غيرها من الرجال والنساء ممن عاش معظم حياته في الجاهلية .

---

١ ارشاد الساري (٣/٤٢٢) .
٢ ارشاد الساري (٣/٤٢٢) .
٣ ارشاد الساري (٣/٤٢٢) .

ويوم (عاشوراء) هو يوم (ع ش و ر) Ashura' (عشور) (عشورا) عند العبرانيين ، ويقع في اليوم العاشر من شهر (تشرى)[1] . وهو يوم خاص بيهود . وأنا أشك في صحة رواية أهل الأخبار القائلة ان قريشاً كانوا يصومونه في الجاهلية ، إذ ما هي صلة قريش الوثنيين الذين لم يكونوا من أهل الكتاب بصيام يوم هو من صميم أحكام ديانة يهود . ومما يؤيد رأيي ، هو ان أهل الأخبار أنفسهم يذكرون ان الرسول « حين قدم المدينة ، رأى يهود تصوم يوم عاشوراء ، فسألهم ، فأخبروه انه اليوم الذي غرّق الله فيه آل فرعون ، ونجّى موسى ومن معه منهم ، فقال : نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه . فلما فُرض صوم شهر رمضان ، لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينههم عنه »[2] . فلو كان الصيام معروفاً عند قريش ، لما سأل الرسول يهود يثرب عن صومهم صيام عاشوراء ، وما جاء من قوله : « نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه » الى أن فرض رمضان ، فرفع عنهم صومه ، وجعلهم أحراراً إن شاءوا صاموه وإن شاءوا أفطروا ، أي صار تطوعاً ، وهو حديث يشك فيه العلماء كذلك . وهذه الرواية تناقض تماماً رواية صيام قريش يوم عاشوراء. ثم اننا لا نجد في القرآن ولا في الحديث — غير حديث عائشة — ما يشير الى وجود ذلك الصوم بمكة قبل الهجرة ، ولو كان معروفاً لما سُكت عنه . ويرجع بعض المستشرقين دعوى صيام قريش لذلك اليوم الى محاولة ارجاع الأصول الاسلامية الى الحنيفية القديمة والى قدماء العرب ثم الى ابراهيم، فصيروا قريشاً تصوم عاشوراء لارجاع الصيام الى أصل قديم[3] .

ولا يعقل وجود الصيام عند المشركين ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، وانما كان الصيام معروفاً عند الاحناف لاتصالهم بهم ، وتأثرهم بكتبهم وبما كان عندهم من أحكام ، ومن ذلك ترهبهم وزهدهم ، وقد كان الرهبان يكثرون من الصوم والاعتكاف .

وأنا لا استبعد أن لفظة (محرم) هي نعت لهذا الشهر لا اسماً له ، عرف بها لكونه شهراً حراماً . تقع عليه الحرمة ، ومن حرمته أن الجاهليين كانوا يبتدئون

---

١ Shorter Ency., p. 47.

٢ الطبري (٢/٤١٧) .

٣ Shorter Ency. p. 48.

سنتهم به . فالمحرم ، هو أول شهر من شهور السنة في حسابهم، ولابتدائهم به، فقد تكون له حرمة خاصة عندهم .

وقد نسب أهل الأخبار شهر رجب الى مضر، فقالوا رجب مضر ، وقد أشير الى ذلك في الحديث أيضاً ، مما يدل على أن هذا الشهر هو شهر مضر خاصة . وقد ذكر العلماء أنه إنمـا عرف بذلك لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم ، وكأنهم اختصوا به[1] . وذكروا أيضاً أنهم كانوا يرجبون فيه ، فيقدمون الرجبية، وتعرف عندهم بالعتيرة ، وهي ذبيحة تنحر في هذا الشهر . ويقال عن أيامه هذه أيام ترجيب وتعتير[2] .

ويذكر علماء الأخبار أن تأكيد الرسول على « رجب مضر الـذي بين جمادى وشعبان» في خطبة حجة الوداع،هو أن ربيعة كانت تحرم في رمضان وتسميه رجباً ، فعرف من ثم بـ (رجب ربيعة) ، فوصفه بكونه بين جمادى وشعبان تأكيـد على أنه غير رجب ربيعة المذكور الذي هو بين شعبـان وشوّال . وهو رمضان اليوم[3] . فرجب اذاً عند الجاهليين رجبان : رجب مضر ورجب ربيعة ، وبين الطائفتين اختلاف في مسائل أخرى كذلك .

ومما يؤيد ان شهر (رجب) كان شهر مضر المحرم عندهم بصورة خاصة ، ما ورد في أقوال علماء التفسير من ان (الشهر الحرام) الوارد في الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، ولا الهدي ولا القلائد »[4] ، هو شهر (رجب) ، وهو شهر كانت مضر تحرم فيه القتال[5] . وما ورد في الآية:

---

١ « رجب مضر : انما أضيف رجب الى هذه القبيلة ، لانهم كانوا يحافظون على تحريمه، أشد من سائر العرب » ، عمدة القارىء (١٨/٤٢) ، تاج العروس (١/٢٦٦ وما بعدها) ، روح المعاني (١٠/٩٠) .

٢ تاج العروس (٣/٧٢) .

٣ الروض الانف (٢/٣٥١) (حجة الوداع) ، بلوغ الارب (٣/٧٢) ، تفسـير الطبري (١٠/٨٨ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥) ، « وان عدة الشهور عندالله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بـين جمادى وشعبان » ، ابن هشام ، سيرة (٢/٣٥١) ، (حاشية على الروض) .

٤ المائدة ، الرقم ٥ ، الاية ٢ .

٥ تفسير الطبري (٦/٣٦ وما بعدها) ، روح المعاني (٦/٤٧) .

« يسألونك عن الشهر الحرام . قتال فيه ؟ »[1] ، واجماع علماء التفسير والأخبار على انه شهر (رجب) ، وان الآية نزلت في أمر قتل (ابن الحضرمي) في آخر يوم من جمادى الآخرة ، وأول ليلة أو يوم من رجب . وقد كان المسلمون يهابونه ويعظمونه ، وكان النبي يحرم القتال في الشهر الحرام ، حتى نزلت الآية في حق القتال فيه وفي بقية الشهور . وقد ذهب المفسرون أيضاً الى ان (الشهر الحرام) ، هو كل شهر حرام من هذه الأشهر الأربعة ، وان الآية لا يراد بها التخصيص ، وان ما ذكر من انه شهر رجب ، فلأجل وقوع الحادث المذكور فيه[2].

وعرف (رجب) بـ (منصل الأل) والألة والألال في الجاهليـة . أي مخرج الاسنة من أماكنها . كانوا إذا دخل رجب نزعوا أسنة الرماح ونصال السهام ابطالاً للقتال فيه ، وقطعاً لأسباب الفتن بحرمته ، فلما كان سبباً لذلك سمي به ، اعظاماً له ، فلا يغزون ولا يغير بعضهم على بعض[3] . وعرف أيضاً بـ (منزع الأسنة) للسبب المذكور .

ومن دلائل حرمة شهر (رجب) ومكانته العظيمة عند أهل الجاهلية ، تقديمهم العتائر فيه والاضاحي التي عرفت عندهم بـ (الرجبية) ، ووقوع أكثر المناسبات الدينية فيه . وقد نعت هذا الشهر بـ (الاصم) ، فقيل له (رجب الاصم) ، لعدم سماع استغاثة أو قعقعة سلاح فيه[4] ، لان العرب كانت لا تقرع فيه الاسنة ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فيه ، فلا يهيجه ، تعظيماً له[5] . وعرف بـ(رجب الفرد) وبـ (الفرد) ، لانفراده وحده من بين الاشهر الحرم الاخرى[6] .

ويرى (وهوزن) ، استناداً الى بعض الموارد اليونانية وغيرها ان العرب كانوا يحرمون شهراً واحداً منفرداً ، هو (رجب الفرد) ، وهو من شهور الربيع ، وشهرين آخرين متصلين يقعان في القيظ ، أي في أوج الصيف . أما الشهر الثالث

---

١ البقرة ، الرقم ٢ ، الاية ٢١٧ .
٢ تفسير الطبري (٢/٢٠١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٨/١٣٧) ، (نصل) .
٤ تاج العروس (٣/٣٨٠) ، (عتر) ، اللسـان (٤/٥٣٧) ، المعاني الكبـير (٢/١١٣) .
٥ تفسير الطبري (٢/٢٠١) .
٦ تاج العروس (٨/٢٤١) ، (حرم) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (١/٨٥) .

الذي ألحق بالشهرين ، فصارت به ثلاثة أشهر حرم متسلسلة متداخلة ، فقد حرم في عهد متأخر لا يبعد كثيراً عن الاسلام ، وهو المحرم[1] .

ويلاحظ ان الموارد الاسلامية قد وضعت بعض الأحداث المهمة في شهر محرم مثل صوم يوم عاشوراء ، ومثل اختيار القدس قبلة للمسلمين ، فقد ذكروا ان ذلك كان في اليوم السادس عشر من المحرم ، ومثل ذكرهم ان وصول حملة الفيل الى مكة كان في اليوم السابع عشر منه ، وان ابتداء السنة الهجرية ، كان في أول المحرم[2] ، مع اننا لو دققنا ذلك تدقيقاً عميقاً ، وجدنا ان أكثر هـذا المروي لم يثبت وقوعه في هذا الشهر .

ونجد في كتب الحديث والأخبار ما يفيد بأن الجاهليين كانوا يعظمون شهري شعبان ورمضان تعظيماً يكاد يضاهي تعظيمهم للأشهـر الحرم . وسبب ذلك في نظري ، هو بفعل النسيء في الشهرين ، وتلاعبهم بالأشهر وتسميتهم لها تسميات كيفية ، ووقوع ذلك التلاعب على الشهرين المذكورين دون بقية الشهور . وقد يكون بسبب أن العـرب كانوا يقدسون الشهرين ويحرمونهما أيضاً ، وأن قريشاً كانت تحترمها أيضاً ، ومن هنا فضل شعبان ورمضان على بقية الأشهر الثمانية مع انهما من الأشهر الاعتيادية على حسب رواية أهل الأخبار . ولم يدخلوهما في جملة الأشهر الحرم . ونجد للشهرين حرمة كبيرة في الاسلام .

وقد كان عرب العراق وبادية الشأم يتجنبون أيضاً مثل عرب الحجاز القتـال في أشهر معينة ، لأنها أشهر مقدسة حرم عندهم ، كما يفهم ذلك من مؤلفات الروم والسريان . فقد أشار المؤرخ (افيفانوس) Epiphanius الى وجود شهر عند العرب ، قال إن العرب تحتفل فيه ، وهو عندهم شهر مقدس ، ويقع في شهر تشرين الثاني ، ويريد به شهر (ذي الحجة) على ما يظن . وقـد دعي بـ (حجت) في بعض المـوارد اليهوديـة[3] . كما ذكر (بروكوبيوس) Procopius أن عرب المناذرة لم يكونوا ليحاربوا في شهورهم المقدسة ، وقال إنهم كانوا قد جعلوا شهرين في السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيهـا ولا يقاتلون

---

١ Reste, S. 100.

٢ Shorter, p. 410.

٣ Aboda Zara, II b., Epiphanius, Haer., 51, 24.

بعضهم بعضاً ، ويقعان في تموز وآب[1] . وذكر (فوتيوس) أن العرب يحجون الى معبدهم مرتين في السنة: مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف ، وذلك لمدة شهرين[2] .

وفي هذه الإشارات معلومات قيمة ، تشير الى وجود الاشهر الحرم عند العرب الشماليين . ويفهم منها أن الاشهر الحرم كانت ثابتة لا تتغير ، فلا يقع حجهم مرة في شتاء ومرة في صيف ، وأخرى في ربيع ، ومرة في خريف . فحجهم ثابت ، وأشهرهم ثابتة . ومما يؤسف له أن أولئك المؤرخين لم يشيروا الى أسماء المواضع التي كانوا يحجون اليها .

الشهور الحل :

وأما الشهور الثمانية الاخرى ، غير الحرم ، فهي : صفر ، وشهر ربيع الأول ، وشهر ربيع الآخر ،وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ، وشعبان ، وشهر رمضان، وشوال . وقد استحل فيها القتال والغزو .

وقد عرفت هذه الشهور : الحرم منها والشهور الحل بشهور معد[3] . وكان أهل مكة يستعملونها عند ظهور الاسلام . والظاهر ان القبائل المجاورة لمكة كانت تستعملها أيضاً . وبهذه الأشهر أرخت رسائل الرسول وأوامره ، وصارت باستعمال الرسول لها الشهور الرسمية في الاسلام ، عليها يسير كل المسلمين على اختلاف ألوانهم حتى اليوم لما لها من صلات بأمور دينهم في مثل الصوم والحج .

وصفر ، هو الشهر الذي يلي المحرم . « قال بعضهم : انما سمي لأنهم كانوا يمتارون الطعام فيه من المواضع ، وقيل لاصفار مكة من أهلها اذا سافروا،وروي عن رؤبة انه قال : سمّوا الشهر صفراً لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل فيتركون من لقوا صفراً من المتاع ، وذلك ان صفراً بعد المحرم ، فقالوا صفر الناس منا

---

١ Reste, S. 100. f., De Bello Persi., 11, 16, Photius, Bibl. Cod., 3.

٢ Reste, S. 101, Winckler, Alt. Orient. Forsch., II, Reihe, I Band, S. 336.

٣ قال قائل من بني كنانة :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

تاج العروس (٤/٢٢) .

صفراً »[1] . وكانوا اذا جمعوا المحرم مع صفر ، قالوا : صفران . وفي ذلك قول أبي ذؤيب :

أقامت به كمقام الحنيف شهري جمادى وشهري صفر[2]

وكان أهل مكة يفتتحون سنتهم بالمحرم . فهو أول شهر عندهم من أشهر السنة . وقد أقر الإسلام هذا المبدأ ، فجعل المحرم أول شهر من شهور السنة الهجرية[3] .

ويذكر أهل الأخبار أن أول من سمى الشهور المحرم وما بعده بأسمائها هذه هو (كِلاب بن مرّة)[4] .

---

١ تاج العروس (٣/٣٣٦) ، (صفر) .

٢ المصدر نفسه .

٣ « قال أبو جعفر : فاذا كان الامر في تأريخ المسلمين كالذي وصفت ، فانه وان كان من الهجرة ، فان ابتداءهم اياه قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بشهرين وأيام ، هي اثنا عشر ، وذلك ان أول السنة المحرم ، وكان قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، بعد مضي ما ذكرت من السنة ، ولم يؤرخ التأريخ من وقت قدومه ، بل من أول تلك السنة » ، الطبري (٢/٣٨٨ وما بعدها) ، « ذكر الوقت الذي عمل فيه التأريخ » ، روح المعاني (١٠/٩٠ وما بعدها) ، الايام والليالي والشهور (ص ٩) ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، المرزوقي (١/٢٨٣) ، Reste, S. 97.

٤ بلوغ الارب (٣/٧٨) .

الفصل الثالث والثلاثون بعد المئة

النسيء

عرف علماء العربية النسيء بقولهم : « والنسيء المذكور في قول الله تعالى : انما النسيء زيادة في الكفر[1] . شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية ، فنهى الله عز وجل عنه في كتابه العزيز حيث قال : انما النسيء زيادة في الكفر ، الآية، وذلك انهم كانوا اذا صدروا عن منى يقوم رجلٌ من كنانة ، فيقول : أنا الذي لا يرد لي قضاء ، فيقولون : أنسئنا شهراً ، أي أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر فيحل لهم المحرم »[2] . وعرف النسيء بأنه تأخير بعض الأشهر الحرم الى شهر آخر . وذلك من (نسأ) . والنسء تأخير الوقت[3] . وجعله بعضهم بمعنى (الكبس) ، المعروف[4] . وقد ذهب العلماء الى أن النسيء كل زيادة حدثت في شيء ، فالشيء الحادث فيه تلك الزيادة بسبب ما حدث فيه نسيء[5] . فالنسيء تأخير حرمة المحرم الى صفر ، وجعل المحرم شهراً حلالاً ، يجوز لهم القتال فيه ، لأنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم ، لا يغيرون فيها

---

١ التوبة ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري (٩١/١٠) ، روح المعاني (٣٨/١٠) ، تاج العروس (٤٥٦/١) ، (طبعة الكويت) ، اللسان (١٦٧/١) ، الكشاف (٢٣/٢)، صبح الاعشى (٣٦٦/٢) ، (صادر) ، المختار من صحاح اللغة (٥٢٠) .

٢ اللسان (١٦٧/١) ، (صادر) ، (تاج العروس (٤٥٦/١) ، (الكويت) .

٣ المفردات (٥١١) ،الروض الانف (٤١/١ ، ٨٥) .

٤ ابن الاجدابي (٣٠) .

٥ تفسير الطبري (٩١/١٠) ، القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (١٣٧/٨) .

ولا يغزون ، ومعاشهم على الغارات والغزو . ففعلوا النسيء ، لإحلال ذمتهم من حرمة محرم ، ولتجويز القتال فيه،فكانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم فيمكثون بذلك زماناً ، ثم يزول التحريم الى المحرم،ولا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة[1] . وقد عرف بعض العلماء النسيء بأنه تأخير حرمة شهر الى شهر آخر[2] . و « العرب تقول : نسأ الله في أجلك ، وأنسأ الله أجلك ، أي أخر الله أجلك »[3] .

فهم كانوا يستحلون ترك الحج في الوقت الذي هو واجب فيه ، ويوجبونه في الوقت الذي لا يجب فيه،وجوّزوا ذلك عليهم حتى ضلّوا باتباعهم هذا التجويز . بأن جعلوا الشهر الحرام حـــلالاً ، إذا احتاجوا الى القتال فيه ، وجعلوا الشهر الحلال حراماً ، ويقولون شهراً بشهر ، وإذا لم يحتـــاجوا الى ذلك لم يفعلوه[4] . فكانوا « يحجون في كثير من السنين ، بل أكثرها في غير ذي الحجة »[5] ، ومن هنا تلاعبـــوا بالأشهر وأخرجوها عن حقيقتها ، بأن جعلوا الشهر الحرام حلالاً والشهر الحلال حراماً ، فخالفوا بذلك ما اتفق عليه من تحريم أشهر بعينهـــا هي من الأشهر الحل ، ومن تحليل أشهر هي الاشهر الحرم .

واذا أخذنا بما جاء على لسان بعض الشعراء عن النسيء ، مثل قولهم :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحل نجعلها حراما

وقول أحدهم :

وكنا الناسئين على معدّ شهورهم الحرام الى الحليل

---

١ تفسير الطبرسي (٩/٥) ، (طبعة طهران) ، الامالي ، للقالي (٤/١) .
٢ تفسير الرازي (٥٥/١٦) ، تفسير البيضاوي (٢٥٣/١ وما بعدها) ، الكشاف (٣٨/٢) ، التسهيل لعلوم التنزيل ، لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي (٧٥/٢) ، تفسير القاسمي (٣١٤٣/٨) .
٣ الامالي ، لنقالي (٤/١) .
٤ تفسير الطبرسي (٢٩/٥) ، (طهران) .
٥ تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢) .

وقول الآخر :

نسئوا الشهورَ بها[1] وكانوا أهلها من قبلكم والعز لم يتحول[2]

واعتبرناه صحيحاً ، نستنتج منه أن النسيء كان خاصاً بحج (مكة) ، وبالقبائل التي عرفت بقبائل (معد) . وقد عرفنا قبائل وعشائرها وفي جملتها قريش .

واذا أخذنا النسيء بهذا المعنى ، صار معناه مجرد تبديل شهر بشهر ، وتأخير حرمة شهر الى الشهر الذي يليه . وليس هذا بزيادة ، أي زيادة أيام أو شهر على شهور السنة ، وهي الأيام التي تتخلف فيها السنة القمرية عن السنة الشمسية، لتتساوى بها ، فتثبت الأشهر في مواضعها من الفصول ، وهو ما يعبر عنه بالكبس فليس هذا النسيء كبساً اذاً .

وقد تعرض (البيروني) لموضوع النسيء عند العرب ، فقال : « وكانوا في الجاهلية يستعملونها على نحو ما يستعمله أهل الاسلام . وكان يدور حجهم في الأزمنة الأربعة . ثم أرادوا أن يحجوا في وقت ادراك سلعهم من الادم والجلود والثمار وغير ذلك ، وأن يثبت ذلك على حالة واحدة ، وفي أطيب الأزمنة وأخصبها. فتعلموا الكبس من اليهود المجاورين لهم . وذلك قبل الهجرة بقريب من مئتي سنة . فأخذوا يعملون بها ما يشاكل فعل اليهود من إلحاق فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس شهراً بشهورها اذا تم ... ويسمون هذا من فعلهم النسيء ، لأنهم كانوا ينسأون أول السنة في كل سنتين أو ثلاث شهراً ، على حسب ما يستحقه التقدم »[3] .

وتعرض (ابن الأجدابي) لموضوع (الكبس) والسنة (الكبيسة) عند العبرانيين واليونانيين كذلك ، فقال : « وقد كانت العرب في الجاهلية تفعل مثل هذا ، وتزيد في كل ثالثة من سنيها شهراً ، على نحو ما ذكرناه عن العبرانيين واليونانيين. وكانوا يسمون ذلك النسيء . وكانت سنة النسيء ثلاثة عشر شهراً قمرية . وكانت

---

١ مرجع الضمير فيه « مكة » .
٢ الامالي ، للقالي (١/٤) .
٣ الآثار الباقية (١١ ، ١٢ ، ٦٢ ، ٣٢٥) ، ابن الاجدابي (٣٢) ، القانون المسعودي (٩٢ ، ١٣١) ،التفسير الكبير ، للرازي (٤٤٧/٤) ، روح المعاني (١٠/ ٩١ وما بعدها) .

شهورهم حينئذ غير دائرة في الأزمنة ، كان لكل شهر منهـــا زمن لا يعدوه . فهذا كان فعل الجاهليـــة حين أحدثوا النسيء ، وعملوا به . فلما جاء الله تعالى بالإسلام بطل ذلك ، وحرم العمل به . فقال : إنما النسيء زيـادة في الكفر[1] . وقال عزّ وجلّ : إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتـــاب الله[2] . فسنة العرب اليوم اثنا عشر شهراً قمرية دائرة في الأزمنة الأربعة »[3] .

والنسيء الذي ذكره (البيروني) و (ابن الأجدابـي) ، هو كبس صحيح، وليس مجرد تقديم شهر وتأخير آخر على نحو ما رأيت . غايتـه تثبيت الأزمنة ، وجعل الحج في موسم ثابت معين ، فلا يكون في شتـاء مرة ، وفي صيف مرة أخرى ، وفي ربيع مرة ، وفي خريف مرة أخرى ، بجعل السنة سنة قمرية شمسية على نحو فعل يهود بسنتهم . وهو بهذا المعنى في رواية (المسعودي) . فقد قال: « وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وهو التأخير ، وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله : « إنمـا النسيء زيادة في الكفر »[4] .

وكان النسيء الأول للمحرم ، فسمي صفر به . وشهر ربيع الأول باسم صفر ثم والوا بين أسماء الشهور . وكان النسيء الثاني لصفر ، فسمي الذي كان يتلوه بصفر أيضاً . وكذلك حتى دار النسيء في الشهور الاثني عشر ،وعاد الى المحرم ، فأعادوا بها فعلهم الأول . وكانوا يعدون أدوار النسيء ، ويحدّون بها الأزمنة ، فيقولون : قد دارت السنون من زمان كذا الى زمان كذا دورة . فإن ظهر لهم مع تقدم شهر عن فصله من الفصول الأربعة لما يجتمع من كسور سنـــة الشمس وبقية فضل ما بينها وبين سنة القمر الذي ألحقوه بها ، كبسوه كبساً ثانياً . وكان يبين لهم ذلك بطلوع منازل القمر وسقوطها حتى هاجر النبي عليه السلام، وكانت نوبة النسيء كما ذكرت بلغت شعبان ، فسمي محرماً ، وشهر رمضان صفـراً ، فانتظر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حينئذ حجة الوداع ، وخطب بالنـــاس ، وقال فيهـا : « ألا ، وإن الزمان قد استدار كهيأتـــه يوم خلق الله السموات

---

١ سورة التوبة ، الآية ٣٧ .
٢ التوبة ، الآية ٣٦ .
٣ ابن الاجدابي (٣٣) .
٤ مروج الذهب (١٨٨/٢) ، (ذكر سني العرب وشهورها) .

والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي يدعى شهر مضر الذي جاء بين جمادى الآخرة وشعبان ، والشهر تسعة وعشرون وثلاثون»[1]. ومنذ ذلك الحين ترك النسيء . « وعنى بذلك ان الشهور عادت الى مواضعها ، وزال عنها فعل العرب بها . ولذلك سميت حجة الوداع الحج الأقوم . ثم حرم ذلك ، وأهمل أصلاً »[2] . وقد ذكر (المسعودي) ان عدة الشهور عند العرب وسائر العجم اثنا عشر شهراً[3] . وتقسيم السنة الى اثني عشر شهراً ، هو تقسيم قديم يعود الى ما قبل الميلاد .

وذُكر أن نسيء العرب كان على ضربين : أحدهما تأخير شهر المحرم الى صفر . لحاجتهم الى شن الغارات وطلب الثارات ، والآخر تأخير الحج عن وقته تحرّياً منهم للسنة الشمسية ، فكانوا يؤخرونه في كل عام أحد عشر يوماً ، حتى يدور الدور فيه الى ثلاث وثلاثين سنة ، فيعود الى وقته[4] . وهذا الرأي يلخص ما أورده أهل الأخبار في النسيء . ويتلخص في شيئين : النسيء تأخير الشهور ، وذلك بإحلال شهر في مكان شهر آخر ، للإستفادة من ذلك في التحليل والتحريم ، والنسيء بمعنى الكبس ، وهو إضافة الفرق الذي يقع بين السنة الشمسية والسنة القمرية الى الشهور القمرية لتلافي النقص الكائن بين السنتين ، ولتكون الشهور القمرية بذلك ثابتة لا تتغير ، تكون في مواسمها المعينة ، فلا يقع حادث في شهر من شهورها في الشتاء ، ثم يتحول بمرور السنين ، فيقع بعد أمد في الصيف أو في الربيع ، كما يقع ذلك في الشهور القمرية الصرفة المستعملة في الاسلام .

وتسمى الطريقة الثانية ، وهي إضافة فرق الأيام بين السنتين الشمسية والقمرية الى السنة القمرية . (الكبس) في اصطلاح العلماء . وقد كانت شهور اليهود ، وهي شهور قمرية : تساوي (٣٥٤) يوماً وست ساعات ، فهي لذلك أنقص بأحد

---

١ امتاع الاسماع (١/٥٣١) ، ويختلف هذا النص في مختلف الموارد ، راجع عمدة القارىء (١٨/٤١) ، مجالس ثعلب (١٢١) ، سيرة ابن هشام (٢/٣٥١) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (٢/٣٥١) .

٢ الآثار الباقية (١/٦٢ وما بعدها) ، روح المعاني (١٠/٩١ وما بعدها) .

٣ مروج الذهب (٢/١٧٧) ، (ذكر سني العرب والعجم وشهورها) .

٤ بلوغ الارب (٣/٧١) ، نهاية الارب (١/١٦٦ وما بعدها) .

عشر يوماً عن السنة الرومانية ، فأدخلوا شهراً ثالث عشر في كل ثلاث سنوات، سموه (فيادار) أو (آذار الثاني) ، وبهذه الطريقة جعلوا السنـــة القمرية مساوية للسنة الشمسية[1] . وقد ذكر (المسعودي) ، أن أيام السنة « ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً ، تنقص عن السرياني أحـــد عشر يوماً وربع يوم ، فتفرق في كل ثلاث وثلاثين سنة ، فتنسلخ تلك السنة العربية ولا يكون فيها نيروز ، وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً ، وتسميه النسيء وهو التأخير »[2] . وذكر (القلقشندي) ، أنهم كانوا يؤخرون في كل عام أحد عشر يوماً ، حتى يدور الدور الى ثلاث وثلاثين سنة، فيعود الى وقته،فلما كانت سنة حجة الوداع، وهي تسع من الهجرة ، عاد الحج الى وقته اتفاقاً في ذي الحجة كما وضع أولاً، فأقام رسول الله،صلى الله عليه وسلم ، فيه الحج ، ثم قال في خطبته التي خطبها يومئذ : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، بمعنى أن الحج قد عاد في ذي الحجة »[3] . وذكروا ان المشركين كـانوا « يحجون في كل شهر عامين ، فحجّوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين ، وكذلك في الشهور كلها حتى وافقت حجة أبي بكر التي حجها قبل حجة الوداع ذا القعدة من السنة التاسعة ، ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم ، في العـــام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة ، فذلك قوله في خطبته : ان الزمان قد استدار ... الحديث . أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت الى مواضعها ، وعاد الحج الى ذي الحجة وبطل النسيء[4] .

وورد في خبر يرجع سنده الى (إياس بن معاويـــة) ، أن المشركين كانوا « يحسبون السنة اثني عشر شهراً وخمسة عشر يوماً ، فكان الحج يكون في رمضان وفي ذي القعدة ، وفي كل شهر من السنة بحكم استدارة الشهر بزيادة الخمسة عشر يوماً ، فحج أبو بكر سنة تسع في ذي القعدة بحكم الاستدارة ، ولم يحج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فلما كان في العام المقبل وافق الحج ذا الحجة في العشر ، ووافق ذلك الآهلة »[5] . وقد ورد في الحديث : « الشهر هكذا وهكذا ، يعني

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٦٣٩/١ وما بعدها) .
٢ مروج (١٨٨/٢) ، (ذكر سني العرب وشهورها وتسمية أيامها ولياليها) .
٣ صبح الاعشى (٣٩٧/٢) .
٤ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (١٣٧/٨) .
٥ المصدر نفسه (١٣٨/٨) .

مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين »[1] ، كما ورد : « شهران لا ينقصان شهراً رمضان وذو الحجة »[2] . فإذا أخذنا بذلك ، كان الفرق بين أيام السنة القـ وأيام السنة الشمسية ، هو ما يجب اضافته على السنة القمرية لتكون سنة شمسي ذات أشهر ثابتة .

واذا صحت رواية بعض الأخباريين عن إضافة الجاهليين أحد عشر يوماً، السنة القمرية ، ليضمنوا بذلك ثبات الأشهر ، وعدم تغير أوقاتهـــا . فإن يكون كبساً صحيحاً بالمعنى المفهوم من الكبس ، مؤدياً للغاية المتوخاة منه . وع تكون سنة أولئك الجاهليين المستعملين للكبس سنة قمرية شمسية . وأنا لا أستبع شيوعها عند أهل المدينة ، بسبب اختلاطهم باليهود ، ولا أستبعد كذلك اتفا مع يهود يثرب في استعمال السنة المستعملة عند اليهود نفسها ، وابتدائهم بالش الذي كان يبدأ به أولئك اليهود .

ويؤيد هذه الرواية ما ذكره أهل الأخبار كلهم من ان الغاية التي حملت العا بالنسيء على استعمالهم له « انهم كانوا يحبون ان يكون يوم صدرهم عن ا في وقت واحد من السنة » فكانوا ينسئونه . والنسيء التأخير ، فيؤخرونه في سنة أحد عشر يوماً ، فإذا وقع في عدة أيام من ذي الحجة ، جعلوه في ا المقبل لزيادة أحد عشر يوماً من ذي الحجة ، ثم على تلك الأيام يفعلون كذ في أيام السنة كلها . وكانوا يحرمون الشهرين اللذين يقع فيهما الحج، والشهر ال بعدهما ، ليواطئوا في النسيء بذلك عدة ما حرم الله . وكانوا يحرمون رجباً كي وقع الأمر . فيكون في السنة أربعة أشهر حرم »[3] .

أما التفسير الأول للنسيء ، وهو تفسيره بمعنى تحليل شهر محرم ، وتحريم ش حلال ، وتأخير شهر وتقديم شهر ، فإنه لا يحقق ما ذكر من رغبة الناس يو في حجهم في وقت ثابت لا يتغير ولا يتبدل ، لأن الحج يتغير فيـــه ، فيك أحياناً في الصيف ، وأحياناً في الشتاء ، وأحياناً في الربيع ، وأحياناً في الخريف وهذا لا يتفق مع زعم أهل الأخبار في السبب الذي دعا الى الأخذ بالنسيء .

والنسيء بهذا التفسير ، لا يفيد إلا من ناحية التحايل والتلاعب في ايجاد ح

---

١ ارشاد الساري (٣/٣٥٩) .
٢ المصدر نفسه .
٣ تاج العروس (١/١٢٥) ، (نسأ) .

مشروعة في تجويز القتال في بعض الأشهر الحرم ، وذلك كأن تكون قبيلة قوية تريد القتال في شهر محرم ، لاستعدادها له فيه فتعمد الى هذا الحل ، والتحايل على العرف بالتوسل الى (القلمس) لتغيير الشهور ، فيصير الشهر الحرام حلالاً ، وبذلك يتاح لها القتال فيه .

وإني أرى في هذا التفسير تكلفاً ظاهراً ، وهو يعارض مع ما ذكر من الغاية من النسيء . واذا جاز إحداثه في سنة ما للغايات المذكورة ، فلا يعقل إحداثه في كل سنة بانتظام . وإلا لم يبق له معنى ما ولا فائدة ترجى عندئذ منه .

وقد جاء معنى النسيء في الآية : « إنما النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً . ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله . زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدي القوم الكافرين »[1] . فقال بعض علماء التفسير : كانوا يجعلون السنه ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون المحرم صفراً، فيستحلون فيه الحرمات ، فأنزل الله إنما النسيء زيادة في الكفر[2] . « وكان المشركون يسمّون الأشهر : ذو الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع ، وربيع، وجمادى ، وجمادى ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، يحجون فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ، ثم يعودون فيسمون صفر صفر . ثم يسمون رجب جمادى الآخر ، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون رمضان شوّالاً ، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً ، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة،ثم يسمون المحرم ذا الحجة ، فيحجون فيه ، واسمه عندهم ذو الحجة. ثم عادوا بمثل هذه القصة ، فكانوا يحجون في كل شهر عامين ، حتى وافق حجة أبي بكر ، رضي الله عنه ، الآخر من العامين في ذي العقدة ، ثم حج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حجته التي حج ، فوافق ذا الحجة ، فذلك حين يقول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في خطبته إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض »[3]. فالنسيء هو المحرم ، وكان يحرم المحرم عاماً، ويحرم صفر عاماً ، وزيد صفراً في آخر الأشهر الحرم ، وكانوا يؤخرون الشهور

---

١ التوبة ، الآية ٣٧ .
٢ تفسير الطبري (١٠/٩٣) .
٣ تفسير الطبري (١٠/٩٢ وما بعدها) ، تفسير النسفي (٢/١٢٥ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٣ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٨/١٣٧ وما بعدها) .

حتى يجعلوا صفر المحرم ، فيحلوا ما حرم الله . وكانت هوازن ، وغطفان ، وبنو سليم ، يعظمونه ، وهم الذين كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية [1] . وهكذا كانوا يجعلون سنة المحرم صفراً ، فيغزون فيه ، فيغنمون فيه ويصيبون ويحرمونه سنة [2] . وذكر أنهم كانوا يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ، ثم يعودون فيسمون صفراً [3] .

وقد تحدث (الطبرسي) عن النسيء فقال : « قال مجاهد : كان المشركون يحجّون في كل شهر عامين ، فحجوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين ، وكذلك في الشهور حتى وافقت الحجة التي قبل حجة الوداع في ذي القعدة ، ثم حج النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، في العام القابل حجة الوداع ، فوافقت في ذي الحجة ، فذلك حين قال النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وذكر في خطبته ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . أراد عليه السلام الأشهر الحرم رجعت الى مواضعها وعاد الحج الى ذي الحجة وبطل النسيء » [4] .

وهذا الفعل الذي هو النسيء ، هو الذي جعل العلماء يقولون : إن الصفر النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وهو تأخيرهم المحرم الى صفر في تحريمه ويجعلون صفراً هو الشهر الحرام [5] . فهم يدخلون شهراً جديداً على السنة بعد ذي الحجة ، يكون مقامه بين هذا الشهر وبين شهر صفر الأول ، الذي هو المحرم من الأشهر الحرم . وبذلك يكونون قد فصلوا بين الأشهر الحرم الثلاثة ، بأن جعلوا شهراً حلالاً جديداً بين الشهرين المحرمين : ذو القعدة وذو الحجة ، وبين الشهر الثالث المتصل بهما ، وهو المحرم ، ففصل عن الشهرين ، وصار وحيداً . فعلوا ذلك ليحافظوا على وقت الحج ، بجعله ثابتاً . ولما كان ذلك معناه

---

١ تفسير الطبري (١٠/٩٢ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (١٠/٩٢) .
٣ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٧) .
٤ تفسير الطبرسي (٥/٢٩) .
٥ تاج العروس (٣/٣٣٦) ، (صفر) .

تغيير حرمة الأشهر الحرم الثلاثة بجعل الشهر الحلال شهراً حراماً ، والشهر الحرام حلالاً ، حرم النسيء في الاسلام . فابتعدت السنة بذلك عن السنة الشمسية، وصار الحج يدور باختلاف المواسم ، لأن السنة صارت سنة قمرية . وبذلك تغير وقت الحج عما كان عليه في الجاهلية ، فلم يعد ثابتاً على نحو ما كان عليه عند الجاهليين.

وفراراً من اسم النسيء ، الذي هو زيادة في الكفر ، كانوا في صدر الاسلام يسقطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سنة عربية ، سنة ويسمونها : سنة الازدلاق لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية تساوي اثنتين وثلاثين سنة شمسية تقريباً [1] .

مبدأ النسيء :

ويرجع أهل الأخبار مبدأ ادخال النسيء الى الجاهليين الى (عمرو بن لحي) أو الى (القلمس) ، وهو (حذيفة بن فقيم بن عامر بن الحارث) ، أو (حذيفة بن عبد بن فقيم)[2] ، أو (نعيم بن ثعلبة)[3]، أو (قلع بن حذيفة بن عبد بن فقيم) ، أو آخرون[4] . وذلك ان العرب كانوا لا يكبسون ، الى أن جاورتهم اليهود في يثرب ، فأرادوا « أن يكون حجهم في أخصب وقت من السنة وأسهلها للتردد في التجارة ، ولا يزول عن مكانه ، فتعلموا الكبس من اليهود »[5] . فصار النسيء عادة من عادات العرب منذ ذلك الحين الى منعه في الاسلام .

وكانت النَّسَأة في بني مالك بن كنانة ، وكان أولهم القلمس حذيفة بن عبد ابن فُقيم بن عديّ بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، ثم ابنه قلع بن حذيفة ، ثم عباد بن قلع ، ثم (قلع بن عبّاد قلع) ثم أمية بن قلع

---

١ صبح الاعشى (٢/٣٩٨) .
٢ بلوغ الارب (٣/٧١) ، نهاية الارب (١/١٦٥) ، (حذيفة بن عبد بن نهم بن عدي ابن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، المحبر (١٥٧) ، تاج العروس (٤/٢٢٢) ، تفسير الطبرسي (٥/٢٩) ، (طبعة طهران) .
٣ الروض الانف (١/٤١) ، تفسير الطبرسي (٥/٢٩) ، (طهران) ، تفسير الخازن (٢/٢٢١) ، تفسير القاسمي (٨/٣١٤٣) ، البحر المحيط (٥/٣٩) .
٤ تاج العروس (١/٤٥٦ وما بعدها) ، (الكويت) .
٥ بلوغ الارب (٣/٧١) .

ثم عوف بن أمية ، ثم جنادة بن أمية بن عوف بن قلع[1] . وذكر أن أول من نسيء قلع ، نسأ سبع سنين ، ونسأ أمية إحدى عشرة سنة[2] . وذكر عن (ابن اسحاق) أن أول من نسأ عند العرب (القلمس) ، وهو (حذيفة بن عبد فقيم ابن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، ثم قام بعده على ذلك ابنه (عباد) ، ثم من بعد عبّاد ابنه (قلع بن عبّاد) ، ثم ابنه (أمية ابن قلع) ، ثم ابنه (عوف بن أمية) ثم ابنه (أبو ثمامة) (جنادة بن عوف)، وكان آخرهم وعليه قام الإسلام[3] . وذكر (القرطبي) عن (ابن الكلبي) أن « أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة ، يقال له : نعيم بن ثعلبة ، ثم كان بعده رجل يقال له : جنادة بن عوف ، وهو الذي أدركه رسول الله، صلى الله عليه وسلم . وقال الزهري : حيّ من بني كنانة ثم من بني فُقيم منهم رجل يقال له القلمس ، واسمه حذيفة بن عبيد . وفي رواية مالك بن كنانة . وكان الذي يلي النسيء يظفر بالرياسة لترئيس العرب إياه . وفي ذلك يقول شاعرهم :

ومنّا ناسيء الشهر القلمس

وقال الكميت :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحلّ نجعلها حراما »[4]

وذكر (اليعقوبي) ، ان أول من نسأ الشهور : (سرير بن ثعلبة بن الحارث ابن مالك بن كنانة) . وهو والد (هند) التي تزوجها (مرة بن كعب) ، فولدت له (كلاباً) . وشرف (كلاب بن مرة) وجلّ قدره واجتمع له شرف الأب ، وهو (كعب بن لؤي) ، الذي كان أول من سمى يوم الجمعة بالجمعة، وكانت العرب تسميه (عروبة) ، وشرف الجد من قبل الأم ، لأنهم كانوا

---

١ تاج العروس (٤٥٧/١) (١٢٥/١) ، (نسأ) ، مروج الذهب (٣٦٧/١ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٧٢/٣) ، نهاية الارب (١٦٦/١) ، (حذيفة بن عبد بن نهم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، المحبر (١٥٧) .

٢ تاج العروس (٤٥٦/١) ، تفسير الطبرسي (٢٩/٥ وما بعدها) ، تفسير سورة التوبة ، الآية ٣٦ وما بعدها ، تاج العروس (١٢٤/١) ، (نسأ) .

٣ تفسير ابن كثير (٣٥٧/٢) .

٤ تفسير القرطبي (١٣٨/٨) .

يجيزون الحج ويحرمون الشهور ويحللونها ، فكانوا يسمون النسأة والقلامس[1] .

وذكر (الزبيري) ، ان (سريراً) أول من نسأ الشهور ، وقد انقرض سرير، ونسأ الشهور بعده ابن أخيه القلمس ، واسمه عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث ابن كنانة . ثم صار النسيء في ولده . وكان آخرهم جنادة بن عوف[2] ، وهو (أبو ثمامة) . وورد في رواية أخرى ، ان آخرهم هو (فقيم بن ثعلبة) ، أو هو غيره . وقد ذكروا أن (أبا ثمامة) ، وهو (جنادة بن أمية) من بني (المطلب بن حدثان بن مالك بن كنانة) ، من نسأة الشهور على معد ، كان يقف عند (جمرة العقبة ، ويقول : اللهم اني ناسىء الشهور وواضعها مواضعها ولا أعاب ولا (أحاب) أجاب : اللهم إني قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر ، وكذلك في الرجبين ، يعني : رجباً وشعبان . ثم يقول : انفروا على اسم الله تعالى . وفيه يقول قائلهم :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحل نجعلها حراما[3]

وذكر أن أول من نسأ بعد (القلمين) القلمسين : (حذيفة بن عبد نعيم ابن عدي) ، و (زيد بن عامر بن ثعلبة) (وهو القلمين بن عامر بن ثعلبة) (عياد بن حذيفة) ، ثم (قلع بن عياد) ، ثم (أمية بن قلع) ، ثم (عوف ابن أمية) ، ثم (جنادة) فأدركه الإسلام[4] .

وذكر (الطبري) ، « أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني ، كان يوافي الموسم كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة ، فينادى : ألا ان أبا ثمامة لا يحاب ولا يعاب ، ألا وان صفر العام الأول حلال ، فيحله الناس ، فيحرم صفر عاماً ويحرم المحرم عاماً »[5] . ودعاه بـ (أبي ثمامة صفوان بن أمية) ،أحد (بني فقيم

---

١ اليعقوبي (١/٢٠٧) ، (طبعة النجف) .
٢ نسب قريش (ص ١٣) .
٣ تاج العروس (٤/٢٢٢) ، (القلمس) ، تاج العروس (١/١٢٥) ، (نسأ) ، ينسب هذا البيت الى « عمير بن قيس بن جذل الطعان » ، اللسان (١/١٦٧) ، (صادر) ، نهاية الارب (١/١٦٦) .
٤ الاصابة (١/٢٤٨) ، (رقم ١٢٠٧) .
٥ تفسير الطبري (١٠/٩١) .

ابن الحارث ، ثم أحد بني كنانة)[1] . وذكر أنه « كان رجل من بني كنانة، يأتي كل عام في الموسم على حمار له ، فيقول : أيها الناس ، اني لا أعاب ولا أجاب ، ولا مردّ لما أقول . انا قد حرمنـــا المحرم ، وأخرنا صفر . ثم يجيء العام المقبل بعده ، فيقول مثل مقالته . ويقول إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله : ليواطئوا عدة ما حرم الله[2] » . وكان هذا الرجل يقال له:القلمس[3] .

وكان آخر النسأة ، (جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عيّاد (عباد) بن حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن زيد بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك ابن كنانة) ، أبو (ثمامة)[4] (أبو أمامة) الكناني . نسأ الشهور أربعين سنة ، وأدرك الاسلام . وكان أبعد النسأة ذكـــراً ، وأطولهم أمداً . وذكـــر ان اسمه (أمية بن عوف بن جنادة بن عوف بن عياد بن قلع بن فقيم بن عدي بن عامر ابن الحارث بن ثعلبة)[5] ، وذكر أيضاً انه (القلمس بن أمية بن عوف بن قلع ابن حذيفة بن عبد بن فقيم)[6] .

وورد في خبر ينسب الى (ابن عباس) ، انه قال : النسأة في كنـدة[7] . وانهم كانوا النسأة الأول ، قبل المذكورين[8] . وذهب (الجاحظ) الى ان النسيء كان في كنانة ، وأما السدانة ، فكانت في (مرّ بن أدّ) « من رهط صوفة والرُبيط منها أصحاب المزدلفة ، وكانت عدوان وأبو سيّارة عميلة بن أعزل ، تدفع الناس »[9] . ويكاد يكون الاجماع على أن النسيء كان من حق (كنانة) ، لم يتولّه غيرهم .

وذكر أن الناسيء ، كان يحل للمحرمين قتال (خثعم) و (طيء) ، « لأنهم كانوا لا يحرمون الأشهر الحرم ، فيغيرون فيها ويقاتلون . فكان من نسأ الشهور

---

١ تفسير الطبري (١٠/٩٢) .
٢ تفسير الطبري (١٠/٩٢) .
٣ تفسير الطبري (١٠/٩٣) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (١/١٢٤) ، (نسأ) ، (١/٤٥٦) ، « طبعة الكويت » ، نهاية الارب (١/١٦٦) ، الروض الانف (١/٤٢) .
٥ الاصابة (١/٢٤٨) ، (رقم ١٢٠٧) .
٦ نهاية الارب (١/١٦٦) ، تاج العروس (١/١٢٤) ، (نسأ) .
٧ اللسان (١/١٦٧) ، (صادر) .
٨ الازرقي (١/١١٨) .
٩ الحيوان (٧/٢١٥) .

من الناسئين يقوم ، فيقول : إني لا أحاب ولا أعاب ، ولا يرد ما قضيت به، وإني قد أحللت دماء المحلين من طيء وخثعم ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم إذا عرضوا لكم »[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن أولئك الناسئين كانوا نابهين في قومهم ، لهم مركز عظيم وشأن . فكان (القلمس) ، مثلاً ملكاً في قومه ، وهو من بني كنانة[2] ، وكان عالم قومه وفقيههم في الدين ، وكان الذي يلي النسيء يظفر بالرياسة لترئيس العرب إياه[3] . ويظهر أنهم كانوا أصحاب علم ونظر ومكانة محترمة ، في أمور الدين ، في قومهم وفي القبائل التي تحج الى مكة .

وكلمة (قَلَمَّس) على ما يتبين من روايات الأخباريين ، لم تكن اسم علم، وإنما هي لفظة يراد بها عند الجاهليين ما يراد من معنى الفقيه والمفتي في الاسلام[4]. وقد ذكر علماء اللغة أن من معاني القلمس : السيد العظيم ، والرجل الخيّر المعطاء والمفكر البعيد الغور ، والداهية من الرجال ، ونحو ذلك من معان تشير الى صفات عالية في الرجل الذي أطلقت عليه ، وقد تكون بمعنى العالم العارف، وقد أطلقت بصورة خاصة على هذه الجماعة ، لسعة علمها بهذا الموضوع وغيره ، ولوقوفها على التوقيت وعلم الفلك في تلك الأيام[5] . وقد تكون لفظة من جملة الألفاظ المعربة التي دخلت العربية قبل الإسلام .

وطريقة الناسيء في اعلانه النسيء على الناس في الحج ، أن يقوم رجل من كنانة فيقول : أنا الذي لا يردّ لي قضاء ، فيقولون : أنسئنا شهراً ، أي أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر فيحل لهم المحرم »[6] . وهذا الرجل هو الناسيء، أو أن يدعو الناسيء الناس في آخر موسم الحج الى الاجتماع حوله ؛ فإذا اجتمعوا ارتقى موضعاً مرتفعاً ظاهراً ، أو قام على ظهر جمله ليراه الناس ثم يقول بأعلى

---

١ تاج العروس (١/١٢٥) ، (نسأ) .
٢ المعاني الكبير (٣/١١٧١) ، المحبر (١٥٦ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٧٢) .
٣ تفسير القرطبي (٨/١٣٨) .
٤ المحبر (ص ١٥٦) ، تاج العروس (٤/٢٢٢) ، (القلمس) ، تفسير الطبري (١٠/٩٣) .
٥ راجع معنى « القلمس » في اللسان (٦/١٨٢) .
٦ تاج العروس (١/٤٥٦) (الكويت) .

صوته : « اللهم إني لا أعاب ولا أحاب ، ولا مردّ لما قضيت . اللهم ، إني أحللت شهر كذا (ويذكر شهراً من الأشهر الحرم ، وقع اتفاقهم على شن الغارة فيه) ، وأنسأته الى العام القابل ، أي أخرت تحريمه ، وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقي ، فكانوا يحلّون ما أحل ويحرمون ما حرم » . فإذا انتهى من هذا الخطاب وأمثاله ، أباحوا لأنفسهم الغارة في ذلك الشهر ، وغزوا من نووا غزوه . فإذا جاء العام القابل ، نهض الناسىء ليقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم الشهر الفلاني ، وهو الشهر الذي أحله في العام الماضي فحرّموه، فيحرمونه[1] .

وورد في بعض الروايات ، انه كان يقوم فيقول : « إني لا أحاب ولا أعاب ولا يرد ما قضيت به ، وإني قد أحللت دماء المحلين من طيء وخثعم، فاقتلوهم حيث وجدتموهم اذا عرضوا لكم » . وذلك لما ذكر من عدم تحريم طيء وخثعم للشهور الحرم ، فكانوا يغيرون ويقاتلون فيها ، ولذلك استثناهم القلامسة من عدم مقاتلتهم في تلك الشهور ، وذلك لضرورات الدفاع عن النفس[2] .

وقد نسب الى بعض القلامسة شعر ، قيل انهم قالوه يفتخرون فيه باحتكارهم النسيء ، وبارشادهم الناس الى مناسك دينهم ، وقيادتهم الحجاج ، يسيرون تحت لوائهم ، يبينون لهم شهور الحل والأشهر الحرم ، كما ورد شعر منسوب الى بعض كنانة يفتخر فيه بأن قومه ينسئون الشهور على معدّ ، فيجعلون شهور الحل حراماً والشهور الحرام حلالاً[3] .

وقد قال (عمير بن قيس بن جذل الطعان) ، شعراً افتخر فيه وتعرض لأمر النسيء ، فكان مما جاء فيه قوله :

ألسنا الناسئين عـلى معـدّ شهور الحلّ ، نجعلها حراما[4]

---

١ المعاني الكبير (٣/١١٧١) ، بلوغ الارب (٣/٧٣) ، نهاية الارب (١/١٦٦) ، « أنا الذي لا أعاب ولا أخاب ؟ ولا يرد لي قضاء ، فيقولون : نعم . صدقت أنسئنا شهرا ، أو أخر عنا حرمة المحرم ، واجعلها في صفر وأحل المحرم ، فيفعل ذلك » ، تفسير الطبرسي (٥/٢٩) ، (طهران) .

٢ تاج العروس (١/٤٥٧) ، (الكويت) ، مادة : « نسأ » .

٣ تاج العروس (١/٤٥٧) .

٤ اللسان (١/١٦٧) ، ونسبه (الطبرسي) الى الكميت ، تفسير الطبرسي (٥/٢٩)، (طهران) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦) ، سنن ابن ماجة (٥/١٨٠) ، السنن الكبرى (٥/١٦٥) .

وقال بعض بني أسد :

لهم ناسيءٌ يمشون تحت لوائه يحل إذا شاء الشهورَ ويُحْرِمُ[1]

وقال آخر :

نسوء الشهور بها وكانوا أهلها من قبلكم والعزّ لم يتحول[2]

وقد نسب (القرطبي) البيت :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحلّ ، نجعلها حراما
الى الكميت[3] .

وقد استمرت طريقة النسيء هذه الى أيام الإسلام ، فحجّ أبو بكر في السنة التاسعة من الهجرة ، فوافق حجه ذا القعدة ، ثم حج رسول الله في العام القابل الموافق للسنة العاشرة للهجرة ، المصادفة لسنة (٦٣١) للميلاد ، فوافق عود الحجّ في ذي الحجة . ثم نزل الحكم بإبطال النسيء في الآيات : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم . وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين . إنما النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤوا عدة ما حرم الله ، فيحلّوا ما حرم الله . زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين »[4] . وخطب الرسول في جموع الحجاج خطبته الشهيرة التي بيّن فيها مناسك الحج وسننه وأموراً أخرى أوضحها لهم ، فكان مما قاله لهم : « أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر ، وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض ، وان

---

١ تاج العروس (١/٤٥٧) ، (الكويت) .
٢ تفسير بحر المحيط (٥/٣٩) .
٣ تفسير القرطبي (٨/١٣٨) .
٤ سورة التوبة : الاية ٣٦ وما بعدها ، راجع تفسير الطبري (١٠/٩١ وما بعدها) ، تفسير الرازي (٤/٤٤٦ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٣/٢٣ وما بعدها) ، الكشاف (٢/١٥٠ وما بعدها) .

عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً »[1]. فألغى الإسلام منذ ذلك الحين النسيء، وثبت شهور السنة وجعل التقويم القمري هو التقويم الرسمي للمسلمين .

وروي كلام الرسول عنه على هذه الصورة : « أيها الناس . ان النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطأوا عدة ما حرم الله ، فيحلّوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض . وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم . ثلاثة متوالية ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»[2]. فألغى الاسلام منذ ذلك الحين النسيء ، وجعل التقويم القمري الخالص هو التقويم الرسمي للمسلمين .

ويظهر من القرآن الكريم ان سبب تحريم النسيء في الاسلام هو تلاعب القلامسة بالشهور ، بتحريمهم شهراً حلالاً في عام ، ثم تحليلهم له في العام القابل . فأزال الاسلام ذلك التلاعب بتحريم النسيء ، واتخاذ السنة سنة قمرية ذات اثني عشر شهراً لا غير . كما صيرها الجاهليون ثلاثة عشر أو أربعة عشر شهراً[3]. ولما كان الزرع يعتمد على المواسم الطبيعية ، وعلى الأشهر الشمسية ، لذلك صار اعتماد المزارعين في الزرع وفي الحصاد على الشهور الشمسية ، أي على السنة الشمسية . أما الأمور الدينية ، مثل الحج والصيام ، فالاعتماد بالطبع على الشهور القمرية[4] .

واتخاذ التقويم القمري تقويماً رسمياً للاسلام ، هو من السمات التي امتاز بها الاسلام عن الجاهلية ،واعتبر من النقاط الفاصلة التي فصلت بين الجاهلية والاسلام . وهكذا زال الكبس كما زال النسيء عن السنة القمرية وعن الشهور لتحويلها الى سنة شمسية على نحو ما رأيناه من فعل الجاهليين .

ويرى بعض المستشرقين أن النسيء والناسيء من الألفاظ المعربة عن العبرانية .

---

١ ابن الاثير (٢/١٢٦) ، الواقدي (٤٣١) (طبعة ولهوزن) ، ابن كثير (٢/٣٥٣ وما بعدها) ، وقد رويت خطبة الرسول بصور مختلفة ، اختلافا يدل على أن الرواة لم يكونوا قد دونوا النص ، وانما رووا عن ذاكرة وحفظ ، فاختلفوا من ثم في رواية النص .

٢ ابن هشام (١/٣٥١) ، (حاشية على الروض الانف) .

٣ بلوغ الارب (٣/٧١) ، روح المعاني (١٠/٩٣ وما بعدها) .

٤ Caetani, I, 356, Bubl, Muhammed, S. 350, H. Winckler, in Arabisch — Semitisch Orientalish, 85. ff., Berlin, 1901.

وقد دخلت الى العربية بتأثير يهود يثرب. والناسىء عند اليهود هو الرئيس الديني. وكان يقوم عندهم بتقديم وتأخير الشهور ، ويعين مواعيد الأعياد والصيام، ويذيع النتيجة بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة[1] . والناسىء يقابل رئيس قبيلة عند بني اسرائيل[2] ، وهذا التعريف ينطبق تماماً مع ما ذكره أهـــل الأخبار عن (الناسىء) عند الجاهليين .

وقد بحث عدد من المستشرقين في حساب السنين عند الجاهليين وفي النسيء ، فجاؤوا بآراء متباعدة غير متفقة ، لكل واحد منهم رأي ومذهب في طريقة العرب قبل الإسلام في حساب الشهور وفي السنين القمرية والشمسية والكبس والنسيء . وقـــد ناقشها ولخصها (نالينو) في كتابه : « علم الفلك تأريخه عند العرب في القرون الوسطى » . وهو ممن يرون أن البحث في هذا الموضوع صعب عسير ، وأن البت فيه غـــير ممكن في الزمن الحاضر ، لقلة الموارد وعدم وجود أخبار وروايات واضحة صريحة يمكن أن يستند اليها في ابـــداء رأي علمي ناضج في الموضوع[3] .

والذي أراه ان أهل الحجاز كانوا يتبعون التقويم الشمسي مع مراعاة الإهلال، أي تقويماً شمسياً قمرياً ، بدليل ان لأسماء الأشهر علاقـــة بالجو من برد وحر ، وربيع وخريف . فقد ذكر علماء اللغة ان الربيـع انما سمي ربيعاً ، لارتباعهم فيه والارتباع الاقامة في عمارة الربع ، وأن (جمادى) سمي بذلك لجمود الماء فيه ، أي انهما من أشهر الشتاء . قال الشاعر :

وليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر العبد في ظلمائها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خرطومه الذنبا[4]

وأن رمضان من شدة الرمضاء ، وهو الحر . ولا يعقل أن تكون هذه التسميات قد جاءت عفواً ومن غير ارتباط بحالة من حالات الطبيعة . وقـد انتبه المتقدمون

---

١ ولفنسون : تأريخ اليهود في بلاد العرب (ص ٨١) .
٢ الخروج ، الاصحاح ٣٤ ، الاية ٣١ ، العدد ، الاصحاح ٧ ، الاية ٣٢ ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (ص ٨١) .
٣ (ص ٩٤ وما بعدها) .
٤ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .

اليها ، فقال بعضهم « وكانت الشهور في حسابهم لا تدور » ، ولكن بعضهم لم يقبل بذلك إذ قال : « وفي هذا نظر ، إذ كانت شهورهم بالأهلة ، فلا بد من دورانها » ، وقال في تفسير اسم جمادى « فلعلهم سمّوه أول ما سمي عند جمود الماء في البرد »[1] .

والذي أراه ان تلك الأشهر كانت ثابتة لا تدور ، بمعنى انها كانت ثابتة في مواسمها ، يسيرون بموجبها في زراعتهم وفي أسفارهم ، ولكنهم كانوا يسيرون على الإهلال ، أي الشهور القمرية في أمورهم الاعتيادية وفي الأعمال المالية ، مثل الديون ، حيث يسهل تثبيت المدة بعدد الأهلة ، ومن هنا اختلط الأمر على أهل الأخبار فخلطوا بين التقويمين ، بسبب عدم وضوح الروايات . وكان شأنهم في ذلك شأن العرب الشماليين الذين كانوا يحجون في وقت واحد ثابت ، هو في شهر (ذي الحجة) ، الذي تحدثت عنه في مكان آخر ، وشأن العرب الجنوبيين الذين كانوا يحجون في شهر (ذي الحجة) الذي كان وقته ثابتاً أيضاً ، فلا يكون في صيف ، ثم يكون في ربيع أو في خريف أو في شتاء ، ولا يعقل خروجهم على هذا الاجماع الذي نراه عند العرب الشماليين ، أي عرب بلاد العراق وعرب بلاد الشأم ، وينفردون وحدهم باتخاذ تقويم قمري بحت .

ما ذكرناه عن النسيء وعن الكبس يخص عرب الحجاز ، وأهل مكة بصورة خاصة ، ولا يتناول العرب الجنوبيين . ولا عرب بقية أنحاء جزيرة العرب ، لعدم وجود أخبار لدينا عنها تتناول المواضع الأخرى ، لا في النصوص الجاهلية ولا في أخبار أهل الأخبار . ولكن الذي يظهر من النصوص العربية الجنوبية المتعلقة بالزراعة ومن أسماء الشهور ، أنها كانت شهوراً ثابتة ، أي شهوراً شمسية لا قمرية ، وأن السنة التي كانوا يسيرون عليها سنة شمسية ، غير أن هذا لا يمنع مع ذلك من سيرهم على مبدأ الإهلال في حياتهم الاعتيادية ، أي على الشهور القمرية ، بحيث تكون الرؤية مبدءاً للشهور . وذلك لوضوح الأهلة وإمكان رؤيتها بسهولة وتثبيت الأوقات بموجبها ، بمعنى أنهم كانوا يسيرون على التقويمين : التقويم الشمسي في الزراعة وفي دفع الغلات ، والتقويم القمري في الأمور الاعتيادية .

---

١ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .

ولا نستطيع أن نتحدث عن كيفية احتساب العرب الجنوبيين للسنة الشمسية ، ولا عن الكبس عندهم ، لعدم ورود شيء عنها في النصوص .

ويظن أن سنة العرب الجنوبيين كانت من (٣٦٠) يوماً ، مقسمة الى اثني عشر قسماً ، أي شهراً ، نصيب كل شهر منها (٣٠) يوماً . وحيث أن هذا المقدار من الأيام ، وهو (٣٦٠) يوماً هو دون الآيام التي تمضيها الأرض في دورانها الحقيقي حول الشمس ، لذلك كانوا يعوضون عن الفرق إما بإضافة الأيام اللازمة على أيام السنة لتكبسها فتجعلها مساوية للسنة الطبيعية ، وذلك في كل سنة ، وإما بإضافة شهر كبيسة مرة واحدة في نهاية كل ست سنوات[1] .

ويظن (بيستن) ، أن القتبانيين قد أخذوا بالطريقة الثانية : طريقة إضافة شهر زائد كامل على التقويم في كل ست سنوات ، لتتعادل السنة بذلك مع السنة الطبيعية ، وان ذلك الشهر المضاف هو الشهر المسمى بـ (ذ برم اخرن) ، أي بـ (ذى برم الآخر) ، أو (ذى برم الثاني) ، عند القتبانيين وبشهر (ذ نسور اخرن) ، أي (ذى نسور الآخر) ، أو (ذى نسور الثاني) عند السبئيين .

ووردت في احدى الكتابات جملة (بين خرفهن) ، أي بين السنتين . وقد رأى (ونكلر) ، انها تعني الأيام التي تضاف الى نهاية السنة لكبسها حتى تكون سنة طبيعية كاملة . أي سنة شمسية ، ولذلك عُبر عنها بـ (بين السنتين) ، أي الاضافة التي توضع فيما بين السنتين . السنة المتقدمة والسنة التالية لها[2] . وذهب (كريمه) الى انها تعني شهراً ، هو الشهر الذي يضاف على التقويم لكبس السنين ، ويرى (بيستن) ، ان هذا الرأي يصعب قبوله ، لأنه لو كان شهراً كاملاً ، لسموه باسم معين ، أو لرمزوا اليه برمز يميزه عن شهور السنة الأخرى ، كأن يقولوا له (اخرن) ، أي الآخر ، أو الثاني[3] .

أما اليهود ، يهود جزيرة العرب ، فقد كانوا يسلكون طريقتهم الخاصة في

---

١ Beeston, p. 18.

٢ Winckler, Altorientalische Forschungen, II, (1900), S. 351.

٣ Beeston, p. 43.

التوقيت ، ويسلكون منهجهم في تعيين الشهور ، كما يتأيد ذلك من الأخبار التي نجدها عنهم في كتب الأخباريين .

وأما النصارى العرب ، فقد كانوا يتبعون التقاويم الشرقية ، ويسيرون على الشهور السريانية المعروفة ، وعلى وفق شعائر الكنيسة ، ويحتفلون بأعيادهم على وفق ما ثبت عندهم في كنيستهم . وقد أشير اليها في بعض الشعر الجاهلي وفي كتب الأخباريين .

الفصل الرابع والثلاثون بعد المئة

التقاويم والتواريخ

التقاويم :

هناك نوعان من السنين : سنين بنيت على أساس الشهور القمرية التي تثبت بمراقبة القمر ، وسنتها سنة قمرية Lunar Year . والتقويم الذي يقوم عليه تقويم قمري . وسنون بنيت على أساس شمسي Solar Year . والتقويم القائم عليها ، تقويم شمسي ، شهوره ثابتة لا تتغير . وعدة الشهور عند العرب اثنا عشر شهراً ، سواء كانت السنة شمسية أم قمرية [1] .

ولقد قلت فيما سبق : يظهر من النصوص الجاهلية ، أن أهل العربية الجنوبية كانوا يعملون بالتقويم الشمسي ، وفقاً للمواسم الزراعية ، لأننا نراهم في هذه النصوص يزرعون ويبذرون ويحصدون في شهور معينة ، ويدفعون الضرائب في مواسم ثابتة ، كما نرى أن أسماء الشهور ، عندهم ذات معان متصلة بالطبيعة ، مثل الجفاف ، والمطر ، والحر ، والبرد ، والربيع ، والخريف ، ولو كانت سنتهم سنة قمرية محضة ، لما سمّوا أشهرهم بأسماء اشتقت من الحر والبرد واعتدال الجو وحلول الخريف ، إذ لا يعقل وقوع المعاني المذكورة مع تغير الشهور وعدم استقرارها على حال من الأحوال . إلا أن تواريخهم بالسنة الشمسية ،

---

١ اليعقوبي (١/١٧٧) .

لم يمنعهم من التوريخ بالتقويم القمري في أمورهم الاعتيادية ، كما في وفاء الديون، وأخذ الديات ، والبيع والشراء ، والأسفار ، لوضوح الشهر القمري ، وامكان حساب الأهلة وضبط عددها بسهولة ويسر ، فيسهل على المتعاقدين التعاقد بموجب عدد الأهلة ، أما الزراعة ، وتربية الحيوان ودفع الضرائب وما شابه ذلك ، فلا صلة لها بالأهلة،وإنما صلتها بالمواسم والفصول ، وهي من مكونات السنة الشمسية. إذن كان العرب الجنوبيـــون يؤرخون ويعملون بتقويمين : تقويم قمري ، وآخر شمسي .

استعمل العرب الجنوبيون التقويم الشمسي في الزراعة ، واستعملوا التقويم القمري للأغراض التي ذكرتها ، والتقويم النجمي ، أي التقويم الذي يقوم عـــلى رصد النجوم لأغراض دينية وللوقوف على الأنواء الجوية لما لها من صلة بالزراعة وبالحياة العامة [1] .

ويتبين من النصوص الثمودية واللحيانية والصفويـة ، ومن النصوص النبطية ، ومن نص النمارة ، ان أصحابها كانوا يتعاملون وفقـــاً للتقويم الشمسي في الأمور التي لها اتصال مباشر بالطبيعة ، ووفقاً للتقويم القمري في الأمور الأخرى، لسهولة ضبط الأهلة ، وتحقيق العقود بموجبها . واذا كان الحال على هذا المنوال عنـــد هؤلاء وعند العرب الجنوبيين ، فبامكاننا القول ان بقية الجاهليين ، ممن لم يتركوا لنا نصوصاً ، كانوا يتبعون التقويمين كذلك ، جرياً على سنة الناس في ذلك العهد ، ومنهم الأعاجم ، من اتباعهم التقويمين المذكورين في تنفيذ العقود والالتزامات وفي ضبط الأزمنة .

ومما يؤيد اتباع العرب الشماليين للتقويم الشمسي ، ما ذكـره الكتّاب اليونان واللاتين ، من أن العرب كانوا يقيمون طقوسهم الدينية ويؤدون شعائرهم المقدسة كالحج الى المحجات في أوقات ثابتة ، فقد ذكر (أفيفانيوس) ، ان للعـــرب شهراً يحجون فيه الى محجاتهم ، ويقع ذلك في شهـــر (تشرين الثاني)[2] ، كما

---

١ Rhodokanakis, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsüdarabischen, Band., 2 S. 145, Sab. Denkm., S. 21, Glaser, Zwei Inschriften, S. 47, Note 7, ZDMG., 46, 322, Glasser, Die Sternkunde der Südarabischen Qabylen in SBWA., Winckler, AOF., 2, S., 351.

٢ Epiphanius, Haer., 51, 24, Reste, S. 85, 100, Ency. Religi., 10, p. 10.

ذكر (بروكوبيوس) ، ان العرب كانوا قد جعلوا شهرين في السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيها ولا يهاجم بعضهم بعضاً ، ويقعان في تموز وآب[1] ، وذكر (فوثيوس) ، أن العرب كانوا يحتفلون مرتين في السنة بالحج الى معبدهم المقدس: مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور ، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف ، وذلك لمدة شهرين[2] . وفي هذه الاشارات الى الأشهر المقدسة ، والى كونها ثابتة لا تتغير بتغير المواسم ، دلالة على سير العرب في تقويمهم ، وفقاً للتقويم الشمسي .

وقد عرف التأريخ عند الجاهليين ، بدليل عثور الباحثين على نصوص كثيرة مؤرخة . وقد زعم علماء اللغة « أن التأريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض ، وأن المسلمين أخذوه من أهل الكتاب »[3] ، وفي كلامهم صحة ، إذا كان قصدهم التأريخ العام للعالم ، الذي يبدأ وفقاً لما جاء عند أهل الكتاب من الخلق وظهور آدم فالأنبياء والرسل والملوك الى أيامهم ، وفيه خطأ ، إذا قصدوا به ، التأريخ مطلقاً ، أي تثبيت الوقت ، على نحو ما نفهم من قولنا أرخت الحادث ، وأرخت الكتاب ، فقد عرف التأريخ عند الجاهليين ، بدليل وروده في نصوصهم . واستعمالهم لفظة (بورخ) ، للتأريخ . وكلمة (ورخ) ، من الكلمات الواردة بكثرة في النصوص ، ومنها لفظة (توريخ) و (ورّخ) بمعنى أرخ في عربيتنا . ولفظة (أرخ) نفسها هي من هذا الأصل .

وقد عرف (الجاحظ) أن الجاهليين كانوا يؤرخون إذ قال : « وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور ، ونقشاً في الحجارة ، وخلقة مركبة في البنيان ؛ فربما كان الكتاب هو الناتىء ، وربما كان الكتاب هو الحفر ، إذا كان تأريخاً لأمر جسيم ، أو عهداً لأمر عظيم ، أو موعظة يرتجى نفعها ، أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره ، أو تطويل مدته ، كما كتبوا على قبة غمدان ... وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشقر ، وعلى الأبلق الفرد ... يعمدون الى الأماكن المشهورة ، والمواضع المذكورة ، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من الدروس ،

---

١ Procopius, II, p. 16.

٢ Reste, 101, Winckler, Alt. Orient. Faroch., II, Reibe, 1 Band, S. 336.

٣ تاج العروس (٢/٢٥٠) ، (أرخ) .

وأجدر أن يراها من مرّ بها ، ولا تنسى على وجه الدهر »[1] .

ثم قال : « وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها ، بأن تعتمد ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها ... ثم إن العرب أحبت أن تشارك العجم في البناء ، وتنفرد بالشعر ، فبنوا غمدان ، وكعبة نجران وقصر مارد ، وقصر مأرب ، وقصر شعوب ، والأبلق الفرد ، وفيه وفي مارد، قالوا : تمرد مارد وعز الأبلق ، وغير ذلك من البنيان »[2] . ثم تعرض لأهمية الكتب ولشأنها في تخليد الذكرى،فقال : « والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر ، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم ، وأن يميتوا ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون ، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية ، وعلى ذلك هم في أيام الاسلام ، كما هدم عثمان صومعة غمدان ، وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر،وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان »[3].

وتتناسب أساليب التأريخ مع درجة عقلية المؤرخ ومستواه العقلي ، لذلك نجد التواريخ بالأمور العادية البسيطة بين الرعاة والأعراب والسوقة من الناس ، بينما نجد غيرهم ممن هم فوقهم درجة في العقل والثقافة يؤرخون بمناسبات لها شأن وأهمية ، مثل التقاويم العامة المهمة ، المثبتة بمبدأ ، حيث يؤرخ بموجبها .

وقد تبين لنا من دراسات نصوص المسند ، أن أصحابها استعملوا جملة طرق في تأريخهم للحوادث ، وتثبيت زمانها ، فأرخوا بحكم الملوك ، فكانوا يشيرون الى الحادث بأنه حدث في أيام الملك فلان ، من غير تعيينه بسنين ، وذلك كما في هذا المثل : « بيوم اليفع يشر ملك معنم »[4] ، أي « بيوم اليفع يشر ملك معين » ، و « بيوم يذمر ملك وترال »[5] . ومعناهما في « أيام حكم اليفع يشر ملك معين » ، أو « وكان ذلك في حكم اليفع يشر ملك معين » بالنسبة للفقرة الأولى و « في أيام يذمر ملك وترايل » ، أو « في حكم يذمر ملك ووتر ايل» ،

---

١ الحيوان (١/٦٨ وما بعدها) ، المحاسن والاضداد (٣) ، (مجلس الكتابة والكتب) .
٢ الحيوان (١/٧٢) .
٣ الحيوان (١/٧٣) .
٤ REP. EPI. 2869.
٥ المصدر نفسه الرقم ٢٧٤٠ ، Beeston, p. 26

أو « وكان ذلك في أيام حكم يذمر ملك وترايل » بالنسبة للجملة الثانية . فلم يذكر النص السنة التي دوّن فيها النص ، أو أرخ فيها النص من سني حكم الملك المذكور . وهي سنون قد تكون قصيرة ، وقد تكون طويلة . ولفظة (يوم) هي بمعنى : (حكم) و (أيام) .

وقد يؤرخ بحكم موظف من كبار موظفي الحكومة من حملة درجة (كبر) (كبير) ، مثلاً ، أو غيرها من الدرجات العالية في الحكومة أو في المجتمع . كما أرخوا بأيام الرؤساء والسادات وأرباب الأسر . وليس العرب الجنوبيون بدعاً في هذا الباب ، فقد كان غيرهم يؤرخ بهذه الطرق ، وذلك قبل توصلهم الى اتخاذ تقويم واحد ثابت له بداية معينة تؤرخ به .

والغالب ذكر اسم الشهر مع حكم الكبير أو الرئيس أو أي انسان آخر ، كما في هذا المثال : « بورخ ذ طنفت ذ كبر ايتم ذ عرقن »[1] ، ومعناها « بشهر ذو طنفت من كبارة أيتم ذو عرقن » ، وبعبارة أوضح « بشهر ذو طنفت من حكم الكبير أيتم ذو عرقن » ، و (ذو طنفت) ، اسم شهر من الشهور .

والكتابات المؤرخة بهذه الطريقة ، على انها أحسن حالاً في نظرنا من الكتابات المهملة التي لم يؤرخها أصحابها بتأريخ ، إلا اننا قلما نستفيد منها فائدة تذكر . إذ كيف يستطيع مؤرخ أن يعرف زمانها بالضبط ، وهو لا يعرف شيئاً عن حياة الملك الذي أرخت به الكتابة ، أو حكمه ، أو زمانه ، أو زمان الرجال الذين أرخ بهم ؟ لقد فات أصحاب هذه الكتابات ان شهرة الانسان لا تدوم ، وأن الملك فلاناً ، أو رب الأسرة فلاناً ، أو الزعيم فلاناً سينسى بعد أجيال ، وقد يصبح نسياً منسياً ، لذلك لا يجدي التأريخ به شيئاً ، وذاكرة الانسان لا تعي إلا الحوادث الجسام . لهذا السبب لم نستفد من كثير من هذه الكتابات المؤرخة على وفق هذه الطريقة ، وإن استفدنا منها في أمور أخرى لا صلة لها بتثبيت تواريخها .

وقد تجمعت لدينا أسماء أشخاص أرخ الناس بأيامهم لأنهم كانوا أصحاب جاه ونفوذ ، لكننا لا نعرف اليوم من أمرهم شيئاً ، لأن النصوص لم تذكر شيئاً

---

١ REP. EPI. 3608, 3, Beeston, p. 26.

عنهم ، وعن أيامهم،منهم : (عم على) من (آل رشم) من عشيرة (قفعن)[1]، و (موهبم ذ ذرحن) ، أي (موهب ذو ذرحان)[2] . و (غوث ايـــل) من (آل بيحان) (بيحن)[3]. و (شهر بجر)[4] ، و (ذران) (ذرءان)[5]، و (اب على بن شحز) ، أي (أبو على) من قبيلة (شحر)[6] . وكل هؤلاء الذين أرخ بهم هم من قتبان .

ومن الأسر التي أرخ بأيامها أسرة (نبط) و (مبحظ)[7] و (حزفرم كـــبر خلل) (حزفر كبير خليل) و (حذمت) و (فضحم)[8] .

كما تجمعت لدينا أسماء عدد من الأشهر في اللهجات العربية الجنوبية المختلفة ، تحتاج الى دراسة لمعرفة ترتيبها بالنسبة للمواسم والسنة. ويظهر انهم كانوا يستعملون احياناً مع التقويم الذي يؤرخ بحكم الرجال ، تقويماً آخـــر هو التقويم الحكومي ، وتختلف أسماء شهور هذا التقويم عن أسماء شهور التقاويم التي تؤرخ بالرجال[9] .

وقد تغير الحال في كتابات المسند منذ سنة (١١٥) قبل الميلاد ، على رأي غالبية الباحثين ، أو السنة (١٠٩) على رأي (ريكمنس) ، إذ أرخت بتقويم ثابت أرخت بموجبه الى قبيل الاسلام . مبدأه سنة سقوط حكومـــة سبأ وتكوين حكومة (سبأ وذي ريدان) ، على رأي بعض علماء العربيات الجنوبية ، فأرخ

---

١ السطر الثاني والعشرون من النص المنشور في :
Rep. Epig., VI, I, p. 218, Glaser, Alt. Nachr., S. 162. ff. ,Grundriss, S. 33, Glaser 2566.

٢ راجع نهاية الفقرة ٦ وأول الفقرة ٧ من النص Glaser 1601.
Rhodokanakis, K.T.B., I, S. 8. ff.

٣ Rep. Epig., 3693, Tome VI, II, p. 275.

٤ Rhodokanakis, K.T.B. I, S. 122. f., Rip. Epig. 3663, Tome VI, II ,p. 259.

٥ SE. 80a, Glaser 1398, 1609, Rep. Epig. 3879, Vol., VI, II, p. 334.

٦ Halevy 504, Rhodokanakis, K. T.B., I, S. 34, II, S. 7.

٧ A.F.L. Beeston, Epigraphic South Arabian Calenders and Datings, London, 1956, A.G. Lundin, Eponymat Sabéen et Chronologie Sabéene, 26, Congr. Interu. des Orientalistes, Conf. Prés. par la délégation de l'URSS, Moscou, 1963, Le Muséon, 1964, 3-4, p. 429.

٨ Le Muséon, 1964, 3-4, p. 496.

٩ Rhodokanakis, KTB., I, S. 81. f.

بهذا الحادث ، ولا سيما في الكتابات الرسمية المتأخرة [1] . ويرى (بيستن) ان مبدأ هذا التقويم غير مضبوط ، وأن مبدأه فيما بين السنة ١١٨ — ١١٠ قبل الميلاد . ويرى أيضاً ان العرب الجنوبيين لم يؤرخوا به في هذا العهد ، لأن النصوص التي تعود الى القرن الأول قبل الميلاد كانت لا تزال تؤرخ بالتأريخ القديم ، أي بالتواريخ الغير الثابتة ، مثل التأريخ بأيام الملوك والكبراء والكهنة وأمثالهم ، فلو كانوا يؤرخون به لما أهملوه . ويرى انهم انما أرخوا بـه بعد ذلك ، في حوالي القرن الثالث للميلاد .

وقد ساعدنا هذا التقويم على تثبيت تواريخ عدد من النصوص أرخت بموجبه، وعلى معرفة تأريخ هذه الحقبة التي أرخت بها . ولكن النصوص المؤرخة قليلة العدد ، ثم إننا لا نملك نصاً واحداً منها من ابتداء العهد بالتأريخ بـه ، كذلك لا نملك نصوصاً مؤرخة يعود عهدها الى قبيل الميلاد ، أو الى القرن الأول أو الثاني منه .

وأقدم نص مؤرخ بهذا التقويم ، هـو النص الموسوم بـ CIH 46 ، وتأريخه سنة (٣٨٥) من هذا التقويم ، وهو يساوي السنة (٢٧٠) أو (٢٧٦) للميلاد . وهو من أيام الملك (يسرم يهنعم) (ياسر يهنعم) ملك سبأ وذي ريدان وابنه (شمر يهرعش) . ويراد بهما (ياسر يهنعم) الثاني و (شمر يهرعش) الثالث على رأي (فون وزمن) [2] . ونص آخر للملك (ياسر يهنعم) ، تأريخه سنة (٢٧٤) أو (٢٨٠) للميلاد . والنص الموسوم بـ MM 150 = CIH 448 ، وهو يساوي سنة (٢٨١) أو (٢٨٧) بعد الميلاد .

وهناك نصوص مؤرخـة أخرى من أيام الملك (شمر يهرعش) ، ونصوص من بعد أيامه حتى أيام تملك الحبشة لليمن . أما ما بعد أيام الحبشة في اليمـن ، أي أيام استيلاء الفرس عليها ثم أيام دخولها في الإسلام ، فلم يصل الينا منهـا نص ، لا مؤرخ ولا غير مؤرخ [3] .

---

١ Mordtmann und Eugen Mitwoch, Sabaische Inschriften, Hamburg, 1931, S. I.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, p. 484, Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 353.

٣ Mordtmann und Eugen Mittwoch, Sabäische Inschriften, Hamburg, 1931, S. I.

وآخر هذه النصوص المؤرخة ، هو النص الموسوم بـ CIH 525 ، وتاريخه سنة (٦٦٩) من التأريخ الحميري ، وهو يقابل سنة (٥٥٤) للميلاد . ويمكن أن نقول إن هذا النص هو آخر نص مؤرخ عثر عليه لا في المسند وحده ، بل في كل اللهجات العربية الأخرى ، وهو أقرب تلك الكتابات عهداً بالاسلام .

ويلاحظ ان بعض الكتابات المؤرخة تذكر لفظة (بورخ) أو (ورخسن) (ورخ) ، ثم تذكر بعدها اسم الشهر الذي أرخ النص به ، ثم عدد السنين بالنسبة للتقويم . ويراد بها معنى (شهر) ، وذلك كما في هذه العبارة : « ورخس ذو سحر .. » ، أي « في شهر ذو سحر .. » ، و « بورخ ذو خرف ..» ، أي « بشهر ذو الخريف .. » ، أو « بورخ ذ معن » ، أي « بشهر ذي معان .. » « بشهر ذي معين » ، « بشهر ذي معون » ، وهناك كتابات مؤرخة استعملت لفظة « (ورخهو) بمعنى (وتأريخه) . كما في هذه الجملة : « ورخهو ذ لثني وسثى وسث ماتم »[1] ، أي « وتأريخه لاثني وستين وست مئة »، وبعبارة أوضح: « وتأريخه لسنة اثنين وستين وست مئة » . فاستعملت لفظة (ورخهو) اذن ، بالمعنى العلمي الذي نستعمله اليوم حين نؤرخ عهودنا ووثائقنا ، فتقول : (أرخت بـ ..) أو (تأريخها ..) .

وترد لفظة (خرفن) ، أي سنة قبل عدد السنين في بعض النصوص ، مثل: « خرفن ذ لثلثت واربعي وخمس ماتم »[2] ، ومعناها : « السنة الثالثة والأربعين بعد الخمس مئة » ، وقد تلحق لفظة (خرفتم) ، بعد عدد السنين . كما في هذا المثال : « ورخهو ذ حجتن ذل اربعي وسث ماتم خرفتم »[3] . ومعناه : « تأريخه أو شهره ذو الحجة لأربع وستمائة سنة». وتقابل هذه السنة سنة (٤٨٩) أو (٤٩٥) للميلاد.

ويلاحظ أن النصوص السبئية المؤرخة قد أرخت بتقويمين : تقويم عرف بـ (خريفتم بن خريف نبط) ، (خرفتم بن خرف نبط)[4] ، أي بـ (سنين

---

١ CIH 541, Glaser 618.

٢ Ryckmans 534, Beeston, p. 57.

٣ CIH 621, Beeston, p. 37, Glasr, Die Abessinier in Arabien und Afrika, 1896, S. 152 ,Zwei Inschriften, S. 86.

٤ REP. EPIGR. 4196.

من سنة نبط) ، ومعناه أن هذه السنين المذكورة ، هي وفقاً للتقويم الجاري على سني (نبط) ، أو تقويم (نبط) ، وتقويم آخر قدّرت السنين فيه وفقاً لسني (مبحض بن ابحض) ، (ذ بخرفن ذل بن خرف مبحض بن ابحظ)[1] . ويشير ذلك الى وجود مبدأين للتأريخ عن السبئيين : التأريخ بتقويم (نبط) ، والتأريخ بتقويم (مبحض بن أبحض) . وذلك في الكتابات التي تعود الى القرن الثالث ونهايته لما بعد الميلاد . كالكتابات التي تعود إلى أيام (ياسر يهنعم) و (شمر يهرعش) ، أما الكتابات المتأخرة ، فقد اختفت منها هاتين التسميتين ، ويظن أنهم أخذوا بالتأريخ بتقويم (مبحض) ولذلك اهملوا الاشارة الى الاسم ، لأنه كان معلوماً عندهم . ويرى (بيستن) أن الفرق بين التقويمين هو قرابة نصف قرن أو ثلاثة أرباع قرن[2] .

وأسلوب التوريخ في النصوص السبئية المتأخرة هو أن تذكر لفظة (ورخن) أولاً ، ثم اسم الشهر من بعده ، ثم السنة ، كأن تقول : « ورخهن ذ مذرن ذل ٣١٦ خرفتم بن خرف نبط »[3] ، أي « وبشهر ذ مذران لـ ٣١٦ سنة من سنة نبط » ، أو « وبتأريخ ذ مذران من سنة ٣١٦ من سني نبط » ، أو مثل « ورخهو ذ داون ذ لخرفين ذل اربعت وسبعى وخمس مأتم » ، أي « وشهره ذ داوان للسنين التي هي ٥٧٤ »[4] ، أو « وتأريخه ذ داوان للسنة ٥٧٤ » ، ومثل : « خرفن ذل ثلثت واربعى وخمسمس مأتم » ، أي « سنة ٥٤٣ »[5] ، ومثل : « وخرفهو ذ حجتن ذل اربعى وست مأتم خرفتم »[6] ، أي « وشهره ذو الحجة لأربعين وستمائة سنة » ، أو « وتأريخه ذو الحجة الموافق لـ ٦٤٠ سنة مضت » ، ومثل : « وخرفهو ذل ثنى وستى وست مأتم »[7] . أي « وتأريخه لاثنين وستين ومائة »[8] .

---

١ CIH 46, 448, REP. EPIGR. 3866, Beeston, p. 36.

٢ Beeston, p. 36.

٣ REP. EPIG. 4196.

٤ Ryckmans 520.

٥ Ryckmans 534.

٦ CIH 621.

٧ Ryckmans 506.

٨ Beeston, p. 73.

ومن الغريب ان أهل الأخبار قد أغفلوا الاشارة الى هذا التقويم فلم يذكروا عنه شيئاً ، ولم يشيروا الى أن العرب الجنوبيين كانوا يؤرخون بـه ، مع أهميته وكونه تقويماً رسمياً .

هذا ، وان في استطاعتنا القول بأن اليمن لم تسر رسمياً على التقويم العبراني أو التقويم النصراني ، حتى في أيام احتلال الحبش الأخير لليمن ، أو في أيام استيلاء الفرس عليها ، وذلك بدليل توريخ أبرهة عامل الحبشة على اليمن ، وهو نصراني ، نصوصه بالتقويم اليماني المستعمل في اليمن الذي تحدثت فيما سلف عن مبدئه ، مع أنه حاكم اليمن وممثل الحبش فيها وهو نصراني . وبدليل توريخ عدد من كتابات المسند المتأخرة من عهد لا يبعد كثيراً عن الاسلام بهذا التقويم . وليس بالتقويمين المذكورين،أو بأي تقويم آخر من التقاويم المستعملة عند الشرقيين .

ولكن ما أذكره لا يعني بالطبع عدم احتمال توريخ يهود اليمن أو نصاراها أو غيرهم بتقاويم أخرى ، مثل التقويم العبراني أو الميلادي ، أو غيرهما . وما أقوله هو عن التقويم الرسمي المدون في المسند ، وربما سيعثر في المستقبل على نصوص تعود الى عهد احتلال الحبش لليمن ، يرد فيها التأريخ بأيام الحبش فيها، أو بالتأريخ الرسمي الذي كان يتبعه الأحباش في مملكتهم .

أما العرب الشماليون ، عرب العراق وبادية الشأم وبلاد الشأم ، فلم يرد الينا من نصوصهم المؤرخة إلا عدد محدود ، منها نص النمارة الذي يعود عهده الى السنة (٣٢٨) للميلاد . وهو مؤرخ بتقويم بصرى ، وبصرى مركز مهم ، كان يقصده عرب الحجاز للاتجار وقد وصل اليه النبي . وكان عرب هذه المنطقة يؤرخون به . ويبدأ هذا التقويم بدخول بصرى في حوزة الروم سنة (١٠٥) أو (١٠٦) للميلاد ، أي السنة التي تم فيها القضاء على حكومة النبط والحاق (بترا) بـ (الكورة العربية)[1] .

ولهذا فإذا أردنا تحويل سنة من السنين التي أرخ بها وفقاً لتقويم بصرى ، فعلينا اضافة الرقم (١٠٥) أو (١٠٦) على سني تقويم بصرى ، فيكون حاصل

---

١ Die Araber, II, S. 319.

الجمع السنة وفقاً للتقويم الميلادي تقريباً . فتأريخ نص النمارة هو سنة (٢٢٣) من تقويم بصرى ، وقد أضفنا اليه الفرق وهو (١٠٥) ، فصار الحاصل (٣٢٨) ، وهو ما يقابلها من سني الميلاد .

وقد أرخت كتابة (حرّان) اليونانية بسنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندقطيّة الأولى ، وهي تقابل سنة ٥٦٨ للميلاد ، والأندقطية هي دائرة ثماني سنين عند الرومانيين ، وكانت تستعمل في تصحيح تقويم السنة . أما النص العربي فقد أرخ بسنة (٤٦٣) ، بعد مفسد خيبر بعام . ويراد بجملة : « بعد مفسد خيبر بعم » ، غزوة قام بها أحد أمراء غسان أو غيره لخيبر ، وذلك في رأي الأستاذ (ليمان)[1] . وعندي ان السنة (٤٦٣) ، التي أرخ بها النص العربي ، هي من سني تقويم بصرى ، بدليل اننا لو أضفنا اليها الرقم (١٠٥) المذكور ، صار الحاصل (٥٦٨) ، وهو كناية عن سني الميلاد ، المقابلة لسني بصرى . وعلى ذلك يكون تدوين هذا النص قد تم بعد غزو خيبر بعام ، أي ان هذا الغزو قد وقع سنة (٥٦٧) للميلاد . وقد كان (الحارث بن جبلة) يحكم (غسان) آنذاك ، فتصدق رواية (ابن قتيبة) حينئذ التي تذكر انه غزا خيبر ، وسبا أهلها ثم أعتقهم بعدما قدم الشام[2] .

وقد استعمل التقويم الذي يؤرخ بحكم (الاسكندر) تقويماً عند اليونان وفي بلاد الشأم ، وعند عرب بلاد الشأم أيضاً . ومبدأه الأول من شهر نيسان لسنة (٣١١) قبل الميلاد[3] ، ونجد أثر التأريخ بهذا التقويم في الروايات التي يرويها أهل الأخبار عن عرب بلاد الشأم والعراق . وقد بقي الناس يؤرخون به الى أن حل التقويم الميلادي محله ، فنسي ذلك التقويم . وذكر (المسعودي) أن ما بين الاسكندر الى المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون[4] .

وقد كان الصفويون مثل غيرهم يؤرخون بالحوادث التي يكون لها شأن عندهم ،

---

١ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/١٨) ، السامية (١٩٢) ، Rivista degli stud. Orientali, 1911, p. 195.

٢ المعارف (٦٤٢) .

٣ Die Araber, II, S. 236, Hastings, extra Volume, (1904), p. 483.

٤ مروج الذهب (٢/١٨٣ وما بعدها) ، (ذكر شهور السريانيين) .

مثل حروبهم بعضهم مع بعض ، أو حروبهم مع غيرهم مثل النبط أو الروم . وقد أرخ بعضها بحوادث ذات صفة خاصة وعائلية ، مثل (سنة قتله خاله) ، أو (سنة وفاة والده) . وهي حوادث لا يمكننا الاستفادة منها في استنباط تأريخ منها ؛ لأننا لا نعرف من أمرها شيئاً . غير أن هنالك نصوصاً مؤرخة أفادتنا بعض الإفادة في الوقوف على التوقيت عند الصفويين . ففي نص لرجل اسمه (انعم بن فخش) ، ما يفيد أنه استولى على غنائم (سنة الحرب مع النبط). ويقصد بسنة الحرب مع النبط ، السنة التي قضى فيها الرومان على مملكة النبط ، وهي سنة (١٠٥) أو (١٠٦) للميلاد . وقد صارت هذه السنة مبدءاً للتأريخ في (بصرى) ، وعند العرب الصفويين[1] .

ولدينا نص صفوي آخر ، أرخ بـ « سنت حرب همدى ال روم » ، أي « سنة محاربة الميديين الروم » ، أو « سنة حرب الميديين الروم » . ويرى (ليمان) انه قد توصل الى ضبط تأريخ هذه الحرب . وهناك نص أرخ بـ « سنت قتل ال حمد » ، ويظن انه يشير الى معركة دارت على قبيلة تسمى (آل حمد) . وصاحب النص رجل من قبيلة تسمى (الرحبة)[2] ، ولا زال الأعراب يؤرخون بأيام قتالهم بعضهم مع بعض .

ونحن لا نعلم اليوم كيف كان يؤرخ أهل الحيرة أو الغساسنة ، لعدم ورود نصوص مدونة عن ذلك سوى ما ذكرته من نص النمارة المؤرخ بموجب تقويم بصرى . ولا أستبعد احتمال استعمال أهل الحيرة التقاويم العراقية أو الفارسية التي كانت شائعة عندهم في ذلك العهد أساساً للتأريخ . وقد يكون من بينها التقويم النصراني بالنسبة للنصارى ، وينطبق ذلك على نصارى الغساسنة أيضاً ، كما لا أستبعد استعمال الغساسنة لتقويم الروم . وللتقاويم العربية المألوفة التي تستعمل الأساليب المحلية في تثبيت التواريخ . ويظهر من تأريخ (ابن الكلبي) لحوادث الحيرة وعرب العراق بتقويم الساسانيين لتواريخ ملوكهم ، ان أهل الحيرة كانوا قد دوّنوا تواريخهم بموجبها ، ولكن هذا لا يمنع من احتمال أخذ ابن الكلبي أقواله في تواريخهم من تواريخ الفرس ومن رواتهم رأساً ، فلا يكون عندئذ ذكره

---

١ رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٠٣) .

٢ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٠٥) .

لتواريخهم دليلاً على تأريخ أهل الحيرة بتقويم الفرس .

ويروي أهل الأخبار أن العرب كانوا يؤرخون بالحوادث العظام التي تحدث لهم ، من ذلك عام الخُنان . وهو عام وقع فيه كما يقولون مرض خطير عضال فتك بالناس وبالإبل ، فأرخوا به ، ورووا في ذلك شعراً للنابغة الجعدي[1] . وقد وقع زمن الخنان في عهد المنذر بن ماء السماء ، وماتت الإبل منه . فصار ذلك تأريخاً لهم[2] . ويظهر أنه كان وباء فتك بالناس وبالإبل ، وانتشر في العراق وفي نجد ، فأرخ به لأهميته بالنسبة لهم، والتأريخ بالأوبئة شيء مألوف ، وأهل بغداد كانوا يؤرخون بطاعون وقع عندهم في عهد العثمانيين وقبل الحرب العالمية بسنوات ولا زال الشيبة يؤرخون به .

وكان أهل مكة يؤرخون بما يقع عندهم من أحداث جسيمة ، فإذا أرخوا بحادث ومضى عهد عليه ، ووقع لهم حادث آخر أكثر أهمية وشعبية منه ، أرخوا به . فتوالت لهم عدة تواريخ ، نسخت بعضها بعضاً ، فأرخوا كما يذكر أهل الأخبار بعام رئاسة عمرو بن ربيعة المعروف بعمرو بن لحي ، وهو الذي يقال انه بدّل دين ابراهيم ، وحمل من مدينة البلقاء صنم هُبَلْ ، وعمل إسافاً ونائلة، وذلك كما يقال في زمن (سابور ذي الأكتاف) . وأرخوا بعام موت كعب بن لؤي الى عام الغدر ، وهو الذي ذهب فيه بنو يربوع ما أنفذه بعض ملوك حمير الى الكعبة من الكسوة ، ووثب بعض الناس على بعض في الموسم . ثم أرخوا بعام الغدر الى عام الفيل الذي أرخوا به[3] . قال (الجاحظ) : « ومن الخطباء القدماء كعب بن لؤي ، وكان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة على البر ، فلما مات أكبروا موته ، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل »[4] .

---

١ فمن يحرص على كبري فاني من الشبان أيام الخنان
بلوغ الارب (٣/٢١٤ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٩/١٩٣) (خنن) ، بلوغ الارب (٣/٢١٤) ، اللسان (١٣/١٤٣) « صادر » ، (خنن) .

٣ الآثار الباقية (١/٣٤) .

٤ البيان والتبيين (١/٣٥١) .

وذكر (اليعقوبي) ، أن قريشاً كانوا يؤرخون بالسنين ، يؤرخون بموت (قصي) لجلالة قصي عندهم ، فسنة وفاته هي مبدأ تأريخهم الى أن كان عام الفيل ، فأرخوا به لاشتهار ذلك العام[1] .

وذكروا أنهم أرخوا بعام وفاة هشام بن المغيرة المخزومي،وهو والد أبي جهل، وكان من رؤساء بني مخزوم ، وله صيت عظيم بمكة ، كما كان سيد قريش في زمانه[2] . وقد مات بالرعاف ، ذكر أنه كان آخر من مات به من سادة قريش . وزعموا أن الرعاف من منايا (جرهم) أيام جرهم ، وأنه أهلكهم ، فأرخوا به . قال بشير بن الحجير الإيادي :

ونحن إياد عبادُ الإلَه ورهط مناجيه في سُلّم
ونحن ولاة حجاب العتيق زمانَ الرعاف على جرهم[3]

وورد (زمان النخاع) في موضع (زمان الرعاف) ، وهو داء أيضاً ، زعم أنه فتك بجرهم ، فهلك منهم ثمانون كهلاً في ليلة واحدة سوى الشبان[4] . فهو وباء أيضاً زعم أن الناس أرخوا به .

وأرخوا بعام الفيل ، بقوا يؤرخون به الى أن أرخ بالهجرة[5] . وقد ترك الحادث أثراً مهماً في ذاكرة قريش ، ولهذا ذكروا به في القرآن ، حتى يتعظوا به . ويجعلون عام الفيل في الثانية والأربعين من ملك كسرى أنو شروان ، وقبل ولاية النعمان بن المنذر المعروف بـ (أبي قابوس) بنحوٍ من سبع عشرة سنة ،

---

١ اليعقوبي (٢/٤) ، (مولد رسول الله) .
٢ بلوغ الارب (٣/٢١٥) ، (واتخذت قريش موته تأريخا . وله يقول بجير بن عبد الله بن عامر بن سلمة بن قشير :
فأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الارض ليس بها هشام) ،
المحبر (١٣٩) .
٣ الحيوان (٦/١٥١) .
٤ الحيوان (٦/١٥١) .
٥ بلوغ الارب (٣/٢١٥) .

وهي احدى وثمانين وثمانمائة لغلبة الاسكندر على دارا ، وهي سنة ألف وثلاثمائة وستة عشر لابتداء ملك بخت نصر[1] . وهو العام الذي ولد فيه الرسول على أغلب الروايات .

وأرخت قريش بيوم الفجار وبحلف الفضول .

وكانوا يسمون السنين بالحوادث الخطيرة الجليلة التي تقع فيها . وقد فعل ذلك المسلمون أيضاً في صدر الإسلام ، فسموا كل سنة مما بين الهجرة والوفاة باسم مخصوص بها مشتق مما اتفق فيها للنبي . فسموا السنة الأولى للهجرة سنة الأذن ، والثانية سنة الأمر بالقتال ، والثالثة سنة التمحيص ، والرابعة سنة الترفئة ، والخامسة سنة الزلزال ، والسادسة سة الاستئناس ، والسابعة سنة الاستغلاب ، والثامنة سنة الاستواء ، والتاسعة سنة البراءة ، والعاشرة سنة الوداع ،فكانوا يستغنون بذكرها عن عددها من لدن الهجرة[2] .

وأما الأعراب ، فتواريخهم برئاسة ساداتهم ، وبالأحداث التي تقع لهم من أفراح وأتراح ، ومن غزو أو نكبة ، وبالعوارض الطبيعية ، مثل سقوط مطر غزير ، أو انحباسه مدة طويلة ، أو هزة أرضية ، أو ظهور جراد ، أو وقوع وباء ، وما أشبه ذلك من أمور . وهم على هذا النوع من التأريخ حتى اليوم .

وليس في الذي رواه أهل الأخبار عن أهل الجاهلية ما يشير الى وقوف العرب على كتب في التأريخ يونانية أو لاتينية أو سريانية أو عبرانية ، أو على معربات لها . وليس في كل الذي ذكروه اسم مؤرخ من المؤرخين الذين نجلتهم الشعوب المذكورة . غير ان هذا لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم وقوفهم على تواريخ تلك الأمم وأخبارهم ، ففي القصص المنسوب الى الجاهليين ، قصص يدل على انه مأخوذ عن تلك الأمم مستورد منها . ثم ان أهل الأخبار أنفسهم أشاروا الى نفر ذكروا عنهم انهم نظروا في كتب الأساطير ورووا منها أخبار العجم ، والى نفر ذكروا عنهم انهم نظروا في الكتب القديمة وحذقوا لغات أهل الكتاب ، ورووا في شعرهم أو في كلامهم شيئاً مقتبساً من قصص أهل الكتاب ، يضاف

---

١ امتاع الاسماع (١/٤) .

٢ الآثار الباقية (١/٣٤) .

الى ذلك وجود الكنائس والنصرانية في بلاد العرب . والتأريخ ، ولا سيما تأريخ الكنيسة موضوع مهم من الموضوعات التي استعان بها المبشرون ورجال الدين في الوعظ والارشاد . ولا يستبعد أن تكون كتب التأريخ التي كتبها آباء الكنيسة ، مثل (أوسبيوس القيصري) وأمثاله ، في جملة الكتب التي استعانت بها الكنيسة لافهام الناس تأريخها وتطورها وتطور العالم على نحو ما دوّنوه بالاستناد الى التوراة والانجيل .